٣٦٤٥٠١٥
٤٠٢

علم النفس الجنائي

علماً وعملاً

تأليف

المستشار

محمد فتحي

المستشار بمحكمة استئناف مصر سابقاً

وأستاذ علم النفس الجنائي بمعهد الدراسات الجنائية بكلية الحقوق

بجامعة القاهرة

الجزء الأول

المشتمل على الدراسات النظرية لعلم النفس الجنائي

الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٩

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

محتويات الكتاب

صفحة

تقديم الطبعة الرابعة	م
مقدمة الطبعة الثالثة	ز
مقدمة الطبعة الثانية	ط
مقدمة الطبعة الأولى	١
تعريف علم النفس	١٠
أساليب الدراسة النفسية	١٣
١ — المشاهدة بقسميها	١٣
(ا) التأمل الذاتي أو المشاهدة المباشرة	١٤
(ب) المشاهدة الخارجية أو غير المباشرة	١٦
٢ — التجربة	١٨
٣ — التحليل	٢٠
علم النفس ونواحيه المختلفة	٢٢
مظاهر الإجراء العقلي	٢٥
الغريزة	٢٧
مراحل التطور الغريزي	٢٩
عوامل تطور الغريزة	٤١
١ — تكييف الغريزة من حيث مظهر المعرفة	٤٥
٢ — تطور الغريزة من حيث الجانب الصدري	٥٢
طبيعة السلوك الغريزي	٥٦
التداعي الغريزي	٦١
الفعل المنعكس	٦٤
الموازنة بين الفعل المنعكس والغريزة	٦٨
العقل الباطن أو اللاشعور	٧١
١ — مراتب اللاشعور (أو طبقات العقل الباطن)	٧٥

صفحة

٢ ـ وظائف اللاشعور ٧٩

٣ ـ نظرية فرويد فى العقل الباطن ٨٤

فرويد ومظاهر النفس الثلاثة ٩٠

١ ـ النفس ذات الشهوة أو « هى » The Id ٩٠

٢ ـ (الأنا) أو الذات الحسية The Ego ٩١

٣ ـ أنا العليا The Super-ego ٩٤

المركبات النفسية الكبرى أو الغرائز العامة ٩٩

غريزة الذات ١٠١

١ ـ العناصر التى تتألف منها المجموعة الذاتية ١٠١

٢ ـ الغرائز الصغرى المتفرعة عن غريزة الذات ١٠٣

٣ ـ الشعور بالنقص وأثره فى المركب الذاتى ١٠٤

٤ ـ العلامة أدلر وقانون التكافؤ النفسى ١٠٥

٥ ـ الشذوذ الأخلاقى الناشىء عن مركب النقص ١٠٧

الغريزة الاجتماعية ١٠٨

١ ـ مراحل تطور غريزة الاجتماع ١٠٩

٢ ـ غريزة الاجتماع لدى بعض الأحياء الأدنى مرتبة من الإنسان ١١٠

٣ ـ غريزة الاجتماع لدى الإنسان ١١١

٤ ـ المظاهر الثلاثة لغريزة الاجتماع ١١٢

٥ ـ غريزة الاجتماع وأثرها فى حياة الفرد ١١٣

٦ ـ غريزة الاجتماع وغريزة القطيع ١١٦

الغريزة الجنسية ١١٧

١ ـ الغريزة الجنسية وتقاليد المجتمع ١١٧

٢ ـ مراحل تطور الغريزة الجنسية ١١٩

٣ ـ المرحلة الأولى التى تسودها ظاهرة التناسل الذاتى ١١٩

٤ ـ المرحلة الثانية التى تسودها ظاهرة التناسل المزدوج ١٢٠

٥ ـ المرحلة الثالثة التى تسودها ظاهرة التخصص الجنسى بين الذكر والأنثى ١٢١

صفحة

الغريزة الجنسية فى عهد الطفولة ١٢٢

١ — المرحلة الأولى التى تسودها ظاهرة ميل جنسى إلى الذات Auto sexuality ١٢٣

٢ — المرحلة الثانية التى تسودها ظاهرة ميل إلى ذات الجنس Homosexuality ١٢٤

٣ — المرحلة الثالثة التى يسودها ظاهرة ميل إلى الجنس المضاد Heterosexuality ١٢٤

٤ — مصير الاستعدادات الجنسية الأولية وأثرها فى حياتنا العملية ١٢٦

الغريزة الجنسية فى دور نضوجها ١٢٨

١ — مقابلة بين طباع الجرثومة المنوية والبويضة البشرية وبين طباع الرجل والمرأة ١٢٨

٢ — المركبات الصغرى التى تتألف منها الغريزة الجنسية وهى القران الجنسى والحب المعنوى والحب العائلى ١٣٠

٣ — فقدان أحد هذه المركبات وأثره فى الحياة الزوجية ١٣١

٤ — تصعيد النشاط الغريزى أو الشهوة الجنسية إلى سماء المعنويات ١٣٣

(ا) ليونارد دافنشى ١٣٤

(ب) أبو العلاء المعرى ١٣٤

(ج) بتهوفن ١٣٥

٥ — النزوع إلى الاستبدال أو الاستعاضة عند تعذر التصعيد ١٣٦

٦ — الموازنة بين الإخلاص والحب فى الحياة الزوجية ١٣٨

نظرية فرويد فى الأمراض العصبية ١٤٠

١ — المقصود بالأمراض العصبية ١٤٠

٢ — تقسيم الأمراض العصبية إلى أمراض عصبية نفسية وأمراض عصبية فعلية ١٤١

الأمراض العصبية النفسية ١٤٣

١ — لمحة تاريخية ١٤٣

٢ — العوامل التى تهيء النفس للأمراض الهستيرية والعوامل التى تظهرها ١٤٧

صفحة

الهستيريا التحويلية ١٤٩
الهستيريا القلقية ١٥٩
المخاوف الهستيرية أو الفوبيا Phobia ١٦٣
١ — تحليل حالة فوبيا تنطوى على خوف السقوط من المرتفعات ١٦٣
٢ — تحليل بعض حالات فوبيا خالية من العامل الجنسى ١٧٢
(ا) الحالة الأولى : وهى حالة خوف من الممرات الضيقة ١٧٢
(ب) الحالة الثانية : وهى حالة خوف من سماع خرير الماء ١٧٣
(ج) الحالة الثالثة : وهى حالة خوف من ركوب الترام ١٧٤
الظواهر العصبية القهرية (أو الهستيريا التسلطية) ١٧٧
١ — الفرق بين الهستيريا التحويلية والهستيريا التسلطية ١٧٧
٢ — الفرق بين الخوف القلق والخوف التسلطى ١٨٠
٣ — الأعمال التسلطية ١٨١
٤ — بعض مظاهر الهستيريا التسلطية فى الحياة الطبيعية ١٨٢
٥ — تحليل نفسية شاب مصاب بهوس الشك للدكتور بوزفيلد ١٨٣
هستيريا العقائد الوهمية Paranoid-hysteria ١٨٥
١ — أثر العامل الجنسى فى هستيريا العقائد الوهمية ١٨٧
٢ — تفسير العلامة استودارت Stoddart لمظاهر البارانويا على اختلاف صورها ١٨٧
القلق العصبى Anxiety Neurosis ١٩٠
١ الفرق بين القلق العصبى والهستيريا والفرق بينه وبين النوراستانيا ١٩٠
٢ — العوامل التى تسبب القلق العصبى ١٩٢
(ا) العوامل السلبية ١٩٢
(ب) العوامل الإيجابية ١٩٣
(ج) العوامل غير الجنسية ١٩٤
٣ — أعراض القلق العصبى ١٩٥
(ا) الأعراض النفسية ١٩٥
(ب) الأعراض البدنية ١٩٥

صفحة

٤ — علاج القلق العصبي ١٩٦

الضعف العصبي أو النوراستانيا Neurasthenia ١٩٩

١ — تعريف النوراستانيا ١٩٩

٢ — الأعراض الفكرية ١٩٩

٣ — الأعراض الجثمانية ٢٠٠

٤ — العلاج ٢٠٠

نظرية فرويد فى تفسير الأحلام ٢٠٢

١ — معنى الأحلام ٢٠٢

٢ — مرمى الأحلام ٢٠٤

٣ — فائدة الأحلام ٢٠٤

٤ — تلخيص نظرية فرويد فى تفسير الأحلام ٢٠٤

٥ — كشف العامل الجنسى فى حلم سيدة رأت فى منامها أن ابن أختها الوحيد توفى ٢٠٦

٦ — نظرية يونج فى تفسير الأحلام ٢٠٧

٧ — أوجه الخلاف بين يونج وفرويد فى تفسير الأحلام ومرماها ٢٠٨

٨ — أحلام الأطفال وتفسير حلم لابنتى الصغيرة رأت فيه أمها تلقى بنات المدرسة من شرفة المنزل ٢١٠

٩ — تحليل رؤية شخصية المؤلف رأى فيها تنفيذ حكم الإعدام فى جندى بإطلاق الرصاص عليه بطريقة غريبة فى ساحة تشبه ساحة عابدين ٢١٣

١٠ — علاقة الأحلام بالمستقبل ٢١٨

تداعى المعانى أو ارتباط الأفكار ٢٢٢

١ — ظاهرة التداعى فى الحياة اليومية ٢٢٣

٢ — تعريف تداعى المعانى ٢٢٤

٣ — الفرق بين عملية التداعى وعملية الارتباط أو القران العقلى ٢٢٥

٤ — أسباب ظاهرة ارتباط الأفكار وتعليلها ٢٢٧

(ا) نظرية العادة أو النظرية النفسية ٢٢٨

(ب) النظرية الفسيولوجية وكشف مراكز وألياف الاتصال

صفحة

في الطبقة السنجابية من المخ ٢٢٨
(ج) الممارسة والمران وأثرهما في تقوية الروابط الفكرية ٢٣٠
٥ — تقسيم تداعي المعاني من حيث الروابط الفكرية أو القران العقلي ٢٣٣
(ا) ارتباط بسبب التلازم أو الاقتران ٢٣٣
(ب) ارتباط بسبب التتابع أو التعاقب ٢٣٥
(ج) ارتباط بسبب التشابه أو التماثل ٢٣٩
٦ — تقسيم تداعي المعاني من حيث التفاعل العقلي ٢٤١
(ا) التداعي الحسي والتداعي المعنوي ٢٤٢
(ب) التداعي المباشر والتداعي غير المباشر ٢٤٦
(ج) التداعي الخارجي والتداعي الباطني ٢٤٩
٧ — التداعي عن طريق الانفعال المماثل أو التداعي الوجداني ٢٥٥
٨ — الارتباط الإيحائي أو المعلق على شرط ٢٥٨
٩ — تقسيم الارتباط الإيحائي إلى شعوري ولاشعوري ٢٦١
(ا) الإيحاء أثناء التنويم ٢٦٢
(ب) الإيحاء إلى ما بعد اليقظة ٢٦٣
(ج) التداعي أثناء التنويم ٢٦٣
١٠ — تداعي الألفاظ ٢٦٥
(ا) تقسيم تداعي الألفاظ إلى مطلق ومقيد ٢٦٥
(ب) تقسيم تداعي الألفاظ المطلق من حيث نوع التلبية ٢٦٨
(ج) زمن التداعي أو قياس سرعة ورود الخواطر ٢٧٤
(د) العوامل التي تؤثر في متانة الروابط الفكرية ٢٧٦
أساليب العلاج النفسي ٢٨٣
(ا) العلاج بالإيحاء ٢٨٤
(ب) التنويم ٢٨٥
(ج) عملية التطهير أو التفريغ ٢٨٦
(د) التحليل التوزيعي ٢٨٧
كلمة مبسطة عن التحليل النفسي ٢٨٨

مقدمة الطبعة الثانية

لقد نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب منذ أكثر من عام ، وعلى أثر نفاذها توالت على الطلبات ملحفة فى إعادة طبعه ، ولكن حالت مشاغلى دون إخراج الطبعة الثانية فى حينها ، وشعرت بتقصيرى هذا تجاه طلاب الكتاب عامة وطلبة المعهد الجنائى خاصة ، إذ لا غنى لهم عنه فى الدراسة ، ولذا فإنى أتقدم إليهم اليوم بالطبعة الثانية معتذراً عما تكبدوه من مشقة فى سبيل الحصول على الكتاب فى العام الماضى بسبب نفاذه من المكتبات العامة .

وقد استصوبت إخراج الطبعة الثانية فى جزئين متتابعين ، الجزء الأول وهو الحالى اختص بالجانب العلمى أو الدراسة النظرية لعلم النفس — وهى المقررة على طلبة السنة الأولى — والجزء الثانى اختص بالجانب العملى أو المطبق للنظريات النفسية فى المسائل الجنائية — وهو المقرر على طلبة السنة الثانية — وقد راعيت فى هذه التجزئة التيسير على الطلبة وغيرهم من قراء علم النفس فى اقتناء كل جزء مستقلا تبعاً لحاجتهم إليه ، كما وأن الإضافات التى شملها الجزء الثانى كان من شأنها أن زادت فى حجم الكتاب زيادة جعلت من المستحسن إخراجه فى جزئين بدلا من جزء واحد .

ولما كان الجزء الأول يضم معظم النظريات الأساسية لعلم النفس الحديث ، فلم أر موجباً لإثقال كاهل الطالب بإضافات جديدة ، فالكتاب بذاته يعتبر مقدمة علمية وافية بالغرض ، ولو أن هناك نواحى أخرى من الدراسة لها أهميتها لم يطرقها الكتاب ، ولكن من المتعذر الإلمام بجميع النظريات والبحوث المتصلة بعلم واسع الأرجاء متشعب النواحى كعلم النفس فى مجلد واحد .

أما فيما يختص بالإضافات التى اشتمل عليها الجزء الثانى فهى طائفة من

البحوث التطبيقية التي زيدت إلى مقرر السنة الثانية عندما اتسع المجال لزيادتها على إثر إسناد مهمة تدريس مادة علم النفس الجنائي إلى طلبة السنتين الأولى والثانية معاً ، بعد أن كانت مهمتي في التدريس مقصورة على طلبة الثانية فحسب ، وكان الكتاب مقرراً عليهم بشقيه العلمي والعملي ، وكان لزاماً على وقتئذ الاختصار في الشق العملي للاعتبارات التي أشرت إليها في مقدمة الطبعة الأولى ، ولكن عندما انفسح مجال التدريس لطلبة السنتين وزعت المقرر بينهما بأن اختص طلبة السنة الأولى بالجانب النظري من الدراسة ، واختص طلبة السنة الثانية بالجانب التطبيقي منها ، وبذلك اتسع المقرر بطبيعة الحال لإضافات جديدة في هذا الجانب .

وهذه الإضافات يمكن إجمالها في ثلاثة بحوث رئيسية أحدها يتصل بالمجرم والمجتمع ، والثاني بنفسية القاضي ، والثالث بذاكرة الشهود ، على ما سيراه القارىء في الجزء الثاني وهو تحت الطبع الآن وينتظر ظهوره قريباً إن شاء الله ؟

القاهرة في ٢٦ إبريل سنة ١٩٤٩ — محمد فتحى

مقدمة الطبعة الثالثة

لقد فوجئت بنفاد الطبعة الثانية من هذا الكتاب قبيل مستهل العام الدراسى لطلبة المعهد الجنائى بجامعة القاهرة ، فكان لزاماً على أن أبادر بإعادة طبعه للمرة الثالثة حتى يكون فى متناول يدهم فى وقت ملائم ، وحتى أكون بذلك قد وفيت بوعدى للكثيرين ممن طالبونى بالكتاب من غير الطلبة ووعدتهم بسرعة إعادة طبعه .

وكنت أود أن أضيف إلى هذه الطبعة بعض البحوث التى كنت أحاضر فيها الطلبة ولم يشملها الكتاب ، أذكر منها على سبيل المثال :

النظرية العامة للتحليل النفسى ، والموقف الأوديبى المرضى المسمى « بعقدة أوديب » ، والغريزة الجنسية فى مرحلة الطفولة ، وأمراض الغريزة الجنسية فى سن المراهقة والبلوغ ، والتنويم (المغناطيسى) كظاهرة نفسية فى حالتى الصحة والمرض ، وما إليها من البحوث التى يهم طالب المعهد خاصة الإلمام بها ، كما تهم رجال القانون وسائر طلاب علم النفس وهواته بصفة عامة ، ولكن ضيق المجال حال دون ذلك ، وربما أتيحت لى فرصة لإخراج كتاب مستقل يشمل هذه البحوث خلال العام الدراسى ليكون بمثابة قسم متمم للجزء الأول الخاص بدراسة علم النفس من الوجهتين النظرية والطبية .

أما فيما يختص بالكتاب الحالى فقد راعيت حين إعادة طبعه تنقيح بعض عباراته أو تبسيطها لجعلها أيسر فهماً على ذهن القارىء المبتدىء ، وذلك على ضوء تجارب الماضى ، كما تداركت تصحيح الأخطاء المطبعية الطفيفة التى وقعت سهواً فى الطبعة الثانية .

وإنى أنتهز هذه الفرصة للإعراب فيها عن جزيل شكرى لأبنائى الطلبة وجمهور قراء الكتاب فى الجمهورية العربية المتحدة وسائر الأقطار العربية الشقيقة لما لقيه الكتاب من جانبهم من تقدير كريم شجعنى على إعادة طبعه للمرة الثالثة محتفظاً بمادته العلمية وأسلوبه .

كما أعرب عن جزيل شكرى لمكتبة النهضة المصرية التى تكفلت بنشر الكتاب منذ نشأته الأولى حتى الآن ، وكذلك مطبعة مصر التى قدرت الظروف الملجئة إلى المبادرة بظهور الكتاب فأولت طبعه عناية خاصة من حيث السرعة والاتقان ؟

القاهرة فى ٢٠ / ١١ / ١٩٥٨ محمد فتحى

مقدمة الطبعة الرابعة

منذ أن نفذت الطبعة الثالثة لهذا الكتاب من بضع سنوات وأنا أعانى شعوراً بالتقصير نحو أبنائى طلبة المعاهد العليا التى تدرس بها مادة علم النفس الجنائى وكذلك نحو زملائى رجال القانون سواء أكانوا من رجال القضاء أو النيابة أو الشرطة أو المحاماة الذين طالبونى مراراً بإعادة طبعه ، وكذلك سائر إخوانى من المواطنين أو فى الأقطار الشقيقة المتطلعين إلى هذا النوع الفذ من البحث الذى يهدف إلى كشف القناع عن أسرار الطبيعة البشرية وسبر غورها لمعرفة العوامل النفسية الدفينة الرابضة فى أعماق اللاشعور ، والتى تسيطر على السلوك الإنسانى فى حالتى الصحة والمرض .

بيد أن مشاغل ملحة وظروفاً طارئة لم تكن فى الحسبان حالت فى الماضى دون إعادة طبع الكتاب بجزئيه العلمى والعملى بعد نفاذها من المكتبات ، أما وقد خفت وطأة هذه المشاغل بعض الشيء حالياً ، فإننى لم آل جهداً فى إعادة طبع الكتاب بجزئيه وفاء بما قطعته على نفسى من وعد لطلاب هذا الكتاب .

وقد راعيت عند إعادة طبعه أن أضيف فى نهاية الجزء الأول منه نبذة تضمنت موجزاً لأساليب العلاج النفسى ووسائله العمية المتداولة فى مجالات الطب النفسى حالياً ، ثم أردفتها بكلمة مبسطة عن التحليل النفسى وأهميته فى علاج الظواهر النفسية المرضية ليكون ذلك بمثابة تتمة للبحث الخاص بالأمراض النفسية الذى تضمنه الكتاب تحت عنوان « نظرية فرويد فى الأمراض العصبية » .

كما راعيت أن أضيف إلى الجزء الثانى الخاص بالجانب العملى أو التطبيقى بحثاً تناولت فيه مشكلة علاج الإجرام كنت قد تقدمت به إلى المؤتمر الإقليمى

لدراسة وسائل مكافحة الجريمة الذى عقد فى مدينة القاهرة فى ديسمبر سنة ١٩٥٣ بوصفى كنت وقتئذ رئيساً للجمعية المصرية للدراسات الجنائيـة تحت عنوان « الوسائل العلمية فى معالجة الإجرام ، وبعض القواعد التى يمكن اتباعها فى معاملة المجرمين البلغ » .

وإنى قبل أن أختتم هذه الكلمة أرى لزاماً على أن أعرب عن خالص شكرى وتقديرى لمكتبة النهضة المصرية لتشجيعها إياى على إعادة طبع الكتاب وتبنيها طبعه ونشره ، كما أعرب كذلك عن تقديرى للهمة المشكورة التى بذلتها مطبعة السعادة فى سبيل طبع الكتاب بجزئيه فى أقصر مدة ممكنة ومعاونتها إياى فى مراجعة ملازمه ، وعنايتها بدقة طبعه وإخراجه إلى حيز الوجود فى ثوبه الجديد .

٢٥ مارس سنة ١٩٦٩ — محمد فتحى

كتاب علم النفس الجنائى علماً وعملا !

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٣

الطبعة الثانية سنة ١٩٤٩

الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٨

لنفس المؤلف : كتاب مشكلة التحليل النفسى فى مصر
دراستها من النواحى العلمية والاجتماعية والقضائية والتشريعية

وزارة المعارف العمومية

مكتب الوزير

القاهرة فى ١٣ فبراير سنة ١٩٤٧

عزيزى محمد فتحى بك .

تحياتى القلبية ، وبعد فقد تلقيت شاكراً مؤلفكم النفيس « مشكلة التحليل النفسى فى مصر » ولقد تصفحت بعضاً من مباحثه القيمة ، فراقنى نصاعة البيان ، وقوة الحجة ، وسلامة الأسلوب ، وتحقيق أصول هذا العلم تحقيقاً دقيقاً مما كشف عن غامضه ، ورسم حدوده ، وجعل الفائدة منه محققة فى هذه الناحية .

وتفضلوا بقبول خالص الشكر والتحية . المخلص

عبد الرازق أحمد السنهورى

علم النفس الجنائى

مقـــدمة الطبعة الأولى

إن رجل القانون فى عصرنا الحاضر لا يخفى عليه مبلغ المعونات الصادقة ، والمساعدات القيمة التى تسديها إليه البحوث العلمية فى مختلف النواحى ، فكانت له خير معين على حل كثير من مشكلاته القضائية ، فالطب الشرعى ، والكيمياء التحليلية ، والفحص الميكرسكوبى ، وما إليها من البحوث الفنية ، تعاونت مع رجل القانون تعاونا موفقاً فأدنته من الغرض الأسمى الذى تصبو إليه نفسه ، ألا وهو تحقيق العدالة على الوجه الأكمل .

بيد أن ناحية — مع الأسف — لا تزال منه مجهولة ، أو هى فى حكم المجهولة أو المهملة ، فى حين أنها ألزم النواحى إليه وألصقها بمهنته وعمله ، ألا وهى البحوث النفسية وما بلغته تجاريب علم النفس الحديث من شأو كبير ، مما كان له أطيب الآثار فى كثير من ميادين الحياة العملية الأخرى ، كالطب والتربية والتهذيب والتعليم والفنون والصناعات المختلفة ، وما إليها .

فرجل القانون سواء أكان محامياً أم محققاً أم قاضياً أو ضابط شرطة ، فى أشد الحاجة إلى الدراسة النفسية التى تعينه على فهم الطبيعة البشرية على وجهها الصحيح

وتساعده على تفسير كثير من المظاهر العقلية المختلفة ، والظواهر النفسية الغامضة أو المعقدة التي تعرض له في حياته العملية ، كما تنمي الدراسة النفسية لديه ملكة الملاحظة وتقويها ، وبالجملة تؤهله للقيام بواجبه خير قيام .

إن علم النفس الحديث ما هو إلا علم الطبيعة البشرية ، ومن أخص أغراضه دراسة الظواهر العقلية ، ومظاهر التفكير ، والسلوك الفطري منه والمكتسب ، دراسة قائمة على المشاهدة والتجربة والتحليل ، ورد هذه الظواهر إلى قوانين ونظريات عامة ، وتطبيقها في الحياة تطبيقاً صالحاً .

هذه هي أغراض علم النفس الحديث ومراميه ، ومنها يتبين لنا أنه أصبح في العصر الحاضر علماً طبيعياً بكل معاني الكلمة ، ولم يعد ضربا من ضروب الفلسفة النظرية القائمة على مجرد الحدس والتخمين ، كما كانت الحال قديماً ، حاذياً بذلك حذو علم الطب ، فقد كان الطب قديماً فرعاً من الفلسفة أو الحكمة ، ولكنه ما لبث أن انفصل عنها ، واستقل ببحوثه تجاربه ونظرياته الخاصة به وأساليبه .

فعلم النفس في عرف النهضة العلمية الحديثة ، علم قائم على الحقائق الإيجابية المؤيدة بالمشاهدة الحسية والتجربة العملية والتحليل النفسي ، ينظر إلى قوى النفس نظره إلى القوى الطبيعية الأخرى التي تعمل في الكون وتؤثر في المادة ، كالكهرباء والمغناطيس والضوء والحرارة وما إليها .

ولا يضيرنا جهلنا بحقيقة النفس أو كنهها ، ما دامت دراستنا موجهة نحو الآثار الملموسة والظواهر البارزة المدركة بالحس لهذه القوة الخفية التي تعتبر حقيقتها لغزاً من ألغاز الوجود ، ولا يزال أمرها سراً مغلقاً في وجه العلم

منها في ذلك مثل الكهرباء نقنع بدراسة ظواهرها المختلفة ، ونستنبط منها القوانين والنظريات ، ونطبقها في الحياة العملية ، ونستخدمها في كثير من المرافق الحيوية استخداماً صالحاً موفقاً ، دون أن نفقه كنهها أو نعرف حقيقتها .

وما دمنا قد عرفنا أن هذه هي غايتنا من الدراسة النفسية الحديثة ، اطمأنت قلوبنا إليها نحن رجال القانون ، باعتبـــار أننا رجال حقائق ومشاهدات ، ولا تغرينا النظريات الفلسفية مهما بلغت ما لم تكن مؤيدة بالتجارب الصحيحة والدليل العلمي المحسوس ، وهذا من دواعي الفخار لرجل القانون فهو رجل عملي لا خيالي ، وليكن هذا شعارنا دائماً أبداً .

إن علم النفس لم يعد في الآونة الحاضرة ذلك الأثر البالي الذي كان معروفاً قديماً بكونه يبحث فيما وراء المادة ، ويحدثنا عن كنه الروح مما جر عليه وصمة الشعوذة والرجم بالغيب من جانب البعض ، فحاشا أن يكون هذا مقصدنا من الدراســة النفسية ، وإني أجل رجل القانون عن النظر إليها بمثل النظرة الرجعية الجائرة ، ونحن في عصر سطعت فيه أنوار العلم الصحيح ، وبلغت فيه الثقافة الفكرية شأواً رفيعاً ، فإن علم النفس أصبح معدوداً في نظر المفكرين من قادة النهضة العلمية الحديثة ، إنه سيد العلوم طراً وإمامها الأعظم ، لأنه علم دراسة العقل ، والعقل كما نعلم أثمن ما لدينا في الوجود ، وهو قوام الحياة بكل ما فيها من مدنية وعمران ، فهو علم الجيل الحاضر وعلم المستقبل كما يقول العلامة « ويلز » بحق ، بل هو درة العلوم العصرية قاطبة وقبلة أنظار الأجيال المقبلة .

وإني أعتقد أنه قد آن الأوان لرجل القانون أن يجني كما جني غيره من حقول التجارب النفسية غلة طيبة ، ويقطف من غرس بذورها العلمية

ثمراً ناضجاً . فعلم النفس الجنائى أو علم النفس الشرعى بعبارة أعم ، قد يؤدى لنا أجل الخدمات وأعظمها قدراً فى جميع ميادين الحياة القضائية ، مدنية كانت أم جنائية ، وهو محط آمالنا نحن معشر القضاة فى حل الكثير من مشكلات الإجرام والجريمة وإقامة العدل بين الناس على الوجه الأكمل .

ولقد أقنعتنى مشاهداتى وتجاربى الشخصية حال قيامى بمهنتى القضائية كمحقق وقاض أعواماً طويلة ، بأن العامل الأكبر فى تورط رجل القانون فى الخطأ يرجع إلى جهله بأسرار النفس البشرية ، وبإجراءات العقل الباطن وأساليبه الخفية المعقدة ، وما لها من سلطان قوى على تفكيرنا يسيطر على أعمالنا وسلوكنا فى حياتنا اليومية دون أن نشعر . ومع ذلك قل أن يوجد بيننا نحن رجال القانون من يعنى بدراسة الطبيعة البشرية دراسة علمية منظمة ، ولكننا فى هذا معذورون ، لخلو برامج التعليم فى كلية الحقوق من مادة علم النفس ، حتى ولا المبادىء الأولية التى تعين رجل القانون على متابعة الدرس والبحث ، والانتفاع بها فى مستقبل حياته العملية من الناحية التطبيقية .

وليس هذا النقص مقصوراً على رجال القضاء فى مصر وحدها ، ولكنه كان ملحوظاً إلى عهد غير بعيد لدى كثير من قضاة بلاد الغرب حتى فى أعرقها مدنية ، مما حدى بمؤتمر السجون الدولى الذى عقد فى لندن عام ١٩٢٥ إلى إصدار قرار بالإجماع بوجب على من يولى مهنة القضاء أن يكون ملماً بعلمى النفس والاجتماع ، وما ذلك إلا لكون المجتمع الإنسانى أصبح بعد تقدم البحوث النفسية واتساع نطاق الدراسات الاجتماعية ينظر إلى الإجرام باعتباره ظاهرة مرضية تصيب الغرائز التى أودعها الله فى نفوس البشر سليمة صالحة ، فتطرق إليها الفساد وأصبحت سقيمة لأسباب

طارئة وعوامل دخيلة ، فمن واجب المجتمع أن يعامل الفرد الذى تورط فى الجريمة معاملة المريض الذى يحتاج إلى العلاج والهداية والإرشاد . فالقاضى ، وخاصة القاضى الجنائى ، ما هو إلا طبيب اجتماعى مهمته تقوم على تهذيب النفوس وإصلاح ما بها من عوج ، لا على مجرد القصاص وتوقيع الجزاء ، فهو بحكم مهنته أحوج الناس إلى الدراية بأسرار الطبيعة البشرية والإلمام بقوانينها وظواهرها المختلفة فى حالتى الصحة والمرض ، ليقف منها على مبلغ ما طرأ عليها من شذوذ ونشوز ، فيشخص الداء ويصف الدواء .

فالمهمة الملقاة على عاتق القاضى الجنائى فى معالجة الإجرام مهمة شاقة حقيقة ، إذ عليه تقع التبعة الأولى فى أى خطأ أو عسف يرتكبه المجتمع فى حق الفرد ، كما وأن عليه واجباً دقيقاً آخر ، ألا وهو طريقة العلاج على ضوء علم النفس ، وأساليبه الحديثة .

ولعل من حسنات النهضة العلمية الحاضرة فى مصر أن مادة علم النفس الجنائى أصبحت تدرس بمعهد العلوم الجنائية بكلية الحقوق (وهو المعهد الذى لى شرف الانتداب إليه كأستاذ منتدب لتدريس هذه المادة به من عام ١٩٣٣ حتى الآن ١٩٤٣) .

بيد أن قصر دراسة علم النفس على طلبة المعهد المذكور مما لا يفى بالغاية المنشودة من تثقيف رجال القانون بصفة عامة بالدراسة النفسية ، وخاصة القاضى الجنائى والمحقق فى مصر . لأن عدد من ينتسبون إلى المعهد فى كل عام من بين خريجى الحقوق ضئيل ، وعدد من يلتحقون منهم بالوظائف القضائية نسبته أقل . كما وأن الساعات المخصصة لتدريس هذه المادة بالمعهد لا تتسع للتعمق فى الدراسة بشقيها النظرى والعملى ، مع خلو أذهان الطلبة من الدراسة النفسية إجمالا . فلو كان طالب المعهد يدخله

مزوداً بقسط من الدراسة العلمية أو المبادىء الأولية لعلم النفس ، يتلقاه فى مرحلة دراسة الحقوق ، لافسح المجال أمام طالب المعهد للتوسع فى الجانب العملى . هذا فضلا عن أن علم النفس الجنائى المفروض على طالب المعهد أن يتخصص فيه ، ما هو إلا فرع مشتق من ناحية تطبيقه أعم وأفسح مجالا ، وهى علم النفس الشرعى أو القضائى الذى يحتاجه رجل القانون بصفة عامة .

ولما أنشىء هذا المعهد فى أكتوبر عام ١٩٣٢ كان يقوم بتدريس مادة علم النفس الجنائى فيه الأستاذ « فلاتان » ، ولكن مع الأسف وافته المنية فى أواخر العام الدراسى ، وعلى أثر وفاته فوجئت بقرار من مجلس كلية الحقوق بندبى لتدريس هذه المادة بالمعهد ، بدلا من المرحوم « فلاتان » وطلب إلى مجلس الكلية أن أضع من جانبى منهاجاً جديداً لتدريس هذه المادة ، فوضعت منهاجاً يشمل الدراسة النفسية بشقيها العلمى والعملى ، (وهو المنشور فى التقويم السنوى لكلية الحقوق) ، ولكن عندما بدأت التدريس فعلا تبينت أن الزمن المخصص لتدريس هذه المادة لا يتسع لدراسة المنهاج كاملا ، فكان لا بد من اختزال المنهاج وقصره على القدر الذى يسمح به المجال .

فكان أمامى أن أسلك إحدى سبل ثلاث :

الأولى : حذف القسم النظرى من البرنامج بأكمله والاكتفاء بالقسم العملى أو التطبيق .

والثانية : إبقاء مواضيع المنهاج بشقيه كاملة مع اختصار شرحها وجعل الكلام فى كل منها موجزاً إلى القدر الذى يسمح بتدريسها جملة .

والثالثة : حذف بعض الموضوعات وإبقاء البعض مما يكون أكثر نفعاً وأعم فائدة للطالب .

فوجدت أن الطريقة الأولى متعذرة بسبب خلو ذهن الطلبة من الدراسة

النفسية إطلاقاً حتى ولا المبادىء الأولية منها ، فى حين أن القسم العلمى يقوم على دراسة النظريات والقوانين النفسية التى ستطبق فى المسائل الجنائية، فهو الأساس الذى يبنى عليه القسم العملى ، وبدونه لا يتسنى للطالب أن يعتمد على نفسه فى التوسع فى تطبيق هـذه القوانين فى الحيـاة العملية ، أو يكون فى مأمن من الخطأ والزلل حين تطبيقها .

أما الطريقة الثانية فمن شأنها أن تجعـل المنهاج أقرب إلى رءوس المواضيع والتعريف المقتضب منـه إلى الدرس الصحيح والبحث العلمى ، وبخاصة إذا ما روعى أن الدراسات النفسية من أكثر الدراسات العلمية دقة وتعقيداً ، وأنها حديثة العهد على الأذهان ، فهى أشدها حاجة إلى الشىء الكثير من التبسط فى العبـارة والإسهاب فى الشرح والبيان ، فلم أجد أمامى بدا سوى انتهاج الطريقة الثالثة ، فهى على ما فيها من قصور أقلها ضرراً وأسلمها عاقبة ، فوضعت منهاجاً مختزلا راعيت فيه الاقتصاد بقدر الإمكان فى عدد موضوعات البحث ، وقصرتها على القدر الضرورى منها الذى لا يرهق الطالب ، وفى الوقت ذاته تكون لدى الطالب فكرة مجملة عن وسائل البحث العلمى وأساليب التجارب النفسية ، فيمكنه بفطنته وذكائه أن يقيس عليها وسائل البحث فى النواحى الأخرى ، التى يتعين عليه أن يطرقها فيما بعد أو تعرض له فى مستقبل حياته العملية .

ولـكن على الرغم من اختصار المنهاج إلى حـد كبير ، فإن الوقت كان فى معظم السنين يضيق عن تدريس المنهاج كاملا . فكنت أهيب دائماً بالطلبة أن يتابعوا الدراسة النفسية بعد التخرج ، وأدعوهم إلى التوسع فيها معتمدين فى ذلك على أنفسهم ، لأن القـدر الذى يتلقاه الطالب فى فترة العـام الدراسى لا يحقق بذاته الغرض المقصود من انتفاع الطالب بالدراسة النفسية فى الحياة العملية فى دائرة أعم وأوسع ، فهذا القـدر اليسير من العلم

ما هو إلا مرحلة إعداد للبحث العلمي الناضج ، الذي يتعين على الطالب أن يقوم به بنفسه بعد تخرجه من المعهد ، وأن نجاحه فيه يتوقف على مواهبه الشخصية واستعداده الفطري ، وميله الخاص لهذا النوع من الدراسة أكثر من أي شيء آخر .

وكنت أرجو أن تتاح لي في القريب العاجل فرصة إخراج كتاب في علم النفس الجنائي شامل لجميع موضوعات المنهاج الأصلي بشقيه العلمي والعملي ، عسى أن يجد فيه الطالب بعض حاجته من هذا النوع من الدراسة مما يعينه على متابعة الدرس والبحث ، وأكون بذلك قد ملأت فراغاً أصبح ملموساً في عالم التأليف العربي من هذه الناحية ، ولكن حالت دون ذلك ظروف طارئة واعتبارات خاصة لا مجال لذكرها هنا . ولكنني فوجئت في مبدأ العام الدراسي بالمعهد (١٩٤٢ — ١٩٤٣) بنفاد ما كان لدي من عدد ضئيل من ملازم متفرقة من مذكرات التدريس مما كنت أوزعه على الطلبة في كل عام ، فوجدتني أمام ظرف يقضي على بجمع هذه المذكرات وطبعها ، وشجعني على ذلك ما وجدته من إقبال متزايد على طلب المذكرات حتى من غير الطلبة ، وما ألقيته من تشجيع بعض زملائي إياي وإلحاحهم علىّ في وجوب جمع هذه المذكرات وطبعها في شكل كتاب ، فلم أجد بدا من النزول على حكم هذه الاعتبارات والمبادرة بطبع المذكرات الحالية ، وأرجأت طبع ما توافر لدي من موضوعات وبحوث أخرى كجزء ثان في فرصة قريبة إن شاء الله .

وإني أنتهز هذه الفرصة لأعرب فيها عما يخالج نفسي من الشكر العميق مع العرفان بالجميل لحضرات زملائي عميد وأساتذة كلية الحقوق ، وخاصة أعضاء مجلس الكلية الذين دعاهم حسن ظنهم بي إلى اختيارهم إياي لتدريس هذه المادة بالمعهد الجنائي ، وتهيئتهم لي فرصة القيام بوضع مذكرات

التدريس الحالية ، ولم شدات كثير من المحاضرات والبحوث التي كنت أقوم بها متفرقة من حين لآخر ، فأصبح الآن اشتغالى بمادة علم النفس الجنائى عملا دراسيا جديا منظما ، بعد أن كان قائما على مجرد الهواية والتسلية العلمية ، كما أشكر لحضرات القائمين منهم بإدارة مجلة القانون والاقتصاد التي أوسعت صدرها لى دائماً بنشر ما كنت أقوم به من بحوث من آن لآخر ، واهدائها إياى هذه البحوث فى ملازم مطبوعة طبعاً مستقلا ، كنت أهديها بدورى للطلبة ، مما كان يوفر عليهم عناء ونفقات طبع المذكرات .

كما أشكر حضرة صديقى الفاضل الأستاذ أحمد أمين بك رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكذلك حضرات موظفى المطبعة على ما قدموه لى من معونة صادقة ، وما بذلوه من جهد لتذليل عقبات الطباعة فى الآونة الحاضرة ، فى سبيل إخراج هذا الكتاب إلى عالم التأليف ؟

القاهرة فى يوليو سنة ١٩٤٣ محمد فتحى

علم النفس الجنائى

الدراسة النظرية

تعريف علم النفس

إن تعريف علم النفس لمن أدق وأعقد ما يعترض الباحث النفسانى بالنظر إلى جهلنا بحقيقة النفس البشرية من حيث كنهها ، فهى لا تزال سراً مكنوناً من أسرار الوجود ، مثلها مثل الكهرباء وغيرها من قوى الطبيعة ، ندرس خواصها وظواهرها دون أن نعرف من حقيقة أمرها شيئاً .

كما أن علم النفس من جهة أخرى علم متشعب البحوث ، يدرس الطبيعة البشرية من نواح عدة مترامية ومتداخلة فى علوم أخرى : كعلم الأنثربولوجيا Anthropology أو علم دراسة الأجناس البشرية ، وعلم الحياة Biology الذى يدرس الإنسان ككائن حى وما مر به من تطورات ، وعلم الاجتماع Sociology الذى يدرس الإنسان كمخلوق اجتماعى ومظاهر حياته الاجتماعية ، وعلم تحسين النسل Eugenics ، وعلم الإجرام Criminology ، وهو العلم الذى يدرس طبائع المجرمين وظواهر الإجرام ، وعلم الأخلاق Ethics ، وما إليها من سائر العلوم التى مهمتها دراسة الطبيعة البشرية دراسة خاصة من إحدى نواحيها المتعددة . فلهذا كان وضع تعريف دقيق شامل يكون جامعاً مانعاً من الصعوبة بمكان ، مما حدا ببعض علماء النفس إلى استصواب العدول عن وضع تعريف ما .

غير أن جهلنا بماهيـــة النفس لا يمنعنا من دراسة ظواهرها المختلفة والانتفاع بما قد نحصل عليه من معلومات عن طريق بحوثنا وتجاربنا فى حياتنا العملية ، كما هى الحال بالنسبة لباقى القوى الطبيعية . وهـذا فإن وضع تعريف لعلم النفس دون التعرض إلى تعريف النفس بالذات من حيث جوهرها ليس بالأمر المستحيل أو المتعـذر ، خصوصاً ونحن فى مستهل دراسة بحوث قد يكون السواد الأعظم منا خالى الذهن من ناحيتها ، وأن الضرورة تقضى علينا بوضع تعريف ولو تقريبى أملا فى أن يقرب إلى الأذهان الغرض المقصود من هذه البحوث ، ولذا فإنى أضع التعريف الآتى لعلم النفس :

« فهو العلم الذى يبحث فى ملـكات العقل ومظاهر التفـكير والظواهر النفسية المختلفة ، الشعورى منها وغير الشعورى ، وجمع وتنظيم ما نحصل عليه من معلومات عنها ، سواء عن طريق المشاهدة أو التجربة أو التحليل ، ورد هذه الظواهر إلى قوانين نفسية عامة يمكن استخدامها فى الحياة العملية استخداماً صالحاً موفقاً » .

وبالتأمل فى هذا التعريف تبدو لنا الملاحظات الآتية :

الملاحظـة الأولى :

أن عـلم النفس يبحث فى دراسة العقل من حيث ظواهره المختلفة بنفس الوسـائل التى تدرس بها الظواهر الطبيعية الأخرى وهى المشـاهدة والتجربة والتحليل ، فهو من هذه الناحية علم طبيعى كسائر العلوم الطبيعية ، إذ يفترض العقل قوة من قوى الطبيعة التى تعمل فى الـكون وتؤثر فى المادة ولها ظواهر وخواص معينة ، ولـكنها تتميز عن باقى القوى الطبيعية

الأخرى بكونها بالنسبة للجسم الذى تؤثر فيه قوة مسيطرة مدبرة مبدعة . ولن يغير من حقيقة العلم الذى يبحث فى مظاهر هذه القوة كعلم طبيعى كون أمرها لا يزال سراً مجهولا ، فإن علم الطبيعة الذى يبحث فى خواص المادة وظواهر القوى الطبيعية كالمغناطيس والكهرباء لا يعرف شيئاً من حقيقة أمرها ، إذ لا تزال سراً مغلقاً فى وجه رجال العلم .

فدراسة النفس من حيث كنهها لا تزال من علوم ما وراء الطبيعة ولا تعنينا فى دراستنا الحالية بخلاف دراسة ظواهرها فهى التى تهمنا باعتبارنا طلاب علم نفس بالمعنى الصحيح .

الملاحظة الثانية :

أن هناك نوعين من أنواع التفكير ، تفكير شعورى وتفكير لاشعورى ، فالمقصود بالتفكير الشعورى هو الاجراءات العقلية والظواهر التى يشعر بها الإنسان ويحس بوجودها أو يدركها وهى تجرى فى نفسه ، ومنها تتألف الملكات الظاهرة للعقل : كالذاكرة والإرادة والرغبة والتمييز والانتباه والمعرفة والإدراك والقصد ، وغيرها من الظواهر والوجدانات التى يشعر بها كل منا ويحس بها فى حياته العملية .

والمقصود بالتفكير غير الشعورى هو الاجراءات النفسية أو العقلية الباطنية الدفينة فى النفس ، والتى ليس فى مقدورنا إدراكها أو الشعور بها ، فى حين أنها تحرك فينا نزعات خاصة وتدفعنا إلى سلوك معين دون أن نعرف من أمرها شيئاً أو نقوم بها قسراً .

ويمكن من قبيل المجاز تشبيه التفكير الشعورى بالحركة الإرادية (التى مصدرها المجموع العصبى الإرادى الذى يتألف من مراكز عصبية مجلسها

الطبقة العليا فى المخ) ، والتفكير اللاشعورى بالحركة غير الإرادية (التى مصدرها المجموع العصبى الذاتى الذى يتألف معظمه من سلسلة من العقد العصبية على جانبى العمود الفقارى معروفة باسم العظم السمبتاوى) . فكما أن المجموع العصبى يتمتع بنوعين من الحركة أحدهما إرادى والآخر لا إرادى ، كذلك العقل أو النفس تتمتع بنوعين من التفكير أحدهما شعورى والآخر لاشعورى ، وبالتأمل نرى أن التفكير الشعورى يصحبه غالباً نوع من الاختيار أو الإرادة ، فهو أشبه شىء بالحركة الإرادية للعقل إذا ما شبهناه من قبول المجاز بالجسم المادى والتفكير بمظهر الحركة فيه .

والتفكير اللاشعورى يكون أشبه شىء بالحركة اللاارادية ، أى أن إجراءات التفكير اللاشعورى تجرى على غير علم منا ، وقهراً عنا فى النفس الباطنة ، كما تتحرك أعضاؤنا الباطنة وتقوم بوظيفتها رغماً منا وبغير أن نشعر بها أو ندرى من أمرها شيئاً .

الملاحظة الثالثة :

أن وسائل دراسة علم النفس مستقاة من مصادر ثلاثة ، وهى : المشاهدة ، والتجربة ، والتحليل .

ولنقل عن كل من هذه الوسائل الثلاث كلمة موجزة ، فإنها تعنينا جميعاً كطلاب علم النفس فى أبحاثنا النفسية بصفة عامة ، والجنائية بصفة خاصة .

المشـــاهدة

المقصود من المشاهدة هو مراقبة الظواهر الفكرية المختلفة ورصدها عن طريق الملاحظة والتأمل ، وتعليلها بإيجاد الصلة بينها وبين مسبباتها . وهى تشمل نوعين من أنواع المشاهدة :

(النوع الأول) مشاهدة الإنسان ظواهر تفكيره الذاتى ، وملاحظة ما يجرى منها فى نفسه عن طريق التأمل وقوة الملاحظة ، وهو ما يسمى بالتأمل الذاتى Self observation or introspection أو بالمشـــاهدة المباشرة Direct observation .

(النوع الثانى) هو توجيه قوة الملاحظة نحو الغير ومراقبـــة تلك الظواهر فى سوانا ، وهو ما يسمى بالمشاهدة غير المباشرة أو المشـاهدة الخارجية Indirect observation .

التأمل الذاتى :

عرفنا مما تقدم أن التأمل الذاتى هو توجيه قوة الملاحظة وملكة النقد نحو النفس ، فيعكف الإنسان على نفسه ليرقب ما يجرى فيها من إجراءات عقلية ويفسرها ويعللها ، بأن يقف على عواملها الحقيقية ، ويوجد الصلة بين هذه الإجراءات بعضها وبعض ، ثم الصـــلة بينها وبين مسبباتها ومصادرها ، فيستخلص من مجموعة مشاهداته قواعد أو قوانين ثابتة لهذه الإجراءات ، فإذا عرضت للانسان مثلا ذكريات أو وجدانات فى ظرف معين ، فقد يسأل الإنسان نفسه ما الذى أثار هذه الذكريات الدفينة من مضجعها ، أو أثار تلك الوجدانات الكامنة فى هذه اللحظة بالذات ، وما هو مصدرها ؟ وهل لها علاقة بأمر معين أو بحادث مر بنا فى الماضى القريب أو البعيد ؟ وما هى العناصر التى تتألف منها هذه الظواهر النفسية الغامضة ؟ وما الذى

دعاها إلى الظهور فى ظرف معين أو تحت تأثير مناسبة خاصة ؟ وما إلى ذلك من التأملات التى ترد على الخاطر . فإذا لاحظ الإنسان أن رائحة معينة تثير فى النفس ذكرى طعم معين ، أو أن رؤية مكان معين تثير فيها ذكرى حادثة معينة ، أو أن لحناً معيناً أثار منا ذكرى شخص معين ، وهلم جراً ، ولاحظنا أنه كلما تكررت نفس الظروف أو المناسبات التى أثارت منا هذه الذكريات تنبهت معها الذكريات ، أمكننا أن ندرك أن بينهما صلة فكرية ثابتة ، ومن ذلك يمكننا أن نستخلص قانوناً عقلياً معيناً وهو :

« إن الخواطر التى سبق أن مارسها العقل فى آن واحد إذا ما تنبه أحدها بعد ذلك دعا هذا إلى إيقاظ الخاطر الآخر معه ، وهى ظاهرة معروفة بقانون تداعى المعانى عن طريق « التلازم » أو « الاقتران » . وإذا لاحظنا بالتأمل المتكرر أن الشبيه يذكرنا بالشبيه به ، والمثيل بمثله ، أمكننا استخلاص قانون التداعى عن طريق التماثل » .

ولا يعزب عن البال أن التأمل الذاتى لا يقتصر على المعلومات المستقاة من التأملات الفردية الخاصة بنا دون سوانا ، بل يشمل المعلومات المستقاة من الغير عن طريق تأمله فى نفسه على السواء ، ولا يغير هذا من طبيعتها لأن مصدر هذه المعلومات جميعها هو التأمل الذاتى ، بقطع النظر عن تعدد الأفراد أو تعدد المصادر بل فى الواقع تعددها أمر لازم للوصول إلى حقائق علمية إيجابية ، وقوانين عامة يشترك فيها جميع الأفراد ، كما أن ذلك يمكننا من الحصول على أول مجموعة من المعلومات التى تساعدنا على دراسة الظواهر العقلية التى تختلف باختلاف الطبائع والأجناس والطبقات والهيئات .

فبتهذيب وسائل التأمل الذاتى بأساليب علمية تمكن الباحثون من رصد

ظواهر التفكير فينا بدقة حتى أصبح التأمل الذاتي معدوداً من أهم وسائل الدراسة النفسية وطرق البحث في الطبيعة البشرية ، وقد مر به زمن كان معتبراً فيه الوسيلة العلمية الوحيدة للبحث .

المشاهدة غير المباشرة :

التأمل الذاتي على الرغم من عظيم أهميته كوسيلة للدراسة النفسية لا يمكن الاعتماد عليه وحده في تحقيق جميع أغراضنا العلمية من البحث ، حيث يبدو قصورها في بعض الظروف أو الحالات ، وبالأخص حالات الانفعالات والتأثرات العميقة ، فإنها بطبيعتها من الوجدانات التي تؤثر في ملكة النقد في الإنسان ، وتضعف من قوة الملاحظة وبالتالي دقة الاستنتاج ، وقد تقف هذه العواصف النفسية في غالب الأحيان حائلا بيننا وبين ما يجرى في أعماق النفس ، يصدنا عن ولوج لجتها وكشف ما في قرارتها من عوامل أو رغبات دفينة .

فالغضب والخوف والحزن والحب وفرط السرور وفرط الألم كلها من الظواهر النفسية التي بطبيعتها تقف عقبة في سبيل تأملاتنا الباطنة ، لأن التأمل الصحيح وقوة الملاحظة ودقة الاستنتاج كل منها يتطلب منا هدوءاً في التفكير ، وصفاء في الذهن ، يتعارض وحالة الانفعالات التي نبغي دراستها . ومن ذلك يتبين لنا ما في التأمل الذاتي من نقص أو قصور من هذه الناحية من نواحي البحث ، وإذاً لابد لنا من أن نولي أنظارنا شطر ناحية أخرى وهي المشاهدة غير المباشرة وملاحظة هذه الظواهر في غيرنا ودراستها عن كثب ، فنرقب ظواهر الانفعالات والتأثرات المختلفة ممثلة في سوانا ، حيث نشاهدها في حدتها أو احتدامها ، ونحن هادئو النفس مطمئنو الفكر والبال ، ننظر إليها نظر الناقد البصير والباحث المدقق .

فالمشاهدة غير المباشرة تتطلب شخصيتين ، شخصية تراقب وتختبر ، وشخصية

تراقب أو تختبر ، وقد يكون المختبر (بفتح الباء) خالى الذهن من الغاية المقصودة بالاختبار ولا شأن له بموضوع الدراسة .

فدراسة الظواهر الفكرية فى المصابين بأمراض عصبية أو نفسية أو المجانين أو فى الأطفال أو فى الحيوان كلها من الدراسات القائمة على المشاهدة غير المباشرة ، كذلك دراسة ظواهر الانفعالات والتأثرات النفسية التى يعانيها سوانا ضرب من ضروب هذا النوع من المشاهدة ، ولو أن ذلك لا يمنعنا من أن نجمع بين ماتحصل عليه من المعلومات عن طريق مشاهدة الغير وما سبق أن خبرناه فى أنفسنا من تأثرات مرت بنا فى الماضى فى مواقف مماثلة ، والموازنة بين مسلك غيرنا ومسلكنا بالتأمل الذاتى ونحن فى هدوء وطمأنينة ، لنكمل معلوماتنا ونهذبها على ضوء التأمل الهادىء .

فالتأمل الذاتى والمشاهدة غير المباشرة كلاهما من الوسائل المتممة بعضها بعضا فى دراسة الطبيعة البشرية ، والتى لا غنى لإحداها عن الأخرى ، كما أن دراسة الظواهر النفسية عن طريق المشاهدة غير المباشرة من الوسائل التى لا غنى عنها فى دراسة الظواهر المتباينة ، والتى تختلف باختلاف الأفراد والشخصيات ، فإن كان هناك كثير من الظواهر الفكرية ما هو مشترك بين جميع البشر فإنه يوجد بجانبها كثير من الظواهر الخاصة بالأفراد ، أو بأنواع أو أجناس معينة أو طبقات أو فئات خاصة من الناس .

فالمشاهدة الموجهة نحو سلوك الطفل والحيوان هدت الباحثين إلى الوقوف على كثير من حقائق الطبيعة البشرية وكشف أسرارها ، وحل كثير من ألغاز الظواهر النفسية المختلفة المعقدة التركيب بالرجوع إلى أبسط مظاهرها فى الحيوان والطفل ، وتتبع سلسلة تطوراتها ومراتب رقيها من أدنى مراتب الحيوان إلى أرقى مراتب الجنس البشرى .

كما أن جهود الباحثين فى الأمراض النفسية ومشاهدة الظواهر العقلية السقيمة كان لها أكبر فضل فى تفسير كثير من الظواهر العقلية المقابلة لهـا فى حال الصحة ، لأن الظواهر المرضية لا تخرج عن كونها بروزا فى بعض ملكات العقل، وضمورا فى ملكات أخرى ، ترتب عليه إخلال بالتوازن العقلى مكن رجال العلم من معرفة حقيقة وظائف هذه الملكات فى حال الصحة بطريق غير مباشرة بدراسة ما يظهر عليها من أعراض حال المرض : فكما أن علم الأمراض Pathology ودراسة الظواهر المرضية فى أعضاء الجسم مكن الباحثين فى علم وظائف الأعضاء Physiology من حل كثير من معضلات وظائف هذه الأعضاء حال الصحة ، والوقوف على وظائفها الحقيقية وحكمة وجودها ، كذلك بدراسة الظواهر المرضية للنفس تمكن الباحثون فى الطبيعة البشرية من حل كثير من معضلات الظواهر الطبيعية فى العقل السليم .

فالمشاهدة (بقسميها المباشرة وغير المباشرة) هى أول طريق رئيسية سلكها المنقبون والباحثون عن كنوز النفس ، فمكنتهم من كشف الكثير من مجاهلها وأسرارها ، وجمع المعلومات الصحيحة عنها ، وتنظيمها تنظيما علميا ، واستخلاص الكثير من قوانين الطبيعة البشرية وقواعدها .

التجربة

إن البحث القائم على المشاهدة يتطلب منا أن نترقب الفرص والمناسبات التى تعرض لنا فيها الظواهر النفسية وانتهاز هذه الفرص كلما تهيأت لنا ، واستخلاص ما تمكننا الظروف من استخلاصه من معلومات ، وهذا معناه أننا نقف فى ميدان البحث موقفا سلبيا انتظارا لسنوح الفرص ، حتى إذا ما عرضت لنا تحركنا لالتقاطها،وإلا ظللنا فى جمودنا . غير أن أساليب العلم لا تقنع بوقوفنا هذا الموقف ، بل تقضى علينا بالسعى وراء هذه الفرص والمناسبات لخلقها خاصة .

وابتكارها بكل الوسائل الممكنة ابتكارا مقصودا بالذات ، حتى إذا ما هيئت لنا صناعيا سخرناها فى أبحاثنا وتجاربنا ، وهذا ما قضى على الباحثين بضرورة إيجاد الأجهزة والآلات والمقاييس الدقيقة التى مكنتهم من إيقاظ الظواهر النفسية وتنبيهها ، ثم رصدها وقياسها وضبط قوانينها وقواعدها بالتجربة العلمية والاختبار فمن هنا نشأ علم النفس التجريبي بمعامله وأجهزته ومعداته الدقيقة ، التى توصل بها الإنسان إلى رصد كثير من انفعالاته وإجراءات عقله وظواهر نفسه المختلفة بكيفية تدعو إلى الطمأنينة وتكفل عدم التورط فى الخطأ أو الزلل . وأول معهد للتجارب النفسية أنشىء فى عام ١٨٧٩ فى مدينة ليبزج Leipzig ، وكان يحق أول معمل بالمعنى الصحيح أنشىء خاصة للأبحاث النفسية فى العالم ، ولم يلبث أن انتشرت أبحاثه فى وقت قصير فى معظم أرجاء ألمانيا ، ثم انتقلت منها إلى كثير من البلدان الأوروبية والأمريكية .

ولقد كان اختصار المعمل فى ميدان الأبحاث النفسية غير مقصور على رصد الكثير من الظواهر التى تعذر رصدها بالمشاهدة المجردة ، سواء بالنسبة للطفل أو الحيوان أو الإنسان ، أو فى حالتى الصحة والمرض ، بل تعداه إلى خلق الظواهر المرضية بوسائل صناعية فى العمليات الطبيعية خصيصا لوضعها تحت الفحص والاختبار ، ولعل أظهر هذه الأعراض المصطنعة وضوحا هى الأعراض المدبرة بفعل الإيحاء تحت تأثير التنويم (المغناطيسى) .

فتجارب « التنويم » ساعدت على تفسير طائفة من الظواهر الغامضة التى تعذر على العلم درسها فى الحالات الطبيعية .

التحليل

إن علم النفس التجريبي بالرغم مما أحرزه من انتصارات باهرة في جميع ميادين الأبحاث النفسية المتشعبة المترامية الأغراض ، وبالأخص القسم العملي منها ، أو التطبيق بما تفرع منه من نواحي عدة : كعلم النفس الجنائي[1] ، وعلم النفس « البداجوجي » أو التهذيبي[2] ، وعلم النفس الصناعي[3] ، وعلم النفس السياسي[4] ، وفن العلاج النفسي[5] ، وما شاكلها — إلا أن أغراضه ترمى في الواقع إلى غاية معينة ، وهي رصد الظواهر الفكرية وقياسها بالأجهزة والآلات الدقيقة ووصفها بدقة وإحكام ، أى أن تجاربه تعنى بالناحية الوصفية للظواهر النفسية لا التفسيرية أو التحليلية منها التي لا شأن للأجهزة والمقاييس بها ولا سلطان لها عليها ، بل هي من خصائص فن التحليل النفسي Psychoanalysis ، الذي يعالج تحليل الظواهر النفسية الخاصة بالفرد ، وعلم النفس التحليلي Analytical Psychology الذي يبحث في تحليل الطبيعة البشرية من الناحية النفسية بصفة عامة . فالتحليل النفسي يرمى إلى تحليل الظواهر الفكرية اللاشعورية ، أو اقتحام العقبة الحائلة بين العقل الظاهر والعقل الباطن والولوج منها إلى أعماق النفس وخباياها ومجاهلها ، واستخراج ما استقر فيها من مركبات نفسية دفينة بأسلوب فني خاص ابتكره ذلك الطبيب النمساوي الذائع الصيت العلامة زجمند فرويد : وهو أسلوب يعد من أبلغ ما وصلت إليه العبقرية الفكرية من وسائل البحث الفني ، إذ مكن الباحثين من التغلغل في أسرار النفس ودراسة الطبيعة البشرية

---

(1) Criminal psychology

(2) Educational psychology

(3) Industrial psychology

(4) Political psychology

(5) Psycotherapy

وفهمها على وجهها الصحيح : فهذا الأسلوب يبدأ بإيقاظ الذكريات الخاصة بما مر بنا من حوادث عن طريق التداعي المطلق ، (وسيجيء الكلام عنه فيما بعد عند التكلم على تداعي المعاني) ، ثم التنقل منها تدريجيا نحو الماضي البعيد من ذكرى إلى ذكرى ، ومن خاطر إلى خاطر ، رجوعا إلى الوراء واقتفاء أثر ما مر بالنفس من ذكريات مكبوتة لما كابدناه في ماضي الحياة من : غصص نفسية ، أو أمان مكظومة ، أو أوصاب ومحن وآلام حتى نبلغ منها القرار ، ونكشف عما في قاع النفس من مخبآت وأسرار . ولم يقنع محلل النفس بمجرد كشف مركباتها . وذكرياتها الدفينة ، بل عمد إلى تحليلها بإيجاد ما بين الذكريات والمركبات الحقائقة من روابط ، وإظهار ما بينها من صلات خفية ، ورد النتائج إلى أسبابها ، فاستخرج من ظواهر النفس الباطنة ومحتوياتها صورة صادقة من صور الطبيعة البشرية لا أثر للخداع أو المواربة فيها .

وفضلا عما في هذه الوسيلة من دراسة عميقة للنفس ، فإنها أصبحت من أنجع الوسائل العلمية لعلاج مرض كان معدودا من أعضل الأمراض العصبية أعجز الطب قرونا متعددة ، وهو مرض الهستريا ، كما استخدمت في شفاء طائفة من الأمراض النفسية الأخرى . فالتحليل النفسي أشبه شيء بعملية فتح البطن للنفس البشرية إذا ما لجأنا إلى تجسيد النفس عن طريق المجاز . وقد كانت الأبحاث النفسية قبل ظهور التحليل تدور حول دراسة الظواهر الشعورية من ملكات العقل التي هي بمثابة الأعضاء الظاهرة من المجموعة الفكرية ، أما الآن فقد اتجهت الأنظار إلى دراسة اللاشعور وهو بمثابة التجويف الباطني لذلك الجسم العقلي .

فنظرية العقل الباطن ، التي هي أساس علم النفس الحديث ، والتي قلبت كثيرا من النظريات القديمة رأسا على عقب ، وأحدثت تطورا خطيرا في مجال

الأبحاث النفسية فى وقتنا الحاضر ، قامت على المشاهدات المستقاة من إجراءات التحليل النفسى .

فالتحليل النفسى وقد كانت غايته علاج الهستريا وبعض الأمراض العصبية ، أصبح الآن بثروته العلمية أكبر مورد لتغذية علم النفس الحديث بنواحيه المختلفة من الوجهة الدراسية أو العلمية

علم النفس ونواحيه المختلفة

لقد أصبحت المعلومات المستقاة من جهود الباحثين فى الطبيعة البشرية ، سواء عن طريق المشاهدة أو التجربة أو التحليل ، واسعة النطاق لا تقف عند حد أو حصر ، حتى أصبح من المتعذر على رجل العلم أن يلم بشتات هذه المعلومات فى مؤلف واحد أو عدد معين من المؤلفات . ولقد تشعبت مواضيع البحث وتعددت نواحيه ، بحيث أصبح التخصص فى البعض منها دون البعض أمرا تقضى به الضرورة ، حتى لقد أصبح من المتعذر أن يجد المرء مؤلفين فى موضوع واحد متطابقين فى أسلوب البحث أو موضوعاته ، إذ لكل باحث ناحية خاصة من نواحى الدراسة تختلف باختلاف وجهة نظره فى سبر غور الطبيعة البشرية .

فالعقل الإنسانى أو النفس البشرية أشبه شىء بالجبل الأثرى العظيم الذى يحوى فى جوفه من الكنوز والحفريات والآثار ما يختلف باختلاف الجهات والأقاليم والطبقات .

وكما أن علوم الطب أصبحت تشمل مجموعة من الدراسات أثقلت كاهل طالب الطب فى الوقت الحاضر ، بالنظر إلى زيادة المكتشفات الطبية الحديثة زيادة مطردة فى جميع نواحى الدراسات المختلفة ، من

تشريح وعلم وظائف أعضاء وعلم أمراض وفن علاج وجراحة وما إليها ، كذلك أصبحت العلوم النفسية تشمل :

(١) علم النفس النظرى أو العام "Theoretical or General Psychology" بقسميه الوصفى والوظيفى ، (وهو ما يقابل على التشريح ووظائف الأعضاء فى الطب) "Anatomy & Physiology" .

(٢) وعلم النفس للمرضى Abnormal Psychology ، (ويقابله علم الأمراض أو الباثولوجيا) "Pathology

(٣) وفن العلاج النفسى Psychotherapy ، (ويقابله الطب الباطنى) "Internal medicine

(٤) وفن التحليل النفسى Psychoanalysis ، (ويقابله فن الجراحة) "Surgery .

(٥) وعلم النفس الطفلى Child psychology ، (ويقابله علم أمراض الأطفال) Diseases of children

(٦) وعلم النفس الحيوانى Animal Psychology ، (ويقابله علم الحيوان) "Zoology .

(٧) وعلم النفس المقارن Comparative Psycholsgy ، (ويقابله التشريح المقارن) "Comparative Anatomy" .

(٨) وعلم النفس التجريبى Experimental Psychology ، (ويقابله علم وظائف الأعضاء التجريبى) Experimental Physiology .

(٩) وعلم النفس الوقائى أو علم الصحة العقلى Mental-hygiene .

(ويقابله قانون الصحة) "Hygiene .

وهناك من العلوم النفسية ما هو مستقل عن الأغراض الطبية أو العلاجية

مثل علم النفس الصناعى أو العمرانى Industrial Psychology ، وعلم النفس الاجتماعى Social Psychology وعلم النفس السياسى Political Psycholgy ، وعلم النفس الثقافى Cultural Psychology ، وعلم النفس التربادى Educational Psychology ، الذى يتفرع منه علم النفس الشرعى Forensic Psychology وعلم النفس الجنائى Criminal Psychology الذى هو موضوع دراستنا . وماقصدت بذكر هذه المجموعة المطولة من العلوم النفسية إلا لتتكون لدى الطالب فكرة إجمالية من ناحية أهمية علم النفس بصفة عامة وتغلغله فى جميع مرافق الحياة العمرانية ، مما يجعله لا يقل شأناً عن باقى العلوم الأخرى إن لم يفضلها جميعاً ، لأنه العلم الذى يبحث دراسة الطبيعة البشرية أو ظواهر العقل والتفكير ، التى هى روح المدنية والعمران ويتوقف عليها مستقبل الإنسان ، فهو علم المستقبل .

لقد تكلمنا عن تعريف علم النفس فى شىء من الإسهاب ، وما قصدنا بذلك إلا ليكون التعريف بمثابة تمهيد أو مقدمة لهذا العلم الطريف فى أبحاثه ونظرياته ، نتقدم بها إلى الطالب لتساعده على تفهم الغرض المقصود بهذه الدراسة ، وتعرف المركز السامى الذى يتبوؤه علم النفس بين طائفة العلوم الأخرى ، ومايجب أن يكون له من المكانة فى نظر رجال القانون باعتباره رجل حقائق ومشاهدات . فإن علم النفس لم يعد علماً فلسفياً أو نظرياً بل أصبح علما قائماً على التجارب والمشاهدات المؤيدة بالدليل العلمى والبرهان العملى ، فهو الآن علم طبيعى بالمعنى الصحيح له اتصال وثيق بالحياة العملية ، شأنه فى ذلك شأن سائر العلوم الطبيعية الأخرى .

أما وقد فرغنا من هذا التعريف فلنول وجهنا شطر دراسة مظاهر الإجراء العقلى ، مبتدئين بالعمليات النفسية فى أبسط صورها باعتبارها وحدة التفكير ، ثم التدرج منها إلى ما يليها مرتبة ، وهكذا متتبعين مراحل التطور النفسى حتى نبلغ أسمى مظاهر التفكير .

مظاهر الإجراء العقلى

إننا إذا تأملنا مظاهر السلوك فينا لا نلبث أن نتبين أن كل سلوك يصدر عنا لا يصدر اعتباطاً، بل نتيجة عملية نفسية أو فكرة معينة تقوم بالنفس أولا هى بمثابة الدافع أو المحرك لهذا السلوك ، ونظرة تأمل فى الإجراءات العقلية التى تتقدم السلوك تكشف لنا عن حالات ثلاث تقوم بالنفس ، وهى : معرفة شىء أو أمر معين ، يتلوها تأثر خاص بهذه المعرفة ، تعقبه رغبة أو نزوع إلى ذلك السلوك . فهذه الحالات الثلاث ، وهى المعرفة والتأثر والنزوع ، أطلق عليها علماء النفس اسم مظاهر الإجراء العقلى "Aspects of Mental Process" ، وقد عدت بمثابة العناصر الأولية التى تتألف عنها إجراءات التفكير الحركى ، والتى عنها يصدر السلوك فى الكائنات الحية إجمالا .

والإجراء العقلى الكامل يؤلف حلقة تامة من مظاهر التفكير الثلاثة ، يبدأ بالمعرفة وينتهى بالنزوع أو المحاولة ، ولو أن المعرفة يسبقها بطبيعة الحال صورة حسية أو صورة فكرية توقظ مظهرى المعرفة والمحاولة ، يعقبها غالبا سلوك معين أو حركة تكون بمثابة رد فعل أو تلبية للمؤثر الحسى . غير أن التأثر الحسى والحركة كلاهما من وظائف الجهاز العصبى فلا سبيل إلى إدماجهما ضمن مظاهر الإجراء العقلى بمعناه الأخص .

فالكلب الذى يسمع صفير سيده عن بعد ويهرع إليه ليلقاه لم يفعل ذلك اعتباطا . ولكن لكونه أولا سمع صفير مولاه فميزه عن سواه من الأصوات ، وعرفه فتأثرت نفسه بهذه المعرفة تأثراً خاصا ، حرك منه عاطفة الإخلاص التى اشتهر بها الكلب نحو صاحبه ، فأيقظت منه الرغبة فى ملاقاته وهذه الرغبة دفعته إلى الحركة نحو سيده ، والقطة إذا ما وقع بصرها على إحدى

صفارها أو أدركت وجـــودها بأية وسيلة من وسائل الحس ، فيزتها وعرفتها تأثرت بهذه المعرفة تأثراً خاصاً نبه منها عاطفة الأمومة ، فأيقظت فيها نزعة احتضانها وإرضاعها ، وإذا سمع الظبي في الغابة زئير أسد عرفه وتأثر به تأثراً حرك منه غريزة الفرار .

وإذا مررت في طريق بغلام ألفيته يعذب حيواناً ، فهممت بزجره ودفع أذاه عن ذلك الحيوان ، فما ذلك إلا لكونى تأثرت بما عرفته من أمر تعذيبه حيواناً أعجمياً بلا مسوغ .

وإذا سمعت أن صديقاً لي عاد إلى الديار بعد غيبة طويلة في الخارج وقصدت زيارته ، فما ذلك إلا لكونى تأثرت بخبر قدومه تأثراً حرك منى وجدان الشوق إلى صديق ، فدفعني إلى السعي لملاقاته .

وإن مررت بمسكين في الطريق فأحسنت إليه ، فما ذلك إلا لكونى عرفت ما هو عليه من بؤس فرثيت في نفسي لحاله متأثراً بمظهره ، ومددت إليه يد المعونة بدافع الشفقة ، وهلم جرا .

فالحياة العملية مملوءة بما لا يعد ولا يحصى من الأمثلة والمشاهدات الدالة على أن كل ظاهرة من ظواهر السلوك نتيجة لمظاهر الإجراء العقلي الثلاثة : المعرفة ، والتأثر ، والنزوع .

وبالتأمل في طبيعة السلوك يرى أنه إما أن يكون مصدره العادات أو الميول المستقاة من البيئة ، أو بالتربية والتعليم ، ويسمى بالسلوك المكتسب ، وإما أن يكون مصدره ميولا واستعدادات فطرية موروثة ، ورثها الكائن الحي عن طريق سلالته على ممر الأجيال يشترك فيها سائر أفراد النوع ، ويسمى بالسلوك الفطري أو الغريزي . ومظاهر الإجراء العقلي كما تشمل السلوك الغريزي تشمل كذلك السلوك الاكتسابي .

والسلوك الاكتسابي من مميزات الأحياء الراقية القابلة للتربية والتهذيب ، والتي تستفيد في فترة حياتها عملياً عن طريق الخبرة والمران .

أما السلوك الفطري أو الموروث فهو المظهر الخارجي للنزعات الغريزية إجمالا ، ويشمل كل عمل يقوم به الكائن الحي تلبية لداعي غريزة من الغرائز الحيوانية في أخص مظاهرها .

ومما هو جدير بالذكر أن السلوك المكتسب لم يخرج عن كونه مجرد تعديل أو تحوير في مظهري المعرفة والنزوع من مظاهر الإجراء العقلي الخاص بالغريزة ، مع بقاء التأثر الغريزي على طبيعته (كما سيجيء الكلام عنه فيما بعد عند التكلم على تطور الغريزة) .

ولما كانت الغريزة هي الأساس الذي قامت عليه ظواهر التفكير من أبسطها مظهراً إلى أعقدها تركيباً ، وعنها تطورت أرقى ملكات العقـــل البشري ، والمواهب الفكرية السامية ، كان لزاماً علينا أن نخص دراسة الغريزة بقسط من العناية ، لكي تكون لدينا فكرة صادقة من ناحية ملكات العقل الأخرى التي تطورت عنها ، والتي يهمنا الوقوف على حقيقة أمرها كطلاب بحث في الطبيعة البشرية .

الغريزة

تعريف الغريزة : المقصود بالغريزة « هو ما يشاهد في الكائن الحي من استعداد فطري يجعله يتأثر بتنبيهات معينة ، توقظ من نفسه نزعات أو رغبات خاصة ، من شأنها أن تدفعه إلى سلوك معين يرمي إجمالا إلى نفع الكائن

الحى أو نفع نوعه » [1] .

وبالتأمل فى هذا التعريف نلاحظ أن السلوك الغريزى لا يصدر عن الكائن الحى اعتباطاً ، بل مدفوعا فيه بتأثير عوامل معينة تتقدمه ، كما أنه يرمى إلى غاية معينة أو قصد خاص .

أما العوامل التى تتقدم السلوك الغريزى فهى منبه يؤثر فى الكائن الحى تأثيراً خاصا بنوع ذلك المنبه ، فيثير معه نزعات معينة تقوم بمثابة القوى المحركة أو الدافعة لهذا السلوك ، وقد سميت هذه المنبهات بالمثيرات الأهلية للغريزة Native excitants of the instinct ، ومن ذلك يتبين لنا أن الغريزة تشتمل على المظاهر الثلاثة للإجراء العقلى وهى المعرفة والتأثر والنزوع . فالتمييز بين منبه ومنبه والوقوف على طبيعة المنبه أو المؤثر ومعرفته ، هى الخطوة الأولى فى سبيل إيقاظ الغريزة وتنبيهها إلى العمل ، إذ لولا هذه المعرفة لما وقع التأثر الخاص بها . ولا ما يتلوه من مشاولة أو نزوع ، فإذا وقع بصر الطفل أو الصبى على حيوان مؤذ كالثعبان أو العقرب لأول مرة فى حياته وهو خالى الذهن من شره أو أذاه فإن منظره قد لا يخيفه ولا يحرك منه ساكناً ، بل ربما دفعه الفضول وحب الاستطلاع إلى العبث به ، فإذا ما لدغه مرة ، وخبر ما لسمه الفتاك من آلام مبرحة ، فإن مجرد رؤيته إياه بعد ذلك ومعرفة حقيقته يكون كافياً لإيقاظ غريزة الهرب مع ما يصحبها من انفعالات الخوف ، فيطلق للريح ساقيه رعباً وفزعاً .

وإذا نظرنا مثلا إلى سلوك قطة تجاه أشياء مختلفة فى طبيعتها (بالنسبة إليها) مثل : فأر ، وكلب ، وواحدة من صغارها ، وقطعة حجر ، لتبين لنا بوضوح

---

(1) ويمكن اختصار هذا التعريف على الوجه الآتى :

« الغريزة استعداد فطرى للتأثر بمنبهات معينة تثير من الكائن الحى نزوعا نحو سلوك معين يرمى إجمالا إلى نفعه أو نفع نوعه » .

مايكون عليه سلوكها تجاه كل واحد منها من اختلاف بين ، فإن رؤية الفأر تنبه من نفسها شهوة الطعام فتدفعها إلى اقتناصه (وهو ما يعبر عنه بغريزة الهجوم) ورؤية الكلب تنبه من نفسها انفعال الخوف فيدفعها إلى الفرار من وجه ذلك العدو (وهو ما يعبر عنه بغريزة الهرب) ، ورؤية إحدى صغارها تنبه منها عاطفة الحنان والشفقة فتدفعها إلى احتضانها وارضاعها (وهو ما يعبر عنه بغريزة الأمومة) ورؤية الحجر لا تحرك منها ساكناً حيث لا نفع لها منه ولا ضرر ، فلهذا يكون موقفها تجاهه سلبياً .

فلولا إدراك القطة حقيقة هذه الأشياء المختلفة والتمييز بين طبائعها المتباينة لظلت جامدة تجاهها جميعاً ، أو كان سلوكها نحوها خليطاً من المتناقضات لا أثر للتمييز والإدراك فيه .

أما الخطوة الثانية من مظاهر الغريزة فهي التأثر أو الانفعال الذى يعقب المعرفة فهو مترتب عليها ، كما أنه لولاه لما تحركت الرغبة أو النزوع الذى من شأنه توجيه سلوك الكائن الحي في اتجاه معين .

فكل غريزة يصحبها انفعال أو تأثر من نوع ما يثير النشاط الغريزى، فهو أشبه شيء بالوقود الذى يضعه الرجل ليدفع البخار إلى الأنابيب المسلطة على جهاز الحركة.

والخطوة الثالثة هي النزوع أى المحاولة ، أو بعبارة أخرى هى النشاط النفسانى الذى يصحب الغريزة ، والذى من شأنه دفع الكائن الحى إلى الحركة والقيام بسلوك معين .

مراحل التطور الغريزى

إذا أراد عالم من المشتغلين بعلم الحيوان أو علم النبات أن يدرس طبيعة كائن حى من الأحياء ، أو نوع من أنواع النبات ، فإنه لا يتسنى له دقة الوقوف على

طبيعته وخصائصه بغير دراسة حياة النوع والسلالة التي نشأ منها ، كذا الباحث في الطبيعة البشرية أو طالب علم النفس لكي يقف على حقيقة النفس البشرية ويلم بأسرارها وقوانينها إلماماً صادقاً ، يتعين عليه أن يلج باب البحث من ناحيتين : أولاهما تتبع الحياة العقلية الخاصة بالفرد ، وثانيهما تتبع الحياة العقلية الخاصة بالنوع ، أي التطورات التي مرت بها النفس من أول الخلية وجدتنا في عالم الأحياء الأولى حتى الإنسان ، فقد دلنا ناموس التطور على أن سر ارتقاء الأحياء يرجع إلى عاملي الوراثة والبيئة فكل كائن حي فيه قابلية التكييف إلى حد ما بما يلائم البيئة التي يعيش فيها ، واكتساب بعض المزايا عن طريق كده المتواصل في الحياة ، وجهاده في سبيل التغلب على ما فيها من صعاب ، وهذه المزايا تنتقل إلى سلالته عن طريق الوراثة . فكل جيل يرث مجهودات الجيل الذي تقدمه ويورثها للجيل الذي يليه مضافاً إليها قطرة مما اكتسبه في فترة حياته ، وهكذا حتى يجتمع لدى سلالة نوع من أنواع الأحياء ثروة من التطورات المتراكمة على مر الأجيال المتعاقبة قد يسمو بها إلى أرقى مراتب الأحياء كما هي الحال بالنسبة للإنسان .

فعقل الإنسان يشتمل على ثروة أجداده في عالم الأحياء من أول عصر الخلية حتى الآن . مضافاً إليها ثروته المكتسبة من تاريخ ميلاده إلى يوم مماته .

ولما كانت أرقى ملكات العقل وأسمى مواهب التفكير تطورت عن الغرائز الموروثة ، كان لزاماً علينا إذا أردنا أن نقف على طبيعة النفس البشرية وما اشتملت عليه حياة الإنسان الفكرية من ظواهر معقدة أن نولي وجهنا أولاً شطر الغريزة في أبسط مظاهرها ممثلة في أدنى الأحياء مرتبة كالأميبا ، ثم ننتقل بعد ذلك إلى المراحل التي مرت بها ، متتبعين حلقات التطور ومراتب النشوء والارتقاء ، حتى نبلغ أرقاها مرتبة ، عسى أن يلقي ذلك شعاعاً يضيء بعض أسرار النفس وقوانينها المجهولة .

غير أنه لما كان كل تطور نفسي يصحبه تطور مقابل له في المجموع العصبي يتمشى مع الرقي الفكري أو النمو العقلي خطوة بخطوة ، فإنه يجدر بنا أن نبدأ بالجهاز العصبي في أبسط صوره ، ومنه إلى أكثرها تعقيدا متتبعين مراحل تطوره عسى أن يقرب ذلك إلى أفهامنا دراسة التطور النفسي عن طريق القياس ، وتسهيلا للدراسة وتوخيا للإيجاز سنقسم مراحل التطور العصبي إلى أربع مراحل عامة :

المرحلة الأولى :

وهي المرحلة الخاصة بالأحياء المؤلفة من خلية مفردة كالأميبا Amoeba ، وهي كائن بسيط التركيب يعيش في المستنقعات والمياه الراكدة ، ومؤلف من قطعة من مادة زلالية معروفة باسم المادة الأولية Protoplasma داخلها نواة « Nucleus » ، وهذا الكائن الحي يتحرك زحفا بتمديد بعض أجزاء مادته الزلالية فتبرز بشكل نتوءات تسمى بالأعضاء الكاذبة Pseudopodia بواسطتها يلتهم المواد العضوية والعناصر المغذية التي يجدها في سبيله : فبمشاهدة سلوكه في قطرة ماء تحت عدسة المجهر ، يلاحظ أنه يتأثر وينفعل بما يلامسه من المواد الخارجية انفعالات تختلف باختلاف طبيعة هذه المواد ، فإن كانت نافعة له وصالحة لغذائه فإنه يسير إليها زحفا بأعضائه المنبعثة من مادته الأولية ، ولا يلبث أن يحيط هذه العناصر بأعضائه ويحتضنها ثم يزدردها ، وإن كانت المواد ضارة به كالجواهر السامة والكاوية ، أو وخز سطحه بسن حاد ، أو سلط عليه تيار كهربي أو قرع على اللوح الزجاجي بجسم صلب ، فإنه ينكمش في الحال ويجمع أطرافه ويتكور تجنبا للخطر ، وقد أطلق على النوع الأول ، وهو ما ينشر الأميبا ويجذبها إليه ، المنبه الجذاب « positive-taxis » وعلى الثاني وهو ما يدفعها إلى الانكماش المنبه المنفر « Negative-taxis » .

فبالتأمل فى سلوك هذا المخلوق البسيط التركيب ، يتضح أن سلوكه عبارة عن رد فعل لما يحيط به من المنبهات ، ولكنه رد فعل يختلف باختلاف هذه المنبهات من حيث نفعها أو ضررها بالنسبة له : فهو سلوك فيه نوع من التصرف أعنى القدرة على التمييز بين النافع والضار مما يحيط به من المؤثرات أو المنبهات ، وقد أطلق علماء النفس على هذا السلوك المتنوع تبعا لتنوع المنبهات ، « رد الفعل النوعى » أو « التلبية النوعية Specific response » تمييزاً له عن التلبية الآلية «physical response» الصادرة عن أجسام أو مواد غير عضوية كالمفرقعات ، حيث تنطلق القوى الطبيعية الكامنة فيها تحت تأثير مؤثر خارجى بكيفية ثابتة لا أثر للتنوع أو التصرف فيها .

ولما كانت الخلية ليس لها مجموع عصبى بالمعنى المعروف ، بل تحس وتتأثر وتنفعل بمادتها الزلالية ونواتها كتلة واحدة ، فقد ذهب بعض العلماء إلى تجريدها من الشعور ، وفسروا انفعالاتها المختلفة بأنها نوع من الفعل المنعكس الذى لا أثر للادراك أو التمييز فيه ، غير أنه بالتأمل يرى أن الجهاز العصبى فى أرقى الكائنات الحية وفى مقدمتها الإنسان لا يخرج عن كونه مجاميع من الخلايا البسيطة التركيب كالأميبا سواء بسواء ، وإنما قد تخصص كل فريق منها على مر الأجيال بوظيفة من الوظائف التى كانت تقوم بها الأميبا مجتمعة ، وهى الحس والإدراك والحركة ، فالمجموع العصبى من حيث وظائفه هذه لا يمتاز عن الأميبا الفردية إلا بكثرة العدد ، أعنى بالكمية لا بالنوعية(١) . فلو جردنا

---

(١) وإنى شخصياً لأميل إلى افتراض أن مركز الشعور من الأميبا وغيرها من الأحياء ذات الخلية الواحدة كالأنفوزوريا (Infusoria) وما شاكلها هو نواتها التى تعد بمثابة الجهاز العصبى المركزى ، حيث يستقبل المؤثرات الخارجية عن طريق المادة الزلالية التى تنقل إلى النواة الذبذبات أو التموجات الخاصة بكل نوع من =

الخلية إطلاقاً من التميز فى حين أنها الوحدة التي تتألف منها أنسجة المجموع العصبي حتى فى أرقى الأحياء تركيباً فيتعذر علينا إدراك نشوء هذه الملكة فى تلك الأحياء ، كما تعذر علينا كذلك تعليل سلوك الأميبا تجاه المؤثرات المختلفة ، وهو سلوك ينطوى على الحكمة والتدبر ؛ فهى بتنبيهاتها النوعية المحدودة لا تقل إحكاماً عن سواها من سائر الأحياء ، إذا ما روعيت النسبة بين كل منها والوسط الذى يعيش فيه ، وإلا لما استطاعت الأميبا البقاء وبادت عن آخرها هى وسلالتها ، وانطفأ من سطح البسيطة نور الحياة منذ انبثاقه . كما أنها لا يضيرها ألا تكون متمتعة بجهاز عصبي معقد التركيب ما دامت أسباب الحياة فى بيئتها المحدودة موفورة لها بدونه ؛ وما دامت هى فى غنى عنه ، فالأميبا فى فطرة ماثها لا يقل عيشها رغداً عن الضفدعة فى مستنقعها ، ولا الظبي فى أجمته ، ولا الإنسان فى حاضرته .

فالخلية أو نواتها هى مستودع ذلك السر العظيم الذى حارت فى كنهه الأفهام ، ولا يزال أمره لغزاً استعصى على الإدراك ، فلم نجد محيصاً من التسليم بعجزه تلقاء ما خص الله به الأحياء جميعاً من أبسطها تركيباً إلى أرقاها مرتبة وأعظمها شأناً ، من سلوك عجيب مدبر حيال ما يحيط بها من مؤثرات متباينة وعوامل مختلفة ، فعبر عنه تعبير العاجز المقر بعجزه بأنه خاصة فطرية (أعنى مجهولة العلة والمصدر) نشأت فى الكائن الحي منذ أن نشأت فيه الحياة حفظاً لكيانه واستبقاء لنوعه ، وهو ما أطلق عليه اسم « الغريزة » .

= من أنواع التنبهات المختلفة فتحدث تأثيرها الخاص فى النواة تأثيراً يدفعها إلى إصدار الأمر للأعضاء الكاذبة أو المادة الزلالية بالتكيف تبعاً للظروف ونوع المؤثر حسبما يقتضيه نفع الخلية وحفظ حياتها . فالنواة هى مركز الشعور أو التمييز وموطن التأثر من الخلية ، كما أنها مصدر النزوع إلى الحركة .

المرحلة الثانيــة :

إذا ما صعدنا إلى مرتبة أرقى من مراتب التطور لأنفينا الأميبا التي كانت تعيش في العصور الأولى فرادى لم تقنع بعيشة العزلة والانفراد ، بل لجأت إلى التضافر في الحياة مع بنات جنسها جماعات ، فتجمعت زرافات ونظمت جمعها تنظيماً محكماً تقصر دونه أرقى نظم الاجتماع ، واستخدمت في حياتها الاجتماعية الجديدة أرقى أنواع الحكومات الاشتراكية ، وأبلغ ما وصلت إليه عقول البشر من مبادىء الاقتصاد ونظم تقسيم العمل : فنشأت منها كائنات حية جديدة في مظهرها وشخصيتها ، كل فرد منها عبارة عن مملكة قائمة بذاتها ، مؤلفة من عدد لا يحصى من الخلايا التي تضامنت في العيش تضامناً محكم النظام ، لدرجة أصبحت معها الحياة مستحيلة لمن تحدثه النفس بالعزلة والانفصام . وقد أطلق على هذه الشخصية الجديدة لنظام الجماعات الأولى في تاريخ الأحياء « الحيوان ذو الخلايا المتعددة »(١) .

فهذا الكائن المركب أصبح لا يحس بكل جسمه ، ولا يتأثر أو يتحرك بكل جسمه ، كما كانت تفعل أمه الخلية في الأزمنة الأولى ، بل اتبع في حياته الاجتماعية الجديدة نظام التخصص وقانون توزيع العمل . فاختصت الخلايا التي تؤلف بعض الأجزاء الخارجية بوظيفة الحس ؛ كما اختصت مجموعة أخرى من الخلايا بوظيفة الحركة ؛ كما أن بعض الخلايا خصت بالوساطة بين خلايا الحس وخلايا الحركة والقيام بوظيفة التفاهم بينهما ، وتحقيق أغراض الكائن الحي من البيئة التي يعيش فيها بما يكفل له حفظ حياته وبقاء نوعه ، ومن هذا نشأ المجموع العصبي المركزي بأبسط مظاهره من حيث الحس والإدراك والحركة .

---

(١) Multicellular Animal or Meta-zoa

المرحلة الثالثة :

لما كان اختلاف البيئة وتنوع المؤثرات المستمر يقضيان على الكائن الحى أن يضاعف جهوده من حيث الحس والإدراك والحركة ، حرصاً على حياته واستبقاء لنوعه ، فقد ألجأته الضرورة إلى استخدام أكثر من عضو تحت تأثير منبهات عدة ، كان لابد من تطورات جديدة فى وظيفة الحس لإدراك كنه الموجودات بوسائل أخرى غير مجرد الحس ووجود مراكز لأنواع الحس المختلفة ، يقابلها مراكز أخرى للحركة ، كما كان لابد من امتداد الخيوط العصبية بين أعضاء الحس المختلفة ومراكزها وأعضاء الحركة ومراكزها ، مما دعا إلى انتشارها فى عموم البدن ونشوء المجموع العصبى المعقد التركيب بمراكزه الحساسة والحركة الكثيرة العدد .

المرحلة الرابعة :

بالتأمل فى مراحل التطور الثلاثة الآنفة الذكر يرى أن سلوك الكائن الحى لا يزال فيها محدوداً بما تثيره المنبهات حين وقوعها بالفعل ، فلا تصدر عن المجموع العصبى ردود الفعل أو التلبيات النوعية إلا تحت تأثير المنبهات الوقتية ، ولكن بارتقاء الكائن الحى مرتبة أعلى فى مدارج الرقى يصبح فى أشد الحاجة إلى التمييز بين الضار والنافع على ضوء خبرته وتجاربه الماضية ، فكان لابد من تخصص بعض خلايا المجموع العصبى بمهمة الاحتفاظ بهذه الخبرات التى مرت بالفرد فى فترة حياته ، بكيفية تؤهله لأن يلجأ إليها عند الضرورة ليستوحى منها الهداية والإرشاد ، فكان لابد من إفراد جهاز خاص يحقق هذه الغاية ؛ فبرزت من بين العقد العصبية إحداها واستقلت بهذه المهمة ، فكان هذا مبدأ تكون المخ الذى أصبح على مر الأزمان أكبر العقد العصبية حجماً ، وأعقدها تركيباً بالنظر إلى تراكم التنبهات الملقاة على عاتقه وتعاظمها ، وهى الاحتفاظ

بخبرة الأجيال المتعاقبة التي مر بها الكائن الحي في مراحل تطوره ، وتسجيل تاريخ حياة نوعه ، وتسطير ما مر بسلالته من حوادث مضافا إليه ما كابده الفرد من تجارب وخبرة من يوم ميلاده إلى يوم مماته .

* * *

لقد فرغنا من نظرتنا الإجمالية نحو تطور المجموع العصبي ، فلنول الآن وجهنا شطر الغرائز البشرية ، ونلق نظرة إجمالية من حيث تطورها في كل مرحلة من المراحل التي مر بها المجموع العصبي .

المرحلة الأولى :

لقد عرفنا عند التكلم عن الأحياء المفردة الخلية كالأميبا أنها متمتعة بأبسط مظاهر من مظاهر السلوك الغريزي ، وهو « التلبية النوعية » أو ردود الفعل التي تقوم بها الخلية لحفظ كيانها واستبقاء نوعها . فبالتأمل في طبيعة هذا السلوك يرى أنه قائم على نوع من الحس المقترن بالتمييز ، فالتأثر فالنزوع إلى الحركة ، أعني أنه يشتمل على المظاهر الثلاثة للاجراء العقلي التي سبقت منا الإشارة إليها ، وهي المعرفة والتأثر والنزوع ؛ وقد عرفنا مما مر بنا كيف أن الأميبا تقوم بتلبياتها بتصرف يدل على التدبر والحكمة ، مفترضين أن موطن التفكير منها هي نواتها التي تعد بمثابة الرأس المفكر ومركز الحس والإدراك منها ومصدر الحركة .

ولست أرى مبرراً لأن تضن عقولنا على الأميبا بعقل صغير مثلها يتناسب مع احتياجاتها المحدودة بعد الذي عرفناه من طبيعة سلوكها ، وبعد أن تعلمنا من علم الحياة أن جهازنا العصبي المفكر لا يخرج عن كونه وريث الخلية ، وما هو إلا مجموعة من الخلايا البسيطة التركيب لا جديد فيه .

إننا إذا تمشينا مع نظرية التوازي[1] بين العقل والجسم ، والتي تعلمنا منها أن كل تطور في المدارك العقلية يصحبه تطور عائله في الجهاز العصبي ألفينا « التلبية النوعية » من العقل البشري بمثابة الخلية من جسم الإنسان ، أعني أنها الوحدة التي تتألف منها ظواهر التفكير المعقدة ، كما أن الخلية هي الوحدة التي تتألف منها أجسام الأحياء المركبة ، وأن التلبية النوعية هي المصدر الذي تطورت عنه الغرائز الكبرى ثم ملكات التفكير في أسمى درجاتها وأرق مظاهرها ، كما أن الخلية هي المصدر الذي تطورت عنه مراتب الأحياء جميعاً .

المرحلة الثـانية :

إن خروج الخلية من حياة العزلة واندماجها في الجماعة لهي خطوة من أوسع خطوات التطور ، حيث نشأ عنها مخلوق جديد يمثل في شخصيته الفذة حياة شعب أو أمة بأسرها متضافرة متضامنة محكمة النظام ، وهذا المخلوق المتعدد الخلايا يسمى Metazoa أو Multicellular Animal قد أصبح لا يقنع من الحياة بما كانت تقنع به الخلية المفردة ، فلا تغنيه التلبية الفردية في قضاء مآربه من الوجود ، بل كان لابد له من ائتلاف بين تلبياته المختلفة في شكل مجموعة متماسكة متضافرة ، تقف من مجموعة الخلايا التي يتألف منها جسم الكائن الحي موقف العقل الاجتماعي من الشعب أو سياسة الدولة . وبعد أن كان مظهر التفكير في الكائن الحي البسيط هو التلبية النوعية المفردة ، أصبح مظهر التفكير فيه عبارة عن مجموعة من التلبيات متساندة التركيب تشد بعضها بعضاً تحقيقاً لغاية واحدة وغرض مشترك . ففي هذه المرحلة يتلقى الجهاز العصبي المتطور مصادر التنبيه المختلفة عن مراكز الحس ، ثم تصدر التلبيات عن مراكز الحركة ، إلى عضو أو إلى مجموعة من الأعضاء المخصصة للعمل بالقيام بوظيفتها تحقيقاً لغرض معين

---

(١) The Theory of Parallelism

يرمى إلى منفعة الكائن الحى وحفظ حياته وحياة نوعه ؛ فكانت هذه باكورة ظواهر التفكير المركب أى الوظيفى ، والذى تتألف منه مجاميع الغرائز التى تتمتع بها الأحياء المركبة فى أدنى مراتبها ، كالقواقع وذات الأصداف والديدان وبعض الحشرات عديمة الفقار .

المرحلة الثالثة :

لقد رأينا فى المرحلة المتقدمة كيف تطورت ظواهر التفكير من البسيط إلى المركب ، وأن تكاليف الحيـــــاة أصبحت تتطلب من الكائن الحى استخدام عدد من « التلبيات النوعية » يجمعها غرض واحد فى شكل مجموعة متضامنة الوحدات ، غير أنه كلما ارتقى الكائن الحى درجة أسمى فى سلم التطور كلما تشعبت أغراضه من الحياة وزادت تكاليفها ، فكان لزاما عليه أن يلجأ إلى تضامن جديد بين مجاميع التلبيات ، فيؤلف منها مجموعة أوسع تكون بدورها متآلفة حيث ترمى إلى تحقيق غرض معين ، وبذلك أصبح استخدام مجموعة أعم تشمل عددا من المجاميع الفكرية الصغرى فى سبيل تحقيق غاية واحدة أمرا تقضى به الضرورة ؛ فمن هنا تولدت المركبات النفسية الكبرى ، وهى الغرائز التى بسطت سلطانها على عالم الأحياء الراقية من الفقاريات وذوات الثدى وجملتها الإنسان .

المرحلة الرابعة :

لقد كانت المرحلة الثالثة من مراحل التطور النفسى هى المرحلة الخـــاصة بالغرائز ، والغريزة لا تختلف عن « التلبية النوعية » من حيث مظهرها ، إذ كلاهما يشتمل على مظاهر الإجراء العقلى الثلاثة : وهى المعرفة والتأثر والنزوع ؛ وإنما الفرق الوحيد بينهما أن التلبية النوعية ظاهرة نفسية بسيطة ترمى إلى غاية معينة ، بينما الغريزة مجموعة من الظواهر النفسية المعقدة ترمى

إلى نفس هذه الغاية ، إنما تعقيدها ناشىء عن تعدد التلبيات لا عن تباين في الجوهر . مهما تعددت الغرائز وتنوعت ، فإنها جميعا تلتقي عند غاية واحدة ، وهي حب الحياة أو غريزة حب البقاء ، أم الغرائز الحيوانية بأسرها بما فيها الغريزتان الجنسية والاجتماعية ، كلتاهما ترميان إلى بقاء النوع وحفظ كيانه ورفاهيته . كما أن الغريزة في أخص مظاهرها مثلها مثل التلبية النوعية محدودة بفعل المنبهات الخاصة بها ، وهي ما اصطلح عليه رجال العلم بالمنبهات الأهلية للغريزة « Native excitants of the instinct » .

ولا تنشط الغريزة للعمل أو تتحرك إلا بفعل هذه المنبهات ، وفي حدود الغاية التي اختصت بها الغريزة ، وهذا شأن الغرائز الخاصة بالأحياء الدنيئة من أول الأميبا فالديدان أو الحشرات وجميع الأحياء عديمة الفقار إلى أدنى مراتب الأحياء الفقاريات . ولكن سبق لنا القول عند التكلم على تطور الجهاز العصبي في المرحلة الرابعة كيف أن الكائن الحي أصبح بحكم البيئة وما يكتنفها من مختلف العوامل والمؤثرات في شديد الحاجة إلى الاحتفاظ بخبرته الماضية للاسترشاد بها في حل معضلات الحياة ، وكيف أن المخ وهو أكبر العقد العصبية حجما تخصص على مر الزمان بهذه المهمة .

فهذه الخبرة المحفوظة أصبحت عاملا جديدا لتنبيه الغريزة بعد أن كان تنبيها مقصورا على فعل المنبهات الخارجية المباشر ، أعني أنه أصبح للغريزة مصدران للتنبيه ، أحدهما حسي وهو ما يطرق باب الحواس من منبهات خارجية ، وثانيهما معنوي أو نفساني وهو ما يوقظ النشاط الغريزي من الداخل عن طريق الخواطر المختزنة المرتبطة بتلك المنبهات .

فكانت هذه المرحلة مبدأ نشوء التفكير الشعوري الذي يتمتع به أرقى أنواع الأحياء من ذوات الثدي وعلى رأسها الإنسان .

وكلما ارتقى الكائن الحى مرتبة أسمى فى مراتب التطور زادت لديه تكاليف الحياة ، وزادت أمامه مشكلاتها تعقيدا ، وأصبح مرغما تحت ضغط الحوادث وما يحيط به من عوامل تنازع البقاء وقسوة الطبيعة إلى إدخال تحوير فى مسلكه الفطرى ، وتكييف إجراءاته بما يلائم بيئته ، وما يتمشى مع ما فيها من تقلبات لا تستقر ، وتغييرات مستمرة ، فزادت بذلك خبرته بالحياة ، وارتقت معها ظواهر التفكير الشعورى ، فكانت هذه المرحلة مبدأ تطور العقل البشرى بملكاته الفكرية المكتسبة ، وذكائه الذى امتـــــاز به على سائر الأحياء .

ويمكننا تلخيص مراحل التطور الأربعة بمنتهى الإيجاز فيما يلى :

المرحلة الأولى للتطور العصبى :

وهى ماثلة فى الخلية بما فيها من ظواهر الحس والإدراك والحركة بأبسط صورة ، يقابلها من الناحية النفسية « التلبية النوعية » وهى المؤلفة للمظاهر الأساسية للاجراء العقلى وهى المعرفة والتأثر والنزوع ، أعنى الغريزة فى أبسط صورة .

المرحلة الثانية :

وهى المثلة فى الأحياء المتعددة الخلايا ذات الجهاز العصبى البسيط المؤلف من خلايا للحس وأخرى للحركة ، ومن خلايا وسيطة بينهما للتوفيق بين وظيفتى الحس والحركة ، ويقابلها فى التطور النفسى المرحلة التى تتنبه فيها تلبيات عدة ردا لفعل منبه معين فى شكل مجموعة متساندة التركيب ، أعنى نشوء مجموعة من الغرائز البسيطة : أو بعبارة أخرى غريزة مركبة .

المرحلة الثالثة :

وهى الممثلة فى الأحياء ذات الجهاز العصبى المعقد ، حيث تخصصت فيه

مراكز للحس وأخرى للحركة ، يتخللها مراكز وسيطة بينهما ، ويقابلها المرحلة التي تعددت فيها مجاميع القابليات النوعية فاختص كل منها بغاية معينة ، فكان هذا مبدأ تعدد الغرائز وتفرعها ، ونشوء مجموعة من الغرائز المركبة .

المرحلة الرابعة :

وهي التي تكونت فيها المراكز العصبية العليا لحفظ الملكات المكتسبة للرجوع إليها عند الحاجة ، ويقابلها المرحلة التي برزت فيها الخبرة الشعورية وظواهر التفكير المكتسبة التي يتمتع بها أرقى أنواع الأحياء ، واختص الإنسان بأوفر قسط منها ميزه عن سائر الحيوان .

ولن يحط من قدر الإنسان أن يرى أرقى مواهبه الفكرية وليدة الغرائز الحيوانية ، بل على النقيض من ذلك ، فإن هذا لمما يشهد له بفضل التفوق على سائر الأحياء بكده وجهاده المتواصل على مر الأجيال ، ويبشر له بمستقبل ملؤه الأمل في التسامي به إلى حد الكمال .

عوامل تطور الغريزة

لقد عرفنا مما تقدم عند الكلام على مراحل التطور الغريزي أن الغريزة هي تلك القوة الكامنة في الكائن الحي ، والسر المغلق الذي أودعه الله في نفسه فبلغ منها الصميم ، وأن الغريزة تتألف من مجموعة من ردود الفعل أو القابليات التي ترمي إلى غاية مشتركة معينة ، وهي حفظ كيان الفرد من الأحياء وبقاء نوعه ، ولهذا كانت غريزة حب البقاء التي تحيط بعنايتها بقاء الفرد والنوع على السواء هي أم الغرائز جميعا ، حيث عنها تفرعت بقية الغرائز . فهي الحارس الأمين الذي لولاه لبادت الحياة من سطح البسيطة على أثر ظهورها . والغريزة في أخص مظاهرها كما سبق القول محدودة من حيث مصادر

التنبيه بمؤثرات معينة تعرف بالمثيرات الأهلية للغريزة ، ومن حيث التلبية أو رد الفعل مقيدة بسلوك محدود مشترك بين أفراد النوع الواحد يعرف بالسلوك الغريزى . كما هو شأن الأحياء عديمة الفقار كالقواقع والديدان والحشرات ، وأدنى المراتب من الأحياء الفقاريات كالزواحف والأحياء المائية التى تعتمد فى بقاء حياتها وحياة نوعها على الغريزة المجردة .

فإذا تأملنا السلوك الغريزى لدى حشرة من الحشرات التى نعنى بتربيتها ونشرف على تاريخ حياتها كدودة القز مثلا ، وراقبنا سلوكها من أول فقس البويضة وظهور الحشرة فى ميعاد ثابت معين ، فغذاؤها واتخاذها مكاناً ملائماً لنسج خيوطها الحريرية حول نفسها عند نضوج نموها ، ثم تشرنقها مدة معينة ، فظهورها فى شكل فراشة تقوم بأداء وظيفة التناسل ، ثم موتها على الأثر ، لألفينا سلوكها عبارة عن سلسلة من التلبيات المتتابعة تقوم بها كل حشرة منها كزميلاتها بنظام محكم دون خطأ أو انحراف ، وما ذلك إلا لكون سلوكها محكوما بسلطان الغريزة . غير أنه بارتقاء الكائن الحى مرتبة أسمى من مراتب التطور يصبح لزاما عليه أن يكيف مسلكه بما يلائم البيئة المحيطة به ، وتبعا لما يطرأ عليها من تغيرات ، سواء بفعل المؤثرات الطبيعية أو بفعل ما يحيط به من كائنات أخرى تزاحمه البقاء . وكلما اشتدت بالكائن الحى ظروف البيئة وضاقت فى وجهه سبل العيش أو عزت عليه موارده ، كان ذلك أدعى إلى تعديل مسلكه الغريزى وتكييفه وتهذيبه ، فظروف البيئة وقسوتها من أقوى عوامل التطور الغريزى . ولما كانت البيئة فى تغير دائم كان السلوك الغريزى ، تبعا لذلك ، فى تطور مستمر .

ولما كانت الغريزة تشتمل على المظاهر الثلاثة للاجراء العقلى ، وهى المعرفة والتأثر والنزوع ، وكانت المعرفة هى الناحية المواجهة للمسالك الخارجى

للكائن الحي الممثل في جهاز الحركة ، فإنه يمكننا تقسيم عوامل البيئة التي تؤثر في تطور الغريزة إلى نوعين :

أحدهما : خارجي ، أي مصدره البيئة التي يعيش فيها الكائن الحي ، ومتعلق بما يحيط به من الموجودات التي تثير منه نزعاته الغريزية .

والثاني : تلقائي ، مصدره الإرادة أو الاستعداد الفطري الذي يؤهل الكائن الحي لتكييف مسلكه بما يلائم البيئة والظروف ، وهو استعداد موروث من الخلية .

وكل من هذين النوعين متمم للآخر ، إذ أن أحدهما متصل بمصادر التنبيه ويواجه مظهر المعرفة من الغريزة ، والثاني متصل بالتلبية أو رد الفعل ، ويواجه الحياة الخارجية وعوامل البيئة عن طريق مظهر النزوع من الغريزة .

فالمعرفة والنزوع هما مجالس التطور الغريزي . فهما من الغريزة بمثابة القطبين ، بينما « التأثر » أو « الانفعال » هو بمثابة المركز أو المحور الذي تدور حوله حركة التطور ، ولهذا يبقى ثابتاً في جوهره ، محتفظاً بمظهره الخاص به خلال أدوار حياة الكائن الحي ، متحداً لدى جميع أفراد النوع الواحد .

فإذا تأملنا ما نشعر به من انفعال الخوف كلما أثاره من أنفسنا منبه من المنبهات الخاصة به ، وجدنا بالرغم من اختلاف البواعث وتباين ردود الفعل تبعاً لتباين الظروف أنه لا يزال الانفعال مع هذا متحداً في الجوهر والمظهر . فالأسباب التي تثير منا انفعالات الخوف لا تعد ولا تحصى ، وما يؤثر منها في نفس كائن حي قد لا يؤثر في نفس كائن آخر ، حتى بين أفراد النوع الواحد . كما أن سلوكنا الخارجي تجاه العوامل المخيفة إذا ما تحركت فينا انفعالات الخوف قد يختلف باختلاف الأشخاص والظروف ، فإما أن نفر من وجه العدو ، وإما أن نعتصم بالثبات مفضلين المجالدة ومواجهة الخطر على الفرار ، وإما أن نحول تلك النزعة الخاصة بغريزة الفرار إلى

هجوم ، أو قد تخونـنا قوانا فتنحل مفاصلنا ونجمد فى مكاننا مستسلمين للخطر ، ومع هذا يبقى انفعال الخوف إذا ما تحرك منا بآثاره المعروفة ، من اضطراب فى القلب والتنفس وتغير فى حركة الأحشاء والغدد الباطنية وانقباض فى العضلات ، ثابتاً فى مظهره لا يتغير. فعوامل التطور تؤثر فى الغريزة من جانبيها ، وهما الجانب المستقبل لمثيرات الغريزة (أى جانب المعرفة والإدراك) ، والجانب المصدر للنشاط الغريزى أو (جانب النزوع والمحاولة) فهما من الغريزة بمثابة الجناحين ، وجانب التأثر منها بمثابة القلب ؛ فالمعرفة تواجه الحس وتتأثر به ، والحس بدوره يواجه مظاهر الحياة الخارجية ويتأثر بها وبما فيها من منبهات . والنزوع من الناحية الأخرى يواجه جهاز الحركة ويؤثر فيه . وهذا بدوره يواجه الحياة الخارجية ويتصل بها عملياً بما يأتيه الكائن الحى من ردود فعل تؤثر فى البيئة .

ومما هو جدير بالذكر أن جانبى المعرفة والنزوع من الغريزة أو بعبارة أخرى الجانب المستقبل منها والجانب المصدر ، كل منهما خاضع لعوامل التطور مستقلا عن الآخر ، ولذا يحسن بنا أن نتكلم على وسائل تطور كل منهما على حده . ولنبدأ أولا بالمعرفة أو الجانب المستقبل من الغريزة .

تكييف الغريزة من حيث مظهر المعرفة

إن وسائل تكييف الغريزة من ناحية المعرفة أي الجانب المستقبل من الاستعداد الغريزي يمكن إجمالها في الأوجه الآتية :

أولا — أن الخبرة والممارسة من شأنهما هداية الكائن الحي إلى دقة التمييز بين المؤثرات المختلفة ، والوقوف على طبيعتها ومبلغ أثرها في الكائن الحي من حيث نفعها أو ضررها له . ففي الإنسان والحيوان على السواء نلاحظ أن للأصوات القوية الباغتة أثراً خاصاً في إيقاظ انفعالات الخوف ، بقطع النظر عن سابقة ارتباطها بأية خبرة تتعلق بشر أو أذى يكون قد حل بالكائن الحي في ماضي الحياة . فإذا تصورنا في هذه الحالة أن أحد المسالك المستقبلة الخاصة بهذا الانفعال الغريزي يتألف من مجموعة من الخلايا العصبية السمعية ، وأن هذه المجموعة متصلة بالأذن بخيوط عصبية ، فهذا الجهاز المستقبل الخاص بذلك الاستعداد الفطري إذا كان يتأثر بجميع الأصوات الخارجية القوية أياً كان مصدرها ، بحيث تثير انفعالات الخوف دون تمييز بين ما يصدر منها بخطر وما ليس فيه ضرر ، بعد أنه جهاز لم يبلغ من التخصص لأداء وظيفته حد الكمال ، غير أن المشاهد هو أن الخبرة المتكررة تكسبه تدريجياً مزية التخصص للغرض الذي أنشيء هذا الجهاز من أجله ، وأداء مهمته بأساليب أكثر دقة وإحكاماً ، بحيث يصبح قادراً على التمييز بين الأصوات المختلفة والوقوف على طبيعة مصادرها ، وإدراك مبلغ ما يتهدد الكائن الحي من خطر أو ضرر فلا تصبح الأصوات الصادرة عن مصادر لا خطر منها أو ضرر ، مثيرة لانفعال الخوف أو الإزعاج ، فمن قبيل ذلك ما يشاهد في الدواب التي تقطن المدن كالخيل والبغال والحمير حال سيرها في الأحياء المعمورة دون أن تكترث بالأصوات المزعجة المنبعثة من منبهات السيارات ،

أو من القطارات أو غيرها من الأجهزة التي تمر بجوارها وهي في أمان ، على خلاف المألوف في دواب الريف في الجهات التي يندر فيها وجود تلك الأجهزة .

فإذا نظرنا إلى حياة الطفل منذ ولادته إلى حين بلوغه أشده ونضوجه ، وتتبعنا عوامل الخوف في مراحل عمره ، وجدنا أن لكل مرحلة منها عوامل خاصة قابلة للتكييف والتهذيب كلما تقدم الطفل في العمر مرحلة[1] .

ثانياً — إنشاء روابط جديدة تصل بين مثار الغريزة (أي الجانب المستقبل منها) وبين منبهات جديدة عن طريق الحس المباشر تضاف إلى قائمة المنبهات الأهلية للغريزة ، كأن تتكشف للكائن الحي طبيعة أشياء كانت مجهولة له من قبل ، فتنشأ الصلة بينها وبين مثار الغريزة عن طريق الخبرة الطويلة الخاصة بالفرد

---

(١) ولعل البعض منا أتيحت له فرصة مشاهدة مايبدو على صغار الأطفال وخاصة في الحول الأول من العمر من الانزعاج لسماع أي صوت مباغت كطرق باب بشدة أو سقوط جسم صلب على الأرض أو صوت مفرقع عن كثب ، وهو استعداد كنت لاحظته بشكل ملحوظ في طفلة من أطفالي منذ أوائل أشهر حياتها ، مما وجه فكري إلى التأمل في تلك العادة القديمة المتبوعة (والتي يحتمل أنها لا تزال متبعة لدى بعض الطبقات في مصر) وهي طرق هاون نحاس بشدة على مسمع من الطفل يوم « السبوع » طرقات عنيفة متكررة ، وكذلك تكرار هزه في غربال بشيء من العنف ، وما تنطوي عليه هذه العادة من حكمة غير مفهومة أو مقصودة ، وهي كونها خطوة أولى في سبيل تدريب الطفل على الأصوات المزعجة أو الهزات العنيفة التي قد يتعرض لها في مستقبل حياته المملوءة بالمباغتات وإقناع وجدانه الناشيء منذ نعومة أظفاره ، بأن لا خطر عليه من مثلها حتى يألفها وتطمئن إليها نفسه بعض الاطمئنان ، فلا تزعجه إزعاجاً شديداً كما كنت أرقبه في طفلتي الصغيرة ، مما دعاني إلى التفكير في تدريبها على سماع بعض الأصوات القوية المتكررة ما بين حين وآخر بقصد تخفيف حدة انفعالاتها من هذه الناحية .

والنوع ، كـكشف مواد غذائية جديدة يعتمد عليها نوع من الأحياء فى غذائه ، فقد يتحول نوع من الأحياء من حيوان نباتى إلى آكل لحوم أو بالعكس أو الجمع بين الغذاءين ، وما يتبع ذلك من تطور فى مثار غريزة الطعام ، وأن يصبح إدراك الطعام الجديد بالحس مثيراً لشهوة الطعام .

أو إنشاء روابط بين مثار الغريزة وبين أشياء أخرى تجمعها بالمنبهات الأهلية روابط تداع عن طريق الاقتران أو التماثل ، بحيث يصبح مثار الغريزة قابلا للانفعال ليس بالمثيرات الأهلية للغريزة فحسب ، بل بإدراك تلك الأشياء التى ارتبطت بها بطريق غير مباشر ، وأن توقظ هذه الأشياء صورة فكرية للمنبهات الأهلية للغريزة أولا فى النفس ، ثم هذه بدورها توقظ الغريزة وتحركها للعمل . ولنتخذ لذلك مثالا ذكره العلامة وليم مكدوجال(١) فى صفحة ٣٠ من كتابه (علم النفس الاجتماعى) تحت باب طبيعة الغريزة : « إذا افترضنا نوعاً من الطيور يقطن جزيرة غير آهلة بالإنسان ، فإن هذا الطائر بطبيعة الحال لا تخيفه صورة الإنسان إذا ما رآه لأول مرة لخلو ذهنه من حيث طبيعة الإنسان وميله إلى الأذى ، فإذا خطر لجماعة من البشر أن تهاجر إلى هذه الجزيرة وتتخذها موطناً لها ، فإن ذلك الطائر لا يبدى فى بادىء الأمر اهتماماً يذكر بالزائر الجديد ، ولا تثير رؤياه انفعالات الخوف من نفسه ، ولكن ليس ذلك معناه أن الطائر متجرد من ظاهرة الخوف أو غريزة الفرار ، إنما المفهوم بداهة أنه لم تكون لديه بين مثار هذه الغريزة وصورة الإنسان حال وقوعها على شبكية عينيه صلات أو مسالك عن طريقها توقظ التأثرات الخاصة بهذه الغريزة . فإذا ما عن للانسان أن يقتنص هذا الطائر وأخذ يفتك به ببندقيته ويلحق به الأذى من حين لآخر

---

(١) "social psychology ", by William Mc Dougall, p. 30, 20th Edition

فالطائر لا يلبث أن يتعلم الفرار من وجه الإنسان إذا ما وقع بصره عليه ، ولو لم يصحب صورته صوت العيار » .

والعلامة مكدوجال يضع أمام القارئ فروضاً ثلاثة لتفسير هذا التطور فى ظاهرة الخوف لدى الطائر الآنف الذكر .

الفرض الأول :

أن الطيور وهى على الأغصان أتيحت لها فرصة مشاهدة ما حل ببعضها من كوارث وآلام انتابتها على يد الإنسان على أثر إطلاق أعيرته النارية عليها ، وبذلك أمكنها أن تستنتج ما عساه يحل بها بدورها إذا ما اقترب منها الإنسان . فمن طريق هذا الإستنتاج تطور ذلك الاستعداد الفطرى الخاص بغريزة الفرار .

الفرض الثانى :

أن صورة الإنسان كان يصحبها دائماً صوت العيار ، وأن هذا الصوت من طبيعته أن يثير انفعال الخوف ، وبارتباط صورة الإنسان بصوت العيار يصبح وقوع صورة الإنسان على شبكية عين الطائر من شأنه إيقاظ الصورة السمعية للعيار فى مركز السمع من المخ ، وهذا بدوره يوقظ انفعال الخوف .

الفرض الثالث :

أنه بسبب تكرار ظهور صورة الإنسان مقترنة بصوت العيار تصبح صورته رمزاً للشر والأذى ، فتوقظ رؤيته انفعالات الخوف بطريق مباشرة دون حاجة إلى إيقاظها عن طريق الصورة السمعية أولا ، وبذلك يصبح لهذه الغريزة مسلك جديد يتأثر به غير مسلك السمع .

أما الفرض الأول فواضح البطلان كما يقول مكدوجال ، إذ لا يسلم أحد بأن مجرد الاستنتاج الفكرى يكفى لتطوير المسلك الغريزى لدى فصيلة من الطيور ، حتى ولا لدى طائفة من الفلاسفة والحكماء .

وأما الفرض الثانى فيقول : إنه قريب الاحتمال ينطوى على الشيء الكثير من الحقيقة ، وأنه مسلم به من جانب الكثيرين من علماء النفس ، ولكنه يرى تعذر الأخذ به إلا بالنسبة لأحياء نضجت لديها ملكة التفكير الحر كالإنسان أو كأرقى مراتب الحيوان ، ويستبعد تصديقه بالنسبة لأحياء سلوكها قائم على مجرد الاستعدادات الغريزية كالطيور ، ولهذا فهو يعتمد فى تفسير تطور مثار غريزة الفرار لدى الطيور فى مثل هذه الظروف على الفرض الثالث ، والذى من مقتضاه يصبح مجرى المؤثر واقعاً بين صورة الإنسان وبين مثار الغريزة أو الجانب المستقبل منها مباشرة .

غير أنه بالتأمل فيما ذهب إليه العلامة « مكدوجال » من المفاضلة بين الفرض الثانى والفرض الثالث ، يرى أن هذه المفاضلة قائمة على كون الرابطة بين مثير الغريزة ومثارها فى الفرض الثانى ليست مباشرة ، أعنى تتخللها صورة سمعية (هى المتعلقة بصوت الصياد) تصل بين الصورة البصرية لشبح الإنسان عند وقوعه على الشبكية وبين مثار الغريزة ، فى حين أن هذه الصورة السمعية الوسيطة منعدمة فى الفرض الثانى ، كما يقول : مع أنه بالتأمل يرى أنها لا تزال موجودة ، لكنها بحكم العادة والتكرار انتقلت إلى منطقة اللاشعور ، حيث تبقى هناك قابلة للتأثر بالمنبهات ، تتلقى التنبيه الصادر من الصورة البصرية أولا ، ثم هذه بدورها تنبه مثار الغريزة دون أن يشعر الكائن الحى بهذه العملية التى تجرى فى جوف اللاشعور ، وهو ما يفسر بقانون التداعى « غير المباشر » أو التداعى الباطنى ، الذى تكون حلقة الاتصال فيه بين التنبيه والتلبية غاطسة فى اللاشعور ، فزئير الأسد يخيف الظبى عن طريق صورته المطبوعة فى جوف اللاشعور والتى ارتبطت بالصورة السمعية للزئير .

ومما تقدم يرى أن الفرض الثانى ما هو إلا مظهر تفصيلى للإجراء العقلى

فى الفرض الثالث ، وأن مؤداها واحد ، ولهذا لا محل للمفاضلة بينهما لاتحادهما فى الجوهر وإن اختلفا فى المظهر[١] .

فتنبيه الغريزة الجنسية عن طريق حاسة الشم مثلا ، وتنبيه شهوة الطعام بحاسة السمع ، كقرع الأوانى الخاصة بالغذاء أو عن طريق الصورة البصرية لأشياء معينة ، كرؤية المائدة تعد قبل وضع الطعام ، أو بالشم عن طريق الرائحة الخاصة بشى اللحم وطهى الأطعمة ، وتنبيه غريزة الخوف بمجرد سماع أصوات صادرة عن حيوانات مخيفة ، كلها من قبيل الروابط الغريزية القائمة على « التداعى الغريزى » غير المباشر الذى تتنبه فيه النزعة الغريزية لا عن طريق المنبهات الأهلية للغريزة مباشرة ، ولكن عن طريق صورة حسية أخرى توقظ صور المنبهات الأهلية أولا ، ثم هذه بدورها توقظ الانفعال الغريزى .

ثالثاً — إنشاء مسالك أو مجارى تنقل التأثر ، لا عن طريق المنبهات الموجودة فى عالم المادة ، أعنى فى الحيـــاة الخارجية فحسب ، بل وعن طريق الصورة المعنوية ، أو الفكرية الخاصة بهـذه المنبهـات المحفوظة فى الذاكرة أو الخواطر المرتبطة بها ، سواء بطريق مباشرة أو غير مباشرة ، بمعنى أن مثار الغريزة يتخذ له مسلكا جديداً يتصل بمستودع الصور

---

(١) وإنى شخصياً لأميل إلى تطبيق قوانين التداعى العامة على الاستعدادات الغريزية والسلوك الغريزى وتفسير تطوراتها بمقتضى أحكام هذا القانون مفترضاً نشوء الروابط الغريزية بين مثيرات الغريزة (التى هى بمثابة التنبيه فى عملية التداعى لدى الفرد) ، والسلوك الغريزى (الذى هو بمثابة التلبية أو رد الفعل) عن طريق الممارسات الإجابية المتوارثة بين السلالات المتعاقبة لنوع من الأحياء عدة أجيال ، (وهى بمثابة التكرار أو العادة لدى الفرد فى تعبيد المسالك العصبية بين المنبهات وتلبياتها) ، وهو ما أطلقت عليه اسم « التداعى الغريزى » وسيجىء الكلام عنه عند التكلم على « طبيعة السلوك الغريزى » فى حينه .

الفكرية وخزانة المحفوظات الخاصة بالخبرات الحسية أو الخواطر المرتبطة بها ، بجانب مسلكه المتصل أصلا بمثيرات الغريزة الموجودة فى عالم المادة الخارجى أو البيئة ، مثال ذلك تنبه انفعال الخوف لدى الأطفال عند سماع الأحاديث المخيفة والروايات المزعجة ، أو تحرك عاطفة الميل الجنسى عند قراءة الوقائع الغرامية أو مجرد التفكير فى المسائل الجنسية ، أو تحرك عاطفة الأمومة لدى المرأة إذا ما تذكرت ولدها المقيم بعيداً عنها فى جهة نائية ، ومن هذا القبيل أيضاً تحرك الغرائز المختلفة بفعل صور المنبهات الغريزية التى نراها فى أحلامنا ونحن نيام ، حين تكون مجارى الحس الخارجى موصدة ، والاتصال بين مثار الغريزة والبيئة الخارجية مقطوعاً ، والتنبيه مصدره الوحيد فى هذه الحالة الصور الفكرية الخاصة بالمنبهات الأصلية المحفوظة فى مستودع (أو متحف) المحفوظات الحسية .

رابعاً — لما كانت الصور المعنوية أو الحسية للأشياء المثيرة للغريزة لها نفس الأثر الذى لتلك الأشياء ذاتها ، من حيث إثارة الغريزة ، وأنه تبعاً لقانون التداعى قد ترتبط الفكرة الواحدة أو الصورة الحسية الواحدة بمجموعة من الأفكار أو الصور الذهنية المختلفة ، قد يكون كل منها خاصاً بغريزة معينة أو شائعاً بين مجموعة من الغرائز ، إما عن طريق الاقتران أو عن طريق التماثل لوجود تشابه من وجه من الوجوه بين الصورة المستجدة وبين الصورة الأصلية الخاصة بمنبه من المنبهات الأهلية للغريزة ، فإن ذلك قد يؤدى إلى إيقاظ مجموعة من الغرائز فى وقت واحد ، كما يشاهد من إيقاظ الشهوة الجنسية مصحوبة بانفعالات الخوف (المتولدة عن غريزة المحافظة على الذات) مع تحرك عاطفة الإخلاص المتولدة من روابط اجتماعية معينة (والتى مصدرها الغريزة الاجتماعية) فى بعض الظروف التى قد تشترك فيها مجموعة من العوامل النفسية المختلفة فى إيقاظ هذه المجموعة من الغرائز وامتزاج نزعاتها المتباينة ، مما قد يؤدى إلى نضال

نفسانى قد ينتهى بانتصار بعض النزعات وإخماد البعض الآخر ، أو إيجاد مخرج يحقق الأغراض المجتمعة معاً (كما سيجى الكلام عنه عند التكلم على عوامل تطور الجانب المصدر من الغريزة) أو استمرار النضال فى صورة اضطراب أو قلق نفسى .

تطور الغريزة من حيث الجانب المصدر

لقد عرفنا مما تقدم أن كلا من الجانبين المستقبل والمصدر من الاستعداد الغريزى قابل للتكييف مستقلا عن الآخر ، وتكلمنا عن حالات تكيف الجانب المستقبل ، والآن يمكننا إجمال أوجه تكيف الغريزة من ناحية الجانب المصدر منها — أعنى النزوع — فيما يلى :

أولا — أنه كلما ارتقى الكائن الحى مرتبة أسمى فى مراتب التطور زادت عليه تبعاً لذلك أعباء الحياة وتشعبت أغراضه منها وتباينت ، وكان لزاما عليه أن يعدل مسلكه الغريزى وفقاً لمقتضيات البيئة التى يعيش فيها وتقلباتها المستمرة ، ويعد نفسه لمكافحة ما يكتنفها من العوامل المختلفة ، فكان ذلك مدعاة إلى مضاعفة مجهوداته فى تحوير مسلكه الغريزى أو نزعاته بما يلائم الظروف والتوفيق بين رغباته وبين عوامل البيئة بقدر المستطاع ، مما أدى به إلى زيادة عدد تنبيهاته الغريزية . وبالتالى إنشاء مسالك جديدة مصدرة للنشاط الغريزى تصل بين مظهر النزوع من الغريزة وبين جهاز الحركة وتمهيد الطريق بينهما عن طريق العادة والتكرار ، وبذلك يتغذى الجانب المصدر من الغريزة بثروة جديدة من ردود الفعل ، مع تنوع فى النزعات الغريزية وتعدد فى أشكالها وأصبحت الغرائز التى كانت لا تؤلف إلا مجموعة محدودة من ردود الفعل لدى الأحياء الدنيئة تؤلف أكبر مجموعة من النزعات الغريزية المتشعبة لدى الأحياء الراقية وعلى الأخص الإنسان .

ثانياً — تهذيب ردود الفعل أو التلبيات الغريزية عن طريق الممارسة والمران، وجعلها أكثر إحكاماً وملاءمة للأغراض الغريزية الأصلية، أو المقاصد الأهلية للغريزة، وهو ما دعا إلى تخصص بعض أجهزة الحركة لدى الأحياء للقيام بإجراء معين، أو مجموعة من الإجراءات المتتابعة تلبية لدافع غريزي خاص، وإفراد مراكز خاصة من الجهاز العصبي لهذه الوظيفة لتمكين جهاز الحركة من أداء مهمته على الوجه الأكمل.

وهذا التطور من المجموع العصبي يصحبه تطور مقابل له في أعضاء الحركة ذاتها من حيث الوضع والشكل، فتتخذ لها على طول الزمن أوضاعاً وأشكالا خاصة، تؤهلها لأداء مهمتها بمهارة وإتقان، ومن هذا القبيل ما يشاهد من تطور مناقير بعض الطيور التي تعيش على الأسماك والأحياء المائية، واتخاذها أشكالا تمكنها من اقتناص فريستها وهي تسبح في الماء، وتطور عنق الزرافة ببلوغه حداً من الطول يلائم طريقة معيشتها ويساعدها على التغذي من أغصان الأشجار الباسقة، وتطور أنف الفيل إلى خرطوم يمكنه من استخدامه في شتى الأغراض التي يعز عليه بلوغها بسبب ضخامة جسمه، ومن تطور أسنان وأضراس الحيوانات المختلفة كل منها بما يلائم نوع غذائه، وما إلى ذلك من التطورات العضوية التي لا تعد ولا تحصى، والتي لا يخفى أمرها على كل من يتأمل ما بين الأحياء من تباين في المظهر الخارجي لتركيب أعضائها وتكوينها، واختلاف أشكالها بما يتفق مع وظيفة كل عضو منها، ومهمته التي تخصص لها على مر الأجيال في مراحل التطور الغريزي، ويؤهل الكائن الحي لتحقيق أغراضه من البيئة التي يعيش فيها.

ثالثاً — تضاؤل النزعة الغريزية وإضعافها بعدم استعمال مسالكها المصدرة، مع ما يتبع ذلك من ضمور في أعضاء الحركة الخاصة بهذه النزعة، لأنه إذا سلم

بأن مسالك الجانب المصدر من الاستعداد الغريزى تقوى بالممارسة والمران ، فإن النتيجة المنطقية لذلك أنها تضعف بالترك والإهمال .

فإذا جئنا على سبيل التجربة بطائر معين ، وهيأنا له مكاناً يتعذر عليه الطيران فيه ، ثم تعهدنا تربيته واستئناسه فى ذلك المكان ، فقد نصل بعد حين من الزمن إلى سلالة من ذلك الطائر ضعفت فيها نزعتها الفطرية إلى الطيران .

ولعل من الأمثلة الحية لذلك ما آل إليه شـــأن بعض الطيور الداجنة التى استأنسها الإنسان ، وما كان لهذا الاستئناس على طول الزمن من الأثر البين فى إضعاف مقدرتها على الطيران وتقليل ميلها الغريزى إليه .

كذلك بعض الطيور غير المستأنسة ، كالنعامة فقدت موهبة الطيران ، أو أضعفتها باستغنائها تدريجياً عن استخدام جناحيها والركون إلى ساقيها فى تحقيق أغراض الحياة ، فأصبحت بذلك على مر الأجيال ذات جناحين ضعيفين لا يقويان على حمل جسمها الثقيل فى الجو ، يقابل ذلك ساقان طويلتان تعوضان عليها مزية الطيران بما كسبته عن طريقهما من مقدرة فائقة على العدو واستخدامهما سلاحاً قويا فى الدفاع .

رابعا — تطور الجانب المصدر من الاستعداد الغريزى بإدخال تحوير أو تعديل فى وسائل التلبية أو ردود الفعل ، بالاتجاه إلى وسائل مصطنعة تقضى بهـــا الضرورة لمعاونة الأعضاء المخصصة للحركة فى تحقيق الأغراض الغريزية كاستخدام الآلات والأسلحة المختلفة فى الدفاع عن النفس ، أو فى الهجوم والاعتداء ، لقصور الأعضاء المجردة عن بلوغ هذه الغاية ، أو لتحقيق أغراض أخرى من الحياة مع ما يتبع ذلك من تطور جديد فى تلك الأعضاء ، ويتناسب مع مهمتها الجديدة ويجعلها أكثر ملاءمة لهذا التعاون المشترك بينها وبين الأجهزة المصطنعة

والآلات التي تصبح مع مر الأزمان كأنها جزء متمم لأعضاء الجسم لا يمكن الاستغناء عنها كما هو شأن الإنسان وآلاته ومخترعاته الكثيرة .

خامسا — اشتراك تلبيات غرائز متعددة وتآلفها ، واستخلاص نزعة جديدة للتوفيق بين النزعات الغريزية المختلفة ، وهو ما يمكننا تسميته بالاندماج أو تكثيف Amalgamation or Condensation . مثال ذلك النزعة الخاصة بالزعامة الوطنية للتوفيق بين غريزة الحب الأبوي لمن لا ولد له ممثلة في حب أبناء الوطن ، والغريزة الاجتماعية ممثلة في تكريس الزعيم حياته لخدمة المجتمع ، وغريزة حب التسلط ممثلة في مركز الزعامة وما يتطلبه من قيادة الجماهير ، وغريزة الاعتداد بالذات ممثلة في حب الظهور واستئثار الزعيم بالشهرة .

سادساً — ضبط النشاط الغريزي وكبته .

سابعا — تحويل مجرى النشاط الغريزي إلى مسالك أخرى غير مسالكه الطبيعية ، واستبدال التلبيات الأهلية للغريزة بتلبيات أجنبية عنها .

ثامنا — تصعيد النشاط الغريزي أو التسامي بالنزعة الغريزية والنهوض بها من مرتبة الغريزة الحيوانية إلى مرتبة أسمى .

وهذه الأوجه الثلاثة الأخيرة من أوجه تطور السلوك الغريزي سيجيء الكلام عنها تفصيلا عند التكلم على النشاط النفساني تحت باب الكبت والتحول ، والتصعيد ، ولذا نكتفي هنا بمجرد الإشارة إليها تاركين الإسهاب فيها إلى حينه .

طبيعة السلوك الغريزى

إذا نظرنا إلى مثيرات الغريزة أو منبهاتها الأهلية نجدها إجمالا لا تخرج عن كونها إما منبهات من شأنها أن تثير محاولات الكائن الحى نحو مصدر التنبيه ، وإما منبهات من شأنها أن تثير محاولات تدفعه عن ذلك المصدر أو تقصيه عنه ، وهذان النوعان من المنبهات هما بعينهما المنبه الجذاب والمنبه المنفر اللذان تكلمنا عنهما فى معرض الكلام عن سلوك الأميبا .

فالسلوك الغريزى لا يخرج فى الواقع عن كونه مجموعة من الإجراءات يقوم بها الكائن الحى فى سبيل بلوغ غرض معين ، وأن هذا الغرض قد يكون إيجابياً ، وقد يكون سلبياً .

ومن يتأمل طبيعة الغريزة يرى أنها ترمى إلى غاية بعيدة قد يكون أمرها خافياً على الكائن الحى ، لارتباط هذه الغاية بمصلحة النوع بأسره ، وبمستقبله ، بقطع النظر عن مصلحة الفرد ، بل ربما كان تحقيق هذه الغاية متوقفاً على تضحية هذه المصلحة الفردية فى سبيل مصلحة الجماعة ، كما هى الحال بالنسبة للغريزة الجنسية ، وغريزة الاجتماع .

ولهذا جهز الله عز وجل مثل هذه الغرائز بدافع قريب يدفع الفرد إلى تلبية نداء الغريزة ، وهو إما فقدان اللذة الوقتية التى تصحب الشهوة الغريزية عادة ، وإما التخلص من آلام التوتر النفسى الناشىء عن تنبيه الانفعال الغريزى والسعى وراء تفريغ الشحنة الانفعالية المتجمعة حول مظاهر النزوع من الغريزة ، والتى تدفع الكائن الحى إلى الحركة ، وبذلك يتحقق الغرض المقصود من الغريزة ولو قهراً عن الفرد ، مع ما فى ذلك من تضحية قاسية من جانبه ، إذ لولا هذا الدافع الوقتى

لما تردد فى الإحجام عن القيام بما فرضته عليه الطبيعة من واجب نحو الجماعة :

فإذا نظرنا إلى غريزة التناسل لدى بعض الأحياء التى تموت ذكورها على أثر قيامها بوظيفة التلقيح ، أو تموت إناثها على أثر وضع بويضاتها ، لأدركنا مبلغ تأثير هذا الدافع ومقدار خضوع الكائن الحى إلى سلطان الغريزة .

وإذا تأملنا غريزة الأمومة لدى الأحياء الراقية والإنسان ، لما عز علينا أن ندرك ما تضمنته من تضحيات جسام ، وإنكار للذات من جانب الأم ، فتبذل راحتها وسعادتها وهناءها ، بل وحياتها ، إذا اقتضت الضرورة بذلها ، فى سبيل الحرص على حياة صغارها ، كل ذلك تقوم به تحت تأثير دافع خاص ، وهو ما نسميه بالعاطفة الوالدية ، أو الشفقة ، والحنان الفطرى الذى غرسه الله فى نفوس الأمهات والآباء حرصاً على حياة الأبناء ، أو بعبارة أخرى حفظاً للنوع بأسره .

ففى الأحياء الأقل مرتبة من الإنسان نشاهد هذه العاطفة على أشدها ما دام صغارها فى حاجة إلى عناية الأم ومعونتها ؛ فإذا اشتد ساعدها وأصبح فى وسعها أن تستقل فى الحياة بنفسها نبذتها الأم ، وكفت عن معونتها ، وربما تولد العداء بينهما بحكم ناموس تزاحم البقاء أو التنازع بين الأحياء . ومن ذلك يتبين أنه بانقضاء الغاية يقف الدافع ؛ فكأن الغريزة قوة عاقلة تتصرف فى الأحياء بتدبير وحكمة .

وإذا نظرنا إلى الغريزة الجنسية لدى جميع الأحياء إجمالا ، من أدناها مرتبة ، حتى أرقاها بما فيها الإنسان ، لألفيناها لدى سائر الأحياء بالإجماع مجهزة

بدافع قريب يدفع الفرد إلى القيام بوظيفة التناسل تحت ضغط الشهوة الجنسية ، دون أن يفكر الكائن الحى وقتئذ فى أية حكمة أو غاية بعيدة ترمى إليها الطبيعة من وراء هذا ، حتى أن هنالك من الناس من اتخذ مجرد الاتصال الجنسى غاية فى ذاته ووقف عند حدها بالتجائه إلى منع التناسل ، أو تحديده بوسائل مصطنعة .

وإذا نظرنا إلى غريزة الطعام لدى الطفل وسلوكه نحو ما يقع تحت حسه من الأطعمة ، لا نلبث أن نتبين أن إقدامه عليها إنما يكون تحت تأثير دافع قريب وهو لذة الطعام ، أو دفع ألم الجوع ، وليس بقصد بقاء حياته ، ولكن كلما تقدم الإنسان فى السن ، وارتقت مداركه ، وأدرك بعقله وخبرته ضرورة الغذاء لحفظ حياته وصحته ، خفت لديه حدة شهوة الطعام أو الرغبة فيه ، وقويت مقابل ذلك غريزة حب البقاء ، فتدفعه إلى التغذية راغباً أو كارهاً ، حرصا على صحته وحياته .

فالغريزة أصلا ترمى إلى قصد معين أو غاية قصوى قد يقصر عن إدراكها نظر الفرد ، فهى أشبه شىء بالقوة المفكرة التى تشرف على النوع بأكمله ، وتدبر شؤونه ، وقد لا يدرى الفرد من أمرها شيئا ، فهى تقف من النوع وسلالاته المتعاقبة موقف القوة المدبرة لها جميعا ، وتكون منها بمثابة عقلها المفكر عند النظر إليها كمجموعة واحدة مترابطة ، بقطع النظر عما بينها من فوارق مكانية أو زمانية ، فالغريزة تبسط على النوع بأسره سلطانها دون أن يحدها مكان أو زمان .

وإذا تأملنا مجموعة الغرائز البشرية أو الحيوانية لألفيناها جميعها متفرعة من غريزة أولى عامة تجمعها تحت كنفها ، وهى غريزة حب البقاء ؛ التى تعتبر بحق أم الغرائز . فغريزة حب الذات وما يتفرع عنهـــا من غرائز (مثل غريزة الطعام ؛ وغريزة الاعتداء ؛ وغريزة الاقتناء ؛ وغريزة حب

الاستطلاع ، وغريزة الاعتداد بالذات وما إليها من الغرائز المتعلقة بحياة الفرد) ترمى إلى بقاء الفرد وحفظ حياته ، والغريزتان الجنسية والاجتماعية بما يتفرع عنهما من غرائز (مثل الحب الجنسى ، والحب العائلى ، والحب المعنوى ، ومحبة الجماعة ، والطاعة والمعاشرة ، وتضحية الذات ، والمشاطرة والمحاكاة) ترمى إلى بقاء النوع ، ومن ذلك يتضح لنا أن الغرائز إطلاقاً تجمعها تلك الغاية المشتركة التى تشمل جميع عناصر الحياة فى الوجود على اختلاف أشكالها وصورها ، وهى حب البقاء ، فهى شجرة الخلد التى غرسها الله فى نفس الخلية جدتنا الأولى فى عالم الأحياء ، فما حياة النوع إلا استمرار لحياة الفرد فى صورة أخرى تتم بانفصال قطعة منه تستمر فيهـا مظاهر الحياة ، وبذلك يتم للحياة التنقل من سلالة إلى سلالة .

وهكذا تنتهى بنا الحياة إلى غاية لا يعلمها إلا الله ، وما باقى الغرائز الأخرى إلا أغصان تفرعت عن ذلك الأصل على مر الأجيال جرياً على سنة التطور التى تعمل فى الوجود ، والتى هى بمثابة مظهر الحياة والحركة فى هذا الكون كما يعتبر حركة .

التطور من أقوى الأدلة على ما وراء هذه الحياة الكونية من قوة عظمى مسيطرة مدبرة مبدعة ؛ تقف من هذا العالم وما يتمتع به من مظاهر الحياة موقف الروح العليا أو العقل الكونى الأكبر وهى الله سبحانه وتعالى .

فالغريزة مثلها مثل العالم فى تطور دائم غير مستقر لا أثر للجمود فيه ، تؤثر فيها عوامل البيئة وتقلباتها المستمرة ، كما يؤثر فيها تشعب أغراض الحياة واختلاف النزعات ، كما أن للعادات المكتسبة أبلغ أثر فى تطور الغريزة ، بل ربما كانت العادة الخطوة الأولى بل وخطوة لازمة لهذا التطور ، إذ أن العادة طبيعة ثانية كما يقولون .

ولمـا كانت الغريزة هى مظهر التفكير الجماعى للنوع بأسره لا الفرد ،

فإن المقصود بالمادة التى تؤثر فى هذا المظهر هى العادة الاجتماعية المتواترة بين جميع أفراد النوع وبين السلالات المتعاقبة لا مجرد العادة الفردية ، فاتجاه نوع من أنواع الأحياء اتجاهاً عاماً نحو غاية مشتركة واتخاذه فى سبيل تحقيقها سلوكاً إجماعياً ، هو الذى يؤدى إلى تطور فى غرائزه الأصلية إما بتحوير فى نزعاتها ، أو بخلق نزعات غريزية جديدة ، أو بعبارة أخرى غرائز فرعية .

فإذا فرض وقامت فى الجنس البشرى نزعة سلمية إجماعية ترمى إلى نبذ الحروب الدولية ، والالتجاء إلى فض المنازعات والمشكلات بين الأمم عن طريق التحكيم ، أو بأية وسيلة أخرى من الوسائل السلمية ، ومارس الجنس البشرى هذه الوسائل قروناً عديدة ، فإن غريزة الحرب لا تلبث بعد توالى عدة قرون أن تضعف وتضمر ثم تتلاشى ، ولا يبقى مكانها إلا نزعة أثرية ممثلة فى النضال السلمى ، أو النزال القائم على قوة الحجة والبرهان ، والذى عدته القلم واللسان ، وتصبح الجيوش من الأمم رمزاً تاريخياً مثلها مثل الجناحين من النعامة .

وإذا فرض واتجهت أنظار العالم المتمدن بأسره إلى استخدام الطائرات استخداماً عاماً يشمل جميع طبقات الشعوب وأفرادها ، بحيث أصبح لكل فرد طائرة يمتطيها كلما دعته الحاجة للتنقل ، فلا يلبث الجنس البشرى بعد تعاقب عدد وافر من الأجيال أن تتولد لديه نزعة فطرية إلى الطيران تشبه نزعة الطيور ، ولا تختلف عنها إلا من حيث كون جهاز طيران الطيور من صنع عقلها الغريزى ، أو الباطن ، وطائرة الإنسان من صنع عقله الظاهر أو الشعورى .

فالكثير من أعمالنا الشعورية إذا مارسناها باستمرار وألفناها بحيث أصبحت فينا عادة مكتسبة ، لا تلبث أن تصبح فينا على مر الزمن ،

وبحكم التكرار عادة متأصلة فى النفس نقوم بها ونمارسها دون وعى أو شعور .

فالخطوة الأولى فى سبيل تكوين الاستعداد الغريزى هى إجراء شعورى أولا ، ثم يصبح بالتكرار عادة أو عملا نصف شعورى ، ثم يتحول مع طول الزمن والمثابرة على القيام به إلى عمل لا شعورى . فإذا عم بين أفراد النوع أصبح عادة قومية متواترة ، فإذا توارثته السلالات المتعاقبة جيلا بعد جيل ، فلا يلبث أن يصبح استعداداً طبيعيا أو بعبارة أخرى غريزة متأصلة فى النفس فالعادة أم الغريزة .

فالمشى على القدمين الذى أصبح الآن استعداداً فطريا لدى الإنسان كان فى ماضى الأزمان عملا شعوريا يمارسه الفرد مستقلا ، ثم أصبح عادة جماعية متواترة بين جميع الأفراد ، ثم عادة وراثية تناقلتها الأجيال المتعاقبة ، فلم يلبث أن أصبح على مر الأزمان استعداداً فطريا أو غريزيا بحكم العادة الموروثة .

ولعل هذا مصير الكثير من أخلاقنا وعاداتنا وصفاتنا المتوارثة عن السلالات الماضية ، والتى لا تزال شائعة متواترة بين أجناس البشر ، كالكلام وتعلم اللغات والعلوم والفنون وتعاليم الأديان والتقاليد القومية والآداب العامة وتحريم التزوج بالمحارم بين الأهل والأقارب ، وغيرها من العادات المتأصلة فى النفوس ، والتى كادت تصبح فى حكم الاستعدادات الفطرية لدى الإنسان .

التداعى الغريزى

لما كانت الممارسات العقلية خاضعة لقانون التداعى كما تقدم القول على ذلك ، والعادة من شأنها إحكام الروابط الفكرية وتقوية ظاهرة التداعى بين الخواطر المترابطة وتعبيد المسالك بين التنبيه والتلبية ، كانت الغريزة (وهى وليدة العادة) بدورها وليدة ذلك القانون ، غير أن عملية التداعى فى الغريزة لا تكون مجرد ظاهرة اكتسابية بل ظاهرة موروثة ، بمعنى أن الرابطة الفكرية بين مركزى التنبيه والتلبية لم تنشأ عن طريق الخبرة الفردية أو الخبرة الإجتماعية الخاصة بسلالة واحدة فحسب ، بل توثقت بينهما الروابط وقويت تدريجيا على مر الأجيال عن طريق الممارسات والخبرة الإجتماعية المتكررة المتوارثة ، بحيث يرث كل جيل عادات الجيل الذى تقدمه ، ثم يزيدها قوة ومتانة عن طريق ممارسته ومجهوداته الخاصة ، ثم يورثها للجيل الذى يليه ، وهكذا حتى تصبح الرابطة بين التنبيه والتلبية استعداداً فطريا أو غريزيا ، وهو ما أطلقت عليه اسم التداعى الغريزى (تمييزاً له عن التداعى الاكتسابى) ، وإلا فكيف يتسنى لنا أن نعلل وجود تلك الصلة القوية بين المنبهات الأهلية للغريزة وتلبياتها ، فكما أن المجاميع الفكرية المكتسبة بالممارسة العقلية والمركبات النفسية الخاصة بالفرد لم تخرج عن كونها مجموعة من الأفكار والخواطر المترابطة بروابط التداعى ، كذلك الغرائز لم تخرج عن كونها مجاميع من الاستعدادات الفطرية ، أو الخبرات العقلية الموروثة تجمعها روابط التداعى الغريزى .

فإن كنا نشاهد أن صورة الفأر أو الحشرة تنبه من نفس القط غريزة الهجوم ، فما ذلك إلا لكون القط ينتمى إلى فصيلة عاشت قروناً متعددة تعتمد فى طعامها على الصيد واقتناص الأحياء الأضعف منها قوة أو حولا ، فبحكم العادة الإجتماعية لدى أفراد هذه الفصيلة والمتوارثة بين سلالاتها وأجيالها المتعاقبة على

توالى الدهور تكونت رابطة تداعي غريزي بين صورة ذلك الحيوان الضعيف ممثلة في الفأر ، وبين غريزة الهجوم ، كما تكونت بالمثل روابط تداعي غريزي من نفس الفأر بين صورة القط (ذلك الخصم القديم المفترس) وبين غريزة الفرار .

وإن كنا لا زلنا نشاهد أن منظر الحيوانات المفترسة حتى المقيدة منها قد يحرك منا وجدان الخوف ، فما ذلك إلا لكوننا من سلالة ذلك الإنسان الأول الذي لبث قروناً طويلة بين الأحراش والأدغال معرضاً لأذى تلك الوحوش الضارية ومباغتتها الخطرة وهجماتها الفتاكة .

فليس لنا أن نعجب إذا ما دب الرعب في أنفسنا خلسة عند رؤية الفهد أو النمر أو الأسد أو وحيد القرن وهو في ثورة غضب في مربضه ، على الرغم من يقيننا بأنه مقيد الحرية غير طليق ، فإنها روابط وصلات قديمة العهد توطدت أواصرها بين هذا الحيوان وبين ذلك الإنسان الأول الذي لكنه في أعماق النفس ونحمله بين حنايا الضلوع .

الفعل المنعكس

المقصود بالفعل المنعكس هو ما يبدو على الجسم من حركات وأفعال ذاتية يكون مصدرها المراكز العصبية غير الإرادية ، كالمراكز الواقعة فى الحبل الشوكى أو فى النخاع المستطيل تحت تأثير مؤثر حسى خارجى ، أو مصدرها الجهاز العصبى الذاتى Autonomic nervous system يتألف إجمالا من مجموعة من العقد العصبية على جانبى العمود الفقارى وبعض العقد العصبية فى الدماغ ، أو فى نفس الأجهزة أو الأعضاء الباطنة تحت تأثير الحس الباطنى أو عامل نفسانى .

ومن الأمثلة على النوع الأول من الأفعال المنعكسة : حركة الساق المعروفة عند الدق على الوتر الذى بأسفل الركبة ، وحركة إغماض جفن العين عند محاولة لمس القرنية أو عند سقوط جسم غريب فى العين ، وحركة انقباض الحدقة بتأثير الضوء ، وحركات العطاس والسعال وامتداد اليدين عند السقوط على الأرض ، وانقباض عضلات البطن عند لمس الخاصرة أو حكها ، وجذب الساق عند حك أخمص القدم .

ومن الأمثلة على النوع الثانى من الأفعال المنعكسة : الأفعال الصادرة عن الأجهزة والأعضاء الباطنية ، كالقلب والأوعية الدموية والجهاز التنفسى والجهاز الهضمى وإفرازات الغدد المختلفة ، وبالجملة جميع الأعضاء والأجهزة المتمتعة بحركة ذاتية مستقلة عن الإرادة ؛ وما يبدو عنها من اضطرابات وتغييرات تحت تأثير عامل نفسانى أو انفعال من الانفعالات المعروفة مثل الخوف والغضب والسرور والحزن .

والفعل المنعكس فى أبسط مظاهره يتألف من خلية عصبية حساسة واقعة فى الجهاز العصبى المركزى كالحبل الشوكى أو المخ يخرج منها خيط عصبى حساس يمتد إلى سطح الجلد أو العضو الحساس تتلقى التأثرات الحسية ، ويسمى بالعصب « المستقبل afferent » ، ثم خلية عصبية محركة يخرج منها خيط عصبى يمتد إلى جهاز الحركة أو العضلات التى تتلقى الأمر بالحركة ، وتسمى بالعصب المحرك أو « المصدر efferent » .

والخلية العصبية الحساسة يمتد منها خيط قصير يسمى محور (Axon) ، ينتهى بتفرعات رفيعة ترمى إلى الاتصال بتفرعات الخلية المحركة المقابلة لها والإحاطة بها بقصد نقل التيار العصبى الصادر عن المؤثر الحسى وتصديره إلى الخلية المحركة ومنها إلى جهاز الحركة عن طريق العصب المحرك ، فإن وخز الإنسان بجسم حاد فى الساق مثلا فإن التأثر الحسى ينتقل إلى مركز الحس المخصص لهذا العضو فى النخاع الشوكى ، ثم منه إلى مركز الحركة الذى عنه يصدر الأمر لعضلات الساق بالانقباض عن طريق العصب المحرك ، فتتقلص الساق وتنكمش بقصد تجنب مصدر الألم ، وإذا سقطت ذرة من الغبار فى مقلة العين فإنها تنبه الأعصاب الحساسة للملتحمة ، وهذه تنقل التأثر الحسى إلى المركز الخاص بها فى المخ ، ثم يصدر الأمر من مركز الحركة فى الدماغ إلى عضلات الأجفان بالحركة ، كما يصدر الأمر كذلك إلى غدد الدمع لتقوم بوظيفتها فتفرز الدموع بقصد تطهير العين وطرد ذلك الجوهر الغريب .

وليست الأفعال المنعكسة لاشعورية حتما ، بل قد يصحب بعضها درجة من الشعور تختلف باختلاف نوع الفعل المنعكس ، وباختلاف الحالة النفسية أو العقلية ودرجة انتباهنا وقت حصول الفعل فإذا وقع منظر الطعام مثلا على شبكية العين فإنه ينبه معا غدد اللعاب إلى العمل فنشعر بحركة إفراز اللعاب فى الفم ، كما أنه إذا

وخزنا بجسم حاد في اليد أو الساق على علم سابق منا فقد تنتبه إلى حركة جذب اليد أو الساق ونشعر بهذه العملية وقت حصولها ، ولكن إذا كنا نياما نوما مستغرقا ولدغتنا بعوضة أو مسنا جسم واخز فإن العضو المتأثر قد يقوم بعملية الدفاع عن طريق الفعل المنعكس دون شعور . كذلك إذا قطع الحبل الشوكى في موضع معين أو أصيب بعطب شديد ترتب عليه قطع الاتصال بينه وبين المخ ؛ فإن الأفعال المنعكسة التي تصدر عن المراكز العصبية الواقعة أسفل القطع أو الإصابة تكون بطبيعة الحال جميعها لاشعورية ، بالرغم من كون بعضها يصبح أشد وضوحا من قبل بسبب استقلالها عن مراكز الردع في المخ

ويمكن دراسة الأفعال المنعكسة اللاشعورية الصادرة عن الحبل الشوكى في ضفدعة بفصم الحبل المذكور منها عن المخ ، فإنه عقب إجراء هذه العملية يشاهد أن الضفدعة تبقى فترة من الزمن عديمة الحركة غير قابلة للتأثر بالمنبهات بسبب الصدمة العصبية الناشئة عن هذه العملية ، ولكنها لا تلبث أن تسترد نشاطها ظاهرياً لدرجة تقرب من حالتها الطبيعية ، فإذا وضعت في ماء فإنها تسبح فيه ، وإذا وضعت على سطح مائل فإنها تصعده ، وإذا ما قرص منها العجز فإنها تقفز ، وإذا وضعت على ظهرها وجئنا بقطعة ورق مبللة بسائل كاو أو حريف ووضعناها على الجلد فإنها تقذفها بأطرافها ، وإذا وخزت ساقها انكمشت الساق ، وإذا تركت وشأنها فإنها تبقى جامدة لا تبدى حراكا .

وإذا كان المنبه شديد الأثر فإن رد الفعل قد لا يكون مقصوراً على العضو الذي وقع عليه أثر التنبيه ، بل قد يتعداه إلى عضو آخر أو مجموعة من الأعضاء ذات المراكز العصبية المتجاورة أو المترابطة ، فإذا نبهت الساق اليمنى بمنبه معتدل القوة في التأثير فإن هذه الساق دون غيرها هي التي تتأثر ويصدر عنها رد الفعل ، وإذا كان المنبه شديداً فإنه قد ينبه الساق المقابلة أيضاً ، وإذا كان أكثر

شدة فقد يمتد أثر التنبيه إلى الأطراف العليا بجانب الساقين فيدفعها جميعاً إلى الحركة .

والتأثر الحسى الواقع على المراكز العصبية قابل للتجمع أو التكثيف بالتكرار ، ويمكن إثبات ذلك بالتجربة الآتية :

وهى أن نأتى بإناءين نضع فى أحدهما سائل من الحامض الكبريتى يكون على درجة من التركيز تكفى لتنبيه مركز الفعل المنعكس من النخاع بمجرد غمر الساق فيه لأول مرة ، وفى الثانى سائل مخفف عن السائل الأول بماء يعادل عشرة أضعافه مثلا . فإذا غمرنا ساق الضفدعة (المقصومة الرأس) فى السائل المركز فإن الساق تنكمش وتنفر السائل عن الجلد من أول مرة ، وإذا غمرناها فى السائل المخفف فإنها لا تتأثر لأول مرة ولا يبدو من الضفدعة أى رد فعل ، فإذا كررنا عملية غمر الساق مرات متعددة فإننا لا نلبث أن نشاهد الساق تبدأ فى التقلص والانكماش بدرجة تزداد شدة ووضوحاً كلما كررنا العملية ، حتى تحصل فى النهاية على رد فعل تام يماثل رد الفعل الناشىء عن غمر الساق فى السائل المركز ، فإذا راعينا أن طبيعة السائل المخفف من حيث تنبيه مركز الحس فى النخاع لم تتغير فى كل مرة ، وأن غمر الساق فى أول مرة لا يختلف عنه فى آخر مرة ، فلا يصعب علينا أن نستدل من ذلك على أن انفعال مركز الحس بالتكرار إنما يرجع إلى تجمع التأثر الحسى فى ذلك المركز .

ومما يجب لفت النظر إليه أن الأفعال المنعكسة وإن كانت بحسب طبيعتها أفعال غير إرادية ولكنها إلى حد ما محكومة بسلطان الإرادة أو بعبارة أخرى واقعة تحت تأثير مراكز الردع Inhibitory centers من المخ بدرجة معينة ، ويمكن إثبات ذلك بما يشاهد لدى بعض الأحياء عند فصل النخاع الشوكى عن المخ من زيادة الأفعال المنعكسة الصادرة عن الجزء المنفصل من النخاع ، كما أنه

باستخدام قوة الإرادة وقوة ضبط النفس يمكننا أن نسيطر على مجموعة من أفعالنا المنعكسة كالعطاس والسعال ، أو جذب الساق عند حك أخمص القدم ، والتجلد عند وخز الأطراف أو الشعور بالألم وضبطها عن الحركة إلى حد معين . فإذا صادف أن لمست النار يدنا عفواً فإننا عادة نجذبها في الحال ، ومع هذا فمن المأثور عن سليمان الحلبي ، الذي قتل القائد الفرنسي كليبر في عهد الحملة الفرنسية في مصر ، أنه أثناء تعذيبه مد يده إلى النار في ثبات وهدوء وظل يرقبها تشوى فيها حتى التهمتها عن آخرها . كما أنه من الوقائع التاريخية المعروفة عن الأسقف البريطاني توماس كرانمر Thomas Cranmer الذي حكم عليه للخيانة في عهد الملكة مارى بإعدامه حرقاً ، أنه في يوم التنفيذ ٢١ مارس سنة ١٥٥٥ مد يده اليمنى إلى النار طائعاً مختاراً حتى أكلتها النار دون أن يبدى حراكاً أو جزعاً .

الموازنة بين الفعل المنعكس والغريزة

إذا نظرنا إلى طبيعة الأفعال المنعكسة نجدها في الواقع استعدادات فطرية خاصة ترمى إلى غاية معينة ، وهي تمكن الجسم من القيام بعمليات محلية مستقلة عن الإرادة :

(١) إما نظراً لكونها من العمليات المتكررة الحيوية للجسم التي تتضمن وظيفة أو حركة مستديمة لا يمكن الاستغناء عنها (مثل حركات أعضاء الجهاز الدورى والجهاز التنفسي والجهاز الهضمي) ، حتى بذلك يخف العبء عن عاتق المراكز العليا ، وحتى تتفرغ إلى الأعمال الإرادية الأخرى المتنوعة التي تستدعيها مقتضيات البيئة الخارجية .

(٢) وإما نظراً لكونها من عمليات الدفاع المستعجلة التي تدعو إليها الضرورة وتتضمن إجراءات سريعة لا يتسع المجال فيها للتفكير والتدبر تلقاء

خطر داهم مراعاة لضيق الوقت ، ومن هذا القبيل حركة مد اليدين عند السقوط ، وإغماض الجفنين عند سقوط جسم غريب فى العين ، وجذب الأطراف عند لمس جسم واخز كسن حاد أو كاو كالنار ، وغير ذلك من ردود الفعل المختلفة الصادرة عن المراكز العصبية الواقعة فى النخاع الشوكى أو النخاع المستطيل .

فما تقدم يتضح أن الفعل المنعكس يشترك مع الغريزة فى صفتين :

الأولى — أنه منشؤه استعداد فطرى ، (والثانية) أنه يرمى إلى غاية أو قصد معين كالغريزة ، ولكنه يختلف عنها فى الخصائص الآتية :

أولا — أن السلوك الغريزى يرمى إلى منفعة الفرد أو النوع بأسره ، بينما الفعل المنعكس يرمى إلى منفعة العضو الصادر عنه رد الفعل فحسب .

ثانيًا — أن السلوك الغريزى قد يكون عملا تلقائيًا ، بمعنى أنه لا يشترط لتنبيهه وجود مؤثر خارجى ، كما لو نهض الطفل من مكانه بمحض اختياره وأخذ يلعب أو توجه إلى حيث توجد أمه طلبًا للرضاع ، ولكن الفعل المنعكس متوقف على وقوع التأثر الحسى ، فإن لم يوجد المؤثر فلا يوجد رد الفعل .

ثالثًا — أن السلوك الغريزى إذا ما تحركت النزعة الغريزية يكون عادة سلوكا مستمرًا مقترنًا بنوع من الإرادة أو الاستقلال عن العامل المنبه فى تتبع الغاية أو الغرض المقصود من الغريزة ، بخلاف الفعل المنعكس فإنه رد فعل قاصر فى ذاته ، إذ بمجرد انقطاع فعل المؤثر يقف رد الفعل ، حتى إن رد الفعل المؤلف من مجموعة من التنبيهات المتتابعة لا يخرج عن هذه القاعدة ، لأن كل حلقة من سلسلة ردود الفعل فى هذه الحالة تكون بمثابة رد فعل لما قبلها ومنبه لما يتلوها .

رابعًا — أن السلوك الغريزى قابل للتحوير والتهذيب تبعًا لمقتضيات

الظروف والعوامل الخارجية ، في حين أن رد الفعل ذو طابع ثابت لا أثر للتصرف أو التنوع فيه ، فردود الفعل الخاصة بكل عضو تكون متحدة المظهر ، وكل منها صورة طبق الأصل لما تقدمها أو ما يليها إذا ما أحدث المؤثرات أو الظروف .

خامساً — أن السلوك الغريزي يشتمل على مظاهر الإجراء العقلي الثلاثة وهي : « المعرفة والوجدان والنزوع » بجانب الحس والحركة ، بخلاف الفعل المنعكس ، فإنه قاصر على الحس والحركة ، فهو وظيفة عضوية أكثر منه ظاهرة نفسية تتم بمجرد تنبيه المركز العصبي الخاص بعضو معين فيصدر عنه الفعل مستقلا عن الإرادة أو الشعور ، ولا يغير من طبيعته أنه قد يكون شعورياً في بعض الأحيان إذ أن صدوره ليس متوقفاً على الشعور به ، بل قد تصدر نفس ردود الفعل حال النوم أو حال انشغال الذهن بأمور أخرى .

ولما كان الفعل المنعكس استعداداً فطرياً كالغريزة ولكنه ينقصه مظاهر الإجراء العقلي الثلاثة ، التي هي من الغريزة بمثابة الرأس المفكر ، فإن الفعل المنعكس يكون أشبه شيء بغريزة مقصومة الرأس ، أو بعبارة أخرى غريزة ينقصها الإدراك والشعور والنزوع أو السلوك العقلي .

سادساً — أن السلوك الغريزي له دافع وغاية ، وأن الغاية قد تكون بعيدة في كثير من الأحوال ، بينما الفعل المنعكس يرمي إلى غاية وقتية تحت تأثير منبه وقتي .

سابعاً — أن السلوك الغريزي أو التلبية الغريزية تستغرق زمناً أطول من زمن رد الفعل الذي هو بمثابة إجراء سريع مستعجل المقصود به دفع الطوارىء والأخطار المباغتة .

وإننا إذا شبهنا المجموع العصبي بإدارة حكومية منظمة يمكننا أن نعتبر المخ

بمثابة المركز الرئيسى أو السلطة العليا ، التى عهد إليها بإدارة المسائل الحيوية الهامة وحل المعضلات التى تحتاج إلى شىء من الحكمة فى التصرف وحسن الروية والتدبير ، والجهاز العصبى الذاتى بمكاتب الإدارة المحلية التى تقوم بالأعمال المحلية Routine work بغير حاجة إلى تلقى أوامر جديدة من المركز الرئيسى العام ، والمراكز العصبية السفلى الواقعة فى النخاع الشوكى أو النخاع المستطيل بالمكاتب الفرعية التى يعهد إليها باتخاذ الإجراءات السريعة المستعجلة ، التى تقضى بها الضرورة دون الرجوع مقدماً إلى السلطة العليا نظراً لضيق الوقت ، فهى أشبه شىء بنقط الإسعاف ، أو مراكز الدفاع الفرعية التى تقوم بواجبها من تلقاء نفسها عند الحاجة دون انتظار أوامر القيادة العليا .

العقل الباطن أو اللاشعور

يذهب بعض علماء النفس إلى أن كل خبرة يكابدها الإنسان فى فترة حياته لا بد أن تترك فى نفسه أثراً ما يتفاوت بتفاوت أهمية الحادث ، ومبلغ وقعه فى النفس ، وأن لكل منا ذاكرة باطنة تحصى من ممارستنا كبيرها وصغيرها فى شكل مجموعات فكرية منظمة ، فهى أشبه شىء فى نظرهم بدار المحفوظات التى تحفظ فيها صور الحوادث مرتبة فى ملفاتها للرجوع إليها عند الحاجة .

ولكن هل من دليل فى الحياة العملية على صدق ما يقولون ؟

إن نظرة تأمل فيما مر بنا من حوادث وما انطوى فى النفس من خواطر وذكريات قد تدلنا على مبلغ ما فى هذا القول من حقيقة . فإنه مما لا ريب فيه أن كلا منا يشعر بما له من ذكريات تتصل بماضيه القريب أو البعيد ،

قد يكون استحضار البعض منها فى متناول إرادتنا كما شئنا ، وقد يستعصى علينا استحضار البعض الآخر إلا إذا تهيأت له ظروف خاصة ومناسبات معينة ، فأيقظت فينا عن طريق تداعى المعانى تلك الذكريات وإثارتها من كمينها ومضجعها ، فرب لحن كنا سمعناه فى عهد الصبا أثار منا ذكريات تتصل بذلك العهد ، أو رب رائحة حملتها الريح إلينا اتفاقاً بعث عبيرها من أعماق النفس خواطر ووجدانات مطوية ، ورب رؤية مكان معين أيقظت فى الذهن وقائع حادث قديم .

ولعل البعض منا مارس فى أحلامه بعض الذكريات التى ترجع إلى حوادث قديمة العهد مرت بنا فى سن الطفولة ، أو إلى وقائع كنا مارسناها فى ماضى حياتنا العملية وظنناها محيت من سجل الذاكرة ، وعفا أثرها وأصبحت نسياً منسياً .

كما أن هنالك من الذكريات والخواطر التى لم يكن لنا أدنى أمل فى إمكان إحيائها أو بعثها من مرقدها فى قرارة النفس شوهدت تحيا من جديد خلال نوبة حمى أو بحران مرض .

فهذه المشاهدات المستقاة من جانب حياتنا العملية تدلنا على مبلغ ما ينطوى عليه قول هؤلاء العلماء من حقيقة ؛ غير أن حجتهم لم تقف عند حد التدليل بمجرد مشاهدات قد يحملها البعض منا على محمل الشاذ النادر الذى لا يؤخذ على سبيل القياس ، بل لديهم بجانب ذلك من الأدلة العلمية القائمة على التجربة العملية ، وما يجرونه من بحوث فنية فى دراسة الطبيعة البشرية وتحليل ظواهرها ، وكشف مخبآت النفس وأسرارها ، ما يغنى فى التدليل على صدق ما يقولون .

وقد دلت تجارب التنويم «المغناطيسى» على أن ذكريات الماضى قد تبقى خالدة فى النفس من المهد إلى اللحد ، وجاءت أساليب التحليل النفسى وإجراءاته الفنية التى قام بها العلامة « زجمند فرويد » وزملاؤه ، والتى توصلوا بها إلى اقتحام طبقات النفس الباطنة وسبر غورها إلى أعمق قرار مؤيدة صحة هذه الدعوى العلمية ، وقد كشف التحليل عن خلود ذكريات الماضى وإمكان تعقب آثارها بأسلوب التداعى المطلق(١) إلى ما قبل تمام الحول الأول من العمر ، حيث تسنى بالتحليل إيقاظها من سباتها العميق ، وإحياء وقائعها المكبوتة مرة أخرى فى منطقة الوعى والشعور .

فعلى أساس التسليم بوجود الذاكرة الباطنة قامت نظرية اللاشعور ، أو العقل الباطن ، فأطلقوا على هذا المستودع العظيم الذى يحوى جميع ذكرياتنا وخواطرنا ووجداناتنا الماضية اسم اللاشعور ، تمييزاً له عما قد نشعر به من الذكريات أو المشاعر أو الوجدانات الحاضرة فى الذهن والماثلة فى المخيلة .

فإذا تأملنا أنفسنا فى أية لحظة من اللحظات لنرقب ما يجرى فيها من الخواطر تبين لنا أننا لا نعى فى المخيلة من ذكرياتنا وخواطرنا الجمة التى مرت بنا فى ماضى الحياة إلا النذر اليسير .

وإذا استعرضنا ظواهر التفكير الشعورى فيننا ألفيناها سلسلة من الخواطر المتتابعة التى تظهر فى بؤرة الشعور لحظة ، ثم لا تلبث أن تختفى ليحل مكانها غيرها ، فما يكون شعوريا فى لحظة يصبح لا شعوريا فى لحظة

---

(١) Free association method

أخرى ، فالشعور يمثل حاضر النفس لما تستعرضه على مسرح المخيلة من الإحساسات والمشاعر والخواطر والوجدانات التى تثيرها : إما منبهات الحياة الخارجية عن طريق الحس ؛ وإما ذكرياتنا الماضية المنبعثة من مستودع اللاشعور .

مما تقدم يتضح لنا أن حياتنا العقلية تتضمن حالتين : إحداهما شعورية تشمل خواطرنا وذكرياتنا الحاضرة التى نشعر بها وندركها حال قيامها بالنفس ، والأخرى لا شعورية تشمل خواطرنا وذكرياتنا الماضية المحفوظة فى مستودع الذاكرة ؛ وعلى هذا الاعتبار قسمت حياتنا العقلية إجمالا إلى قسمين عظيمين ، وهما الشعور واللاشعور .

والشعور يشمل ملكات العقل التى يشعر بها كل منا ويدركها ، وهى تجرى فينا كالتذكر والانتباه والتخيل والتصور والإدراك والتقدير والتمييز والقصد والمعرفة والتصميم وما إليها ، كما يشمل مختلف المشاعر والوجدانات التى تقوم بالنفس بفعل المؤثرات الخارجية أو الباطنية ، كالسرور والحزن والخوف والغضب واللذة والألم وما إليها .

وإذا ولينا وجهنا لحظة شطر ظواهر التفكير الشعورى التى نشعر بها وهى تجرى من أنفسنا ، والتى فى وسعنا أن نرقبها عن طريق التأمل الذاتى ، فإننا لا نلبث أن نتبين أن تفكيرنا فى لحظة معينة لا يخرج عن كونه سلسلة من الخواطر المتتابعة التى تظهر فى بؤرة الشعور ثم تختفى ليحل مكانها غيرها ، فمن أين أتت هذه الخواطر وأين ذهبت ؟

إنهم يقولون إنها أتت من محيط اللاشعور ثم اختفت فيه ، وأن هذا التغير الدائم فى مجرى الشعور يرجع سببه إلى نوعين من العوامل :

النوع الأول : خارجي ، أعني مصدره البيئة المحيطة بنا وما تثيره في النفس من الإحساسات والخواطر عن طريق الحس المباشر . والنوع الثاني : باطني ، أي مصدره الصور الفكرية المحفوظة في العقل من قبل ، أو بعبارة أخرى الذكريات الكامنة والتي توقظ بعضها بعضاً .

غير أنه ليس لدينا من سبيل أن نحيط بمجموعة أفكارنا وملكاتنا جملة واحدة ، إذ أن شعورنا محدود بما نستطيع التفكير فيه أو نشهده في أنفسنا من خواطر أو وجدانات ولكنها لا تلبث أن تغيب عن إدراكنا إذا ما وجهنا انتباهنا إلى ناحية أخرى من نواحي التفكير ، فكأن الشعور أشبه شيء بالأشعة المنبعثة من مصباح ضئيل ، لا يكشف لنا من محتويات النفس إلا بقدر ما تقضي به الحاجة ، وما تسمح به بؤرة أشعة انتباهنا المحدودة ، وهو لا يمثل من حياتنا العقلية إلا بقدر ما يمثله حاضر الزمن من فترة قصيرة إذا ما قيست بالماضي السحيق .

مراتب اللاشعوري

إذا نظرنا إلى أنواع التذكر التي مرت بنا آنفاً ، والتي استخلصناها عن طريق التأمل والمشاهدة ، نرى أن للتذكر مرتبات ثلاث :

الأولى — ذاكرة تختص بالخواطر والأفكار التي في وسعنا استحضارها وتذكرها كلما أردنا أو شئنا .

الثانية — ذاكرة تختص بالأفكار والخواطر التي ليس في مقدورنا إيقاظها بمجرد الرغبة والإرادة ، ولكن إيقاظها متوقف على تأثير عوامل خارجية من شأنها تنبيه الذكريات المنسية عن طريق التداعي .

الثالثة — ذاكرة تشمل أفكاراً وخواطر لا سبيل إلى إيقاظها أو تنبيهها إلا في حالات شاذة ، كحلم أو نوبة مرض أو بحران ، أو عن طريق التنويم المغناطيسي أو التحليل النفسي .

فالمرتبة الأولى من مراتب التذكر تشمل الممارسات والخبرات العقلية الحديثة العهد التي لا تزال ماثلة في الذهن ، والتي في وسعنا استحضارها كلما وجهنا انتباهنا إليها ، وكذا جميع المحفوظات المكتسبة يمكننا استظهارها في حياتنا العملية كلما أردنا .

والمرتبة الثانية تشمل المحفوظات والمعلومات والخبرات التي نسيناها إما لمضي العهد أو بالترك ، أو لكونها أصبحت لا تعنينا ، ولكنها لا تزال قابلة للتنبيه في الذهن إذا ما أثارها منبه خارجي عن طريق التداعي فأيقظها من سباتها ، فمن قبيل ذلك الحوادث التي مرت بنا في الماضي ، ونسيناها لطول الزمن ، فقد يستعصي علينا تذكرها بمحض اختيارنا ، ولكن مع هذا إذا وقع بصرنا على المكان الذي وقعت لنا فيه فقد نذكرها بتفاصيلها في الحال .

والمرتبة الثالثة تشمل القسط الأعظم من ذكريات الطفولة ، وبالأخص ما كان منها متعلقاً بالميول المحرمة والنزعات الغريزية التي تصطدم بالتقاليد الاجتماعية ، والآداب العامة ، والتعاليم الدينية ، والتي ليس في مقدورنا ولا في مقدور المنبهات أو عوامل البيئة الخارجية إحياؤها من جديد ، ويلحق بها بعض الذكريات المتصلة بما انتابنا من كوارث أو فاجعات أحدثت بالنفس صدمات عنيفة ، فلم نعد نقوى على توجيه انتباهنا إليها ، فارتدت إلى جوف اللاشعور وتحصنت خلف حواجز متينة من قوة الكبت والنسيان .

ولأجل التمييز بين مراتب التذكر الثلاثة الآنفة يمكننا أن نلقب المرتبة

الأولى بالذاكرة الكامنة أو الذاكرة الإيجابية ، والمرتبة الثانية بالذاكرة الراكدة ، أو الذاكرة السلبية ، والمرتبة الثالثة بالذاكرة المكبوتة أو المختبئة .

وتبعاً لاختلاف مراتب الذكر قسم علماء النفس اللاشعور إلى طبقات أو مناطق : فالذاكرة الكامنة أو الإيجابية ، والتي هي مستودع المحفوظات التي يمكننا استظهارها اختياراً سميت بما قبل الشعور Preconscious ورمز لها بهذه الأحرف (Pcs.) ، والذاكرة الراكدة ، أو السلبية ، فهي عما تحت الشعور (Subconscious) ورمز لها بـ (Scs) ، والذاكرة المكبوتة تقبت باللاشعور بمعناه الأخص (Unconscious) ورمز لها بـ (Ucs) .

ولما كنا قد تعلمنا من دراسة الغريزة وما مرت به من تطورات أن العقل البشرى فى أسمى مظاهره إنما قد تطور عن أبسط مظاهر الإجراء العقلى الممثلة فى القابلية النوعية للخلية ، وتدرج منها على توالى الأجيال إلى أعقدها تركيباً ، وأرقاها مرتبة . وأن النفس البشرية تضم بين طياتها جميع الخبرات والممارسات التى مر بها النوع بأسره فى خلال مراحل التطور على مر الأجيال والأزمان ، لذلك اعتبر اللاشعور أنه مستودع خبرة الفرد من يوم ميلاده إلى حين مماته .

فاللاشعور فى معناه الأخص يضم بجانب الذكريات المكبوتة مظاهر التفكير الموروثة عن الآباء والأجداد فى العصور الغابرة ، منذ نشأة الحياة البشرية ، وارتقاء الإنسان فى مدارج التطور ، تلك المرتبة التى ميزته عن سائر الحيوان ، وهو ما أطلق عليه العلامة « يونج Jung » اسم الشعور الجمعى That collective Unconscious ، كما أنه يضم مظاهر التفكير الغريزى

الموروثة عن أجدادنا فى عالم الأحياء الأولى منذ فجر الحياة ، وهو ما يمكننا أن نلقبه بالعقل الغريزى أو الحيوانى .

ومما تقدم يتضح لنا أن اللاشعور يشتمل على نوعين من الظواهر الفكرية : ظواهر مكتسبة حيال حياة الفرد ؛ وظواهر موروثة . والظواهر الموروثة بعضها خاص بالنوع الإنسانى والسلالات البشرية المتعاقبة ، وتشمل الاستعدادات والنزعات الخاصة بالجنس البشرى دون الحيوان ، كالأديان والعقائد والعبادات ، والمشى على القدمين ، واستخدام الأسلحة والآلات ، والكلام والضحك ، والبكاء ، والاستعداد للعلوم والفنون والنزعات الاجتماعية ، وما إلى ذلك من الميول والاستعدادات الفطرية الخاصة بالجنس البشرى عموماً ؛ والبعض الآخر من المواهب الموروثة يشمل الغرائز ، وسائر الاستعدادات الفطرية التى ورثها الإنسان عن الأحياء الأولى التى تقدمت العصر الإنسانى ، وهذه تشمل جميع الاستعدادات الغريزية التى يشترك فيها الإنسان والحيوان .

فاللاشعور يشمل كلا من نوعى الثروة الفكرية ، وهما الثروة الموروثة والثروة المكتسبة ، ويضم فى جوفه عقولنا الثلاثة : العقل الغريزى ، أو الحيوانى ، والعقل الجمعى المشترك بين سائر البشر ، والعقل الاكتسابى الخاص بالفرد .

الظواهر الفكرية المكتسبة	العقل الاكتسابى	خاص بالإنسان
الظواهر الفكرية الموروثة	« الجمعى	
	« الغريزى	مشترك بين الإنسان والحيوان

وكما أن العقل الموروث وليد التطور ، كذلك العقل الاكتسابى بدوره خاضع لناموس التطور ، فإن ممارساتنا العقلية وخبراتنا المكتسبة بالممارسة تبدأ

فى أول الأمر شعورية ثم لا تلبث أن تصبح لا شعورية ، حيث تفسح المجال لإجراءات عقلية أخرى تحل محلها فى منطقة الشعور أو ما قبل الشعور ، وهذه لا تلبث حتى تصبح بدورها لا شعورية ، وهكذا . وبذلك تتجمع فى منطقة اللاشعور ثروة من الخبرات والممارسات على طول الزمن تصبح ذات شأن فى تكييف نزعاتنا وسلوكنا

فاللاشعور مستودع الذكريات والخواطر الخاصة بالفرد ، كما أنه مستودع الخبرات والممارسات الخاصة بالنوع والسلالة ، وإذا ما استعرضنا مراتب الملكات التى تتألف منها الحياة العقلية للانسان متتبعين مراحل التطور التى مرت بها النفس ابتداء من أبسط الغرائز إلى أسمى درجات الشعور ، لأمكننا إجمالها فى المراتب الثمانية الآتية :

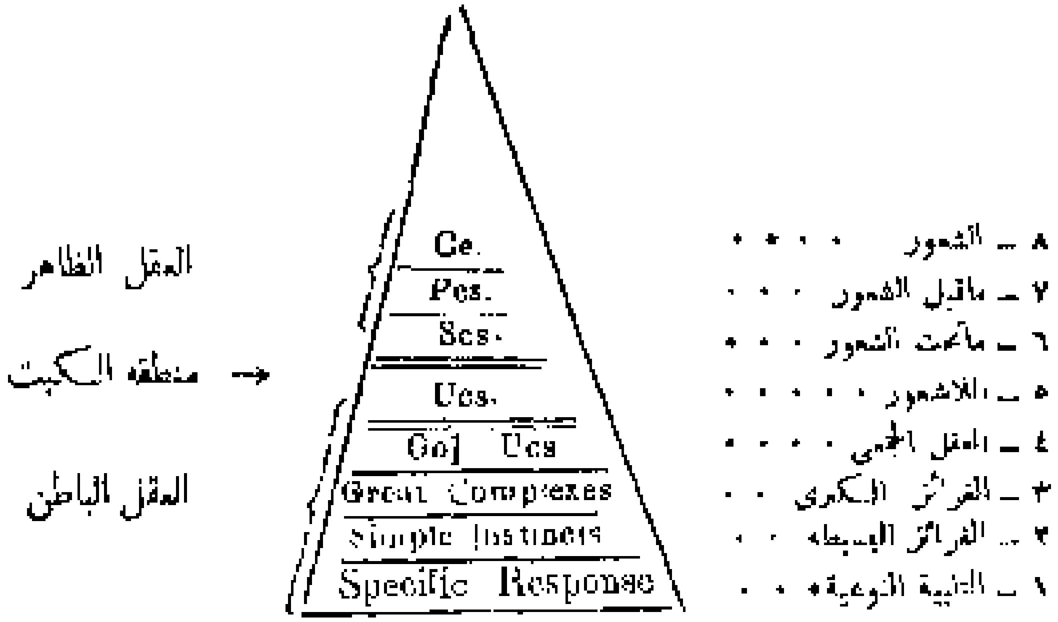

وظيفة اللاشعور

لقد عرفنا مما تقدم أن اللاشعور مستودع الذكريات على اختلاف مراتبها وأنواعها الكامن منها ، والراكد ، والمكبوت ، غير أن مهمة اللاشعور

لا تقف عند حد إحصاء الخواطر والذكريات ، ومجرد حفظها فى الباطن ، بل تحفظ فيه منطقة فى شكل مجموعات فكرية أو مركبات نفسية ، كل مجموعة أو مركب منها يضم ما ائتلف أو تجانس من الخواطر والأفكار ، أو ما ترابط منها بروابط التداعى لتكون مصدراً للنشاط الفكرى أو الظواهر النفسية اللاشعورية المستقلة عن مراكز التفكير الإرادى .

فهذه المركبات اللاشعورية والتى هى بمثابة مراكز لحركة التفكير المستقل تعتبر من العقل أشبه شىء بالعقد العصبية التى يتألف منها الجهاز العصبى الذاتى بالنسبة للجسم من حيث كونها مصدراً لحركة ذاتية مستقلة عن الإرادة .

فكما أن فى الجسم تجرى معظم الحركات والوظائف الحيوية التى يتوقف عليها حفظ كيان الإنسان ، وتدبير أهم شؤون حياته من صيانة أو وقاية أو دفاع مستقلة عن إرادة الإنسان أو شعوره ، كذلك « اللاشعور » تجرى فى جوفه وعلى غير علم منا أهم عمليات التفكير وأعظمها شأناً بنفس الأسلوب الذى نرقبه فى حياتنا الشعورية ، من حيث الإرادة والقصد والتمييز ودقة الاستنتاج ، وما إليها من أسمى المواهب الفكرية إن لم يفقها دقة وإحكاماً .

فالتفكير الباطن حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ، تؤيدها الحياة العملية كما تؤيدها التجارب العلمية ، وإلا كيف يمكننا أن نعلل ظواهر الأحلام وما يجرى فى النفس من عمليات تفكير معقدة ونحن نيام ؟

أو كيف يمكننا أن نعلل ظواهر التنويم المغناطيسى ، وظواهر الهستريا ، وظواهر اليقظة النومية ، وما يقوم به بعض الأفراد وهم فى سبات تنويمى أو فى نوبة يقظة لاشعورية من أعمال جسام قد يعجز الفرد عن القيام بها حال اليقظة ؟

فقد دلت تجارب التنويم على قيام بعض الأفراد وهم فى حالة غيبوبة التنويم

بعمليات رياضية دقيقة معقدة يعجزوا عن القيام بها حال اليقظة ، كما تمكن البعض من تقدير أحجام أو أوزان بعض الأجسام أو تقدير فترات الزمن دون الاستعانة بآلة أو جهاز بدقة تبلغ حد الإعجاز (١) .

كما أن هناك من الناس من إذا أصر فى نفسه على التيقظ فى موعد معين نهض فى الموعد المحدد بالذات !

وأذكر أنى رأيت فى منامى مرة أن صديقاً لى حضر من الخارج بعد غيبة طالت شهرين ، وقد طابق ذلك موعد قدومه بالذات ، فلما تحريت علة هذه المطابقة تبين لى أنه قبل سفره كان قد حدد لى مدة غيابه ، ومع أنى نسيت ذلك فيما بعد وغاب عن ذاكرتى تماما ما كان أخبرنى به ، غير أنه نظراً لما كان لعودته من أهمية خاصة لدىّ ظل عقلى الباطن يرقب ميعاد حضوره ويعد الأيام ، حتى إذا ما بلغت تمام الشهرين رأيته فى منامى .

ومن الأدلة الصريحة على التفكير الباطن ما يتفق لبعض الناس حال انشغالهم بحل بعض المسائل الهندسية أو الرياضية العويصة من الاهتداء إلى الحل الصحيح فى النوم ، ومن هذا القبيل أنى كنت شغلت بضعة أيام بحل مسألة من مسائل الشطرنج ، وبالرغم مما بذلته من محاولات شتى وجهد جهيد فى سبيل الاهتداء إلى الحل لم أوفق إليه ، حتى وجدتنى فى الرؤيا أحرك « الرخ » من مكانه فى اتجاه خانة معينة ، فكان ذلك مفتاح الحل الذى اهتديت إليه فى اليقظة بعد محاولات

---

(١) وبهذه المناسبة أذكر أنى أجريت بعض تجارب من حيث قدرة النائم مغناطيسياً على تقدير الزمن مع مريضة بالهستيريا ، بأن كنت ألقنها أثناء النوم أن تتيقظ من نومها بعد فترة زمنية مقدرة بدقائق معدودات وبضع ثوان معينة ، فكانت تنهض من سباتها النومى فى اللحظة المحددة بمنتهى الضبط ، وهو ما كانت تعجز عن القيام به حال اليقظة .

قليلة من طريق الرخ (وقد كانت من أعوص مسائل الشطرنج فى العالم حسبما يبينه من تعليق المؤلف على نفس المسألة فى نهاية الكتاب) .

ولعل نظرية التفكير الباطن تفسر لنا نبوغ بعض الأفراد من طبقة العامة ، أو بعض شواذ الأطفال فى ناحية من نواحى الملكات الفكرية ، كسرعة القيام بعمليات رياضية معقدة قد يستعصى على أمهر الرياضيين القيام بها بمثل هذه الدقة والسرعة .

وقد دلت التجربة على أن معظم هؤلاء الأفـــــــراد إذا ما هذبت ملكاتهم الشعورية وبدأوا فى تلقى العلم بالأساليب الدراسية المعروفة كان نمو هذه الملكات مصحوباً على ملكات التفكير الباطن ، ففقدوا كل مزية امتازوا بها من هذه الناحية عن سواهم ، وأصبحوا أفراداً عاديين ، بل ربما أصبح ذكاؤهم أقل من مستوى الذكاء العادى .

ويذهب علماء النفس إلى أن بعض العبارات أو الأفعال التى تصدر منا عفواً ونظنها خطأ غير مقصود إنما هى نتيجة التفكير الباطن ، وأنها ترمى إلى قصد معين أو حكمة خاصة تبرر هذا التصرف قد تنكشف لنا فيما بعد ، ولكننا قمنا بها ونحن فى غفلة عن العوامل النفسية الباطنية التى دفعتنا إليها .

وعلى سبيل المثال أقتبس حكاية أوردها العلامة بوزفيلد فى كتابه « أصول التحليل النفسى العملى »(١) ، وملخصها أن طبيباً فى إحدى المستشفيات أمره رئيسه ألا يغادر المستشفى فى المساء حتى يعود الرئيس بعد العشاء ، غير أن الطبيب كان فى ذلك المساء بالذات مرتبطاً بموعد يهمه فى المدينة اضطره إلى مغادرة المستشفى قبل عودة رئيسه إليه ، فلما عاد الطبيب فى ساعة متأخرة من الليل وجد نفسه قد ترك سهواً مصباح غرفته مضاء ، مع أنه كان شديد الحرص على إطفائه

Elements of Practical Psycho-analysis, by Paul Bousfield, page 7 (١)

كما غادر الغرفة ، ومضى عليه نحو عامين دون أن يخطىء فى ذلك مرة واحدة ، فلما تأمل علة تصرفه هذا لم يلبث أن تبين له أنه تصرف له مغزاه ، ومقصود بالذات ، وهو ما يترتب على إضاءة مصباح الغرفة من إيهام رئيس المستشفى بأن الطبيب لم يغادر مسكنه .

ومن قبيل الخطأ المقصود أنى نقلت مرة رقم تليفون محل معين فى مذكرتى بقصد الاتصال به بعد وصولى إلى مكان خاص فى جهة نائية ، وبالرغم من كون صاحب المحل أملانى الرقم الصحيح وكرره على مسمع منى دفعتين ، ومن كونى قرأت الرقم المكتوب على قرص جهاز التليفون بنفسى زيادة التأكد ، فإننى وجدتنى أخطأت عند تدوين الرقم فى مذكرتى الخاصة ، وبذلك تعذرت على المخابرة التليفونية مما اضطرنى إلى الحضور شخصياً لقضاء المهمة التى أبغى قضاءها تليفونياً ولكنى لم ألبث أن تبينت العوامل الخفية التى دفعتنى إلى التورط فى الخطأ ، وكيف أنه كانت لى مصلحة معينة فى هذا التصرف .

ومن الغريب أنه كانت لدى وسيلة أخرى تمكننى من الاتصال تليفونيا ، ولكنها غابت وقتئذ عن ذهنى تماما ، ولم أفطن إليها إلا بعد انقضاء الفرصة الملائمة للمخابرة .

كذلك قد يتفق للإنسان أن يرتبط بموعد مع شخص معين ثم يجد نفسه بعد ذلك مرتبطا مع شخص آخر فى نفس ذلك الموعد ، فإذا ما بحث الإنسان فى نفسه عن علة هذا السهو فقد ينكشف له أن سببه يرجع إلى نفور كامن فى النفس من ناحية أحد الموعدين لسبب من الأسباب الخفية ، حتى ولو كان المرء شديد الرغبة فى إنجاز الموعد الـكر به فى الظاهر .

ومن الأدلة على ظواهر التفكير الباطن إمكان التأثير أحيانا فى عقل النائم ، وتلقينه عن طريق الإيحاء حال نومه نوما طبيعيا القيام بأمور يأتيها حال اليقظة ،

ولقد أجريت شخصيا عدة تجارب مع أطفالى وبعض أفراد عائلتى ، فوجدت لدى البعض منهم استعداداً عجيبا للتأثر بالإيحاء إلى ما بعد اليقظة ، واستجابة لتنفيذ الأوامر التى كنت ألقيتها إليهم حال النوم ، وهم فى غفلة من علة قيامهم بها حال اليقظة ، وكثيراً ما كنت أوفق إلى معالجة بعض الخصال لدى أطفالى أو إزالة أعراض الوحم الثقيلة فى بعض حالات الحمل عن طريق الإيحاء حال النوم الطبيعى .

نظرية فرويد فى العقل الباطن

لقد عرفنا مما سلف أن الحياة العقلية تنقسم إجمالا إلى قسمين عظيمين : حياة عقلية شعورية ، وحياة عقلية لاشعورية ، وأن اللاشعور بمعناه الأعم ينقسم بدوره إلى مراتب مختلفة من مراتب اللاشعور ، تبدأ بما قبل الشعور ، وتنتهى بالعقل الغريزى .

وأنه بناء على هذا التقسيم أصبحت الحياة الفكرية تشمل فى مجموعها ثمانى طبقات أو مراتب ، وهى :

الشعور — ماقبل الشعور — ما تحت الشعور — اللاشعور بمعناه الأخص — اللاشعور الجمعى — ثم العقل الغريزى بمراتبه الثلاث .

غير أن هذا التقسيم المطول إنما يرمى إلى استعراض طبقات العقل ومراتبه المختلفة لغاية دراسية أو نظرية بحت ، فهو تقسيم وصفى أو تشريحى أكثر منه تقسيم عملى أو تطبيقى ، حتى أن السواد الأعظم من علماء النفس لم يذهب فى تقسيم الحياة العقلية إلى أكثر من طبقتين وهما الشعور واللاشعور ، والبعض قسمها إلى أربع طبقات أو مراتب وهى :

(١) الشعور .

(٢) ما وراء الشعور « على أن يشمل ما قبل الشعور وما تحت الشعور » .

(٣) اللاشعور .

(٤) ماوراء اللاشعور أو «اللاشعور الأول» « The Primary Unconsciou » كما يسمى أحياناً ، (على أن يشمل العقل الجمعى ، والعقل الغريزى بمراتبه المختلفة ، أو بعبارة أخرى : الثروة الفكرية الموروثة بقسميها البشرية ، والحيوانية) .

وقد ذهب العلامة فرويد إلى تقسيم الظواهر العقلية من الناحية الوصفية إلى مراتب ثلاث ، وهى : الشعور ، وما قبل الشعور ، واللاشعور ، ويمكننا أن نصطلح عليها بالعقل الظاهر ، والعقل الكامن ، والعقل المكبوت أو الباطن ؛ غير أنه من الناحية العملية اقتصر على تقسيمها إلى قسمين ، وهما : الشعور واللاشعور ، وقد ألحق ما قبل الشعور أو العقل الكامن بالشعور ، مستنداً فى هذا التقسيم المجمل على افتراض قوة خفية من شأنها صد بعض الذكريات والخواطر والنزعات عن الظهور فى منطقة الشعور بقسميه ، وكبح جماحها كلما حاولت ولوج هذه المنطقة ، إما مراعاة لكونها ضد التقاليد والعادات القومية ، والآداب العامة ، والعقائد الدينية ، كالميول الجنسية الموجهة إلى المحارم من الأهل والأقارب التى استأثرت بالنفس من عهد الطفولة ، وإما مراعاة لكونها من الأفكار والذكريات التى لا يقوى الشعور على تحمل ما يصحبها من آلام شديدة أو تأثرات مزعجة .

وقد أطلق على هـذه القوة الكابحة اسم الكبت « Repression » ، ولا يستعصى علينا أن نستدل عن طريق مشاهداتنا المستقاة من حياتنا اليومية على وجود قوة نفسية كامنة تدفع الخواطر والذكريات المؤلمة إلى جوف اللاشعور ، وتصدها عن الظهور فى منطقة الشعور ، وربما لا يقف الأمر عند حد كبت الذكريات المقصودة بالذات ، بل قد تشمل عملية الكبت أفكاراً وذكريات بريئة لا ذنب لها إلا مجرد كونها ارتبطت بالذكريات المؤلمة برابطة تداع لفظى .

وعلى سبيل المثال أذكر أنى لاحظت من نفسى فى حين ما تكرار نسيان اسم زميل من زملائى من رجال القانون كانت علاقتى الشخصية به لا تشوبها أدنى شائبة ، وذلك فضـــــلا عن أن غرفته فى مركز العمل كانت ملاصقة لغرفتى ، وبالرغم من هذا كان إذا جاءنى زائر وسألنى عن أسماء زملائى ذكرتهم فى الحال بغير تردد ، حتى إذا ما وصلت إلى اسم ذلك الصديق استعصى على استحضاره أصالة ، وغاب عن ذاكرتى تماما ، ولقد لفت نظرى تكرار هذه الظاهرة مما دعانى إلى التفكير فى علة هذا النسيان المتكرر الموجه نحو اسم زميل دون غيره من الزملاء ، فعمدت إلى تحليل ذكرياتى وخواطرى المنبعثة من التأمل فى اسمه ، ثم فى لقبه ، فما لبثت أن قادتنى سلسلة خواطرى إلى واقعتين إحداهما عن طريق الاسم ، والأخرى عن طريق اللقب ، كل منهما كانت لها فى ماضى حياتى واقعة حال مؤلمة لا شأن لها بهذا الزميل ، ومن ذلك الحين لم أعد أنسى اسمه ولم يغب عن ذاكرتى أصالة .

ولقد جاءت ظواهر فقد الذاكرة التى تنشأ عن الصدمات النفسية التى يتعرض لها الجنود فى ميدان القتال ، وهى الظاهرة المعروفة باسم « صدمة القنابل Shell Shock » مؤيدة هذه الحقيقة ، حيث تقوم قوة الكبت كحاجز منيع يصد الذكريات المتصلة بالحادث الذى نشأت عنه الصدمة من ولوج منطقة الشعور ودفعها إلى أعمق غور فى قرارة النفس .

وقد لا يقف فقد الذاكرة عند حد نسيان وقائع الحادث المزعج الذى نشأت عنه الصدمة بالذات ، بل قد يشمل مجموعة كبرى من الأفكار والخواطر المرتبطة به ولو عن طريق غير مباشر ، بحيث تعم عملية الكبت قسما كبيرا من تاريخ حياة المريض ، بل ربما استغرقت ذكريات ماضيه بأسره .

وقد كشفت إجراءات التحليل النفسى عن وجود هذه القوة الكابتة حيث

دلت عليها حالة المقاومة التي شوهدت في المرضى عادة عند اصطدام عملية التحليل بالذكريات المؤلمة المكبوتة .

وقد عرفت هذه الظاهرة لدى رجال التحليل باسم « المقاومة Resistance » ، وأن من أخطار المهام الملقاة على عاتق المحلل التغلب على هذه الروح الخفية التي يلقاها عند محاولته الولوج إلى منطقة اللاشعورية . فعليه أن يوجه معظم جهوده إلى اقتحام طبقة الكبت وإحداث ثغرة في هذا الحصن المنيع ليلج منها إلى جوف العقل الباطن . توصلا لاستظهار الخواطر والذكريات الدفينة في قرارة النفس وجلبها إلى منطقة الوعي والشعور .

فعلى أساس نظرية الكبت بنى العلامة فرويد وجهة نظره الخاصة باللاشعور من الناحية التحليلية . حيث جعل بضاعته المحتكرة الأفكار والنزعات المكبوتة وألبسها طابع الكبت الخاص .

وعلى هذا الاعتبار فإن العلامة فرويد يفترض وجود نوعين من اللاشعور : لاشعور يضم الذكريات الكامنة والقابلة للاستظهار بمحض الرغبة والاختيار . ولاشعور يضم الذكريات المكبوتة التي يستعصى علينا استظهارها اختياراً بالوسائل العادية .

وقد أطلق فرويد على النوع الأول اسم « ما قبل الشعور Preconscious » ، وهو ما نسميه بالعقل الكامن ، وأطلق على النوع الثاني اسم « اللاشعور بمعناه الأخص The Unconscioes » ، وهو ما نسميه بالعقل الباطن . فالعقل الكامن في نظر فرويد يعبر عن اللاشعور من الناحية الوصفية ، والعقل الباطن في نظره يعبر عن اللاشعور من الناحية الحركية الخاصة بقوة الكبت . وبناء على هذا وضع فرويد تقسيمه الثلاثي للحياة العقلية ، بأن قسمها إلى عقل ظاهر (Cs) وعقل كامن Pcs ، وعقل باطن Ucs ، وهو من ناحية التحليل ، أو من حيث مظهر الحركة يلحق العقل الكامن بالعقل الظاهر ، ويعتبره

بمثابة غرفة الانتظار للعقل الظاهر الذي يمثل غرفة الاستقبال ، ويقنع الأستاذ فرويد في سبيل ذلك بتقسيم الظواهر الفكرية إلى قسمة ثنائية ، أعنى شعور (ويضم الشعور بمعناه الأخص كما يضم ما قبل الشعور) ، ولاشعور ، (ويشمل الخواطر المكبوتة كما يشمل النزعات والميول الغريزية الدفينة في قرارة النفس) . ويذهب فرويد إلى أن ملكات اللاشعور أو ملكات العقل الباطن من حيث القوة وشدة التأثير في النفس تفوق الملكات الشعورية الخاصة بالعقلين الظاهر والكامن بمراحل ، فالعقل الباطن بطبيعته يشتمل على أقوى مظاهر الحركة الفكرية والنشاط النفساني ، وله أعظم سلطان على أفكارنا ومشاعرنا ووجداناتنا ، كما أن له أبلغ أثر في تكييف سلوكنا الشعوري دون أن ندرى من أمر هذه القوة الخفية شيئاً .

ودراسة اللاشعور إنما تقوم على وسائل التحليل النفسي وأساليبه الخاصة التي ترمى إلى اقتحام الطبقة العازلة الخاصة بظاهرة الكبت والولوج منها إلى طبقات العقل الباطن وإخراج محتوياته وما يمكنه من مخبئات وأسرار واستعراضها على مسرح الشعور وفحصها على ضوء العقل الظاهر .

ولما كان اللاشعور يحوى ذكريات الطفولة وذكريات الحوادث النفسية المكبوتة ، كما يحوى النزعات والاستعدادات والميول الفطرية الموروثة ، فإن له أثراً بليغاً في إكساب الشخصية طابعاً خاصاً ، وفي صبغ سلوكنا الشعوري بصبغة هذا الطابع ، ونظراً لاتصال اللاشعور بحياتنا العقلية الخاصة بعهد الطفولة ، فإن له خصائص وصفات تميزه عن الشعور ، فمن أخصها نزعاته الجنسية وتغلبها على ما عداها من النزعات أو الميول الغريزية الأخرى . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى كثرة المكبوت من هذه النزعات تحت ضغط تقاليد البيئة وتعاليم المجتمع ؛ والجانب الشهواني من العقل الباطن لا يعترف بالقيود الاجتماعية

ولا يرعى لتعاليم الأديان والتربية والتعليم والآداب القومية حرمة ، فهو على الفطرة المجردة ، ولهذا كان فى نضال مستمر مع الجانب التربوى أو الأخلاقى منه ، وقوى النفس الباطنة كثيرة التحول والتجوال من نزعة إلى أخرى ، دائمة التقلب من حال إلى حال ، بكيفية لا يعهد لها مثيل فى حياتنا الشعورية ، كما أن العقل الباطن بضاعته الوجدانات والرغبات والنزعات ، ولغته الصور والرموز ، فهو لا يعرف اللغة اللفظية والكلامية التى هى من بضاعة العقل الشعورى بقسميه الظاهر والكامن .

وإذا ألقينا نظرة إلى حياة الطفل نجدها تبدأ بنزعات غريزية تكون فى أول الأمر شعورية ، ثم لا تلبث أن ترتد إلى اللاشعور على أثر اصطدامها بالحياة العقلية التقليدية المكتسبة من البيئة بالتربية والتهذيب .

وبسبب النضال المستمر بين الميول والنزعات الفطرية غير المهذبة ، وبين تعاليم المجتمع تتكون أعظم ثروة من بضاعة اللاشعور المكتسبة ، ولعله عن طريق القمع المتواصل لرغبات الطفولة تتولد ملكة الكبت التى تقوم عليها نظرية فرويد الخاصة باللاشعور . ولكى تكون تربية الطفل قائمة على قواعد صحية من الوجهة النفسية يتعين أن يكون الكبت مقترناً بوسائل تساعد على تصعيد النزعات المكبوتة ، وإلا أصبح الكبت مرضياً ، وكان الطفل معرضاً فى مستقبل حياته للأمراض العصبية والاضطرابات النفسية ، أو لانحراف الميل الجنسى ، أو لنوبات انتكاس مرضية يصبح فيها الإنسان خاضعاً فى تصرفاته لسلطان الميول والنزعات الفطرية الكامنة فى عقله الباطن منذ عهد الطفولة . ولعل هذا ما يفسر لنا سلوك بعض الرجال والشيوخ مسلكاً صبيانياً لا يتفق مع سنهم أو مركزهم الاجتماعى ، فيكونون فى تصرفاتهم من ناحية بعض الميول الغريزية أقرب إلى الأطفال منهم إلى الرجال .

فرويد ومظاهر النفس

الثلاثة

بعد أن قسم العلامة فرويد الحياة العقلية إلى مراتب ثلاث ، وهي : الشعور ، وما قبل الشعور ، واللاشعور ، نظر إلى الطبيعة البشرية من حيث مظاهرها المختلفة ، ثم رتبها في ثلاث مجاميع كبرى كل مجموعة منها تعبر عن ناحية خاصة من مظاهر الحياة العقلية ، مستنداً في ذلك إلى مشاهداته المستقاة من إجراءات التحليل النفسي وتجاريبه العديدة ، وفرض لكل مجموعة منها خصائص ومميزات تتميز بها عما عداها .

فالمجموعة الأولى تسودها الروح الشهوانية ، المستقاة من الغرائز والنزعات الفطرية .

والمجموعة الثانية تسودها الروح الفكرية المتصلة بعالم الحس والحقيقة ، وهي مستمدة من الحياة الشعورية .

والمجموعة الثالثة تسودها الروح المعنوية المستقاة من العقائد الدينية والتقاليد والعادات القومية والآداب العامة والتربية والتعاليم الاجتماعية .

فكأنه بذلك انتزع من النفس البشرية ثلاث شخصيات شبه مستقلة تتميز بعضها عن بعض بصفات خاصة ، وقد رمز للشخصية الأولى منها بكلمة Id وهي كلمة لاتينية معناها ضمير المفرد الغائب لغير العاقل ، ويمكن تعريبها بكلمة « هي » أعني النفس ذات الشهوة ، ورمز للثانية بكلمة Ego وهي كلمة لاتينية معناها « أنا » أعني الذات الشعورية أو الواقعية ، ورمز للثالثة بكلمة « Supre-Ego » ، ومعناها « أنا الأعلى » ، أعني الجانب الروحاني من الطبيعة البشرية الذي ينطوي على النزعات الأدبية والأخلاقية والدينية والمثل العليا .

فهذا التقسيم العلمي الصميم الذي ساعد رجال البحث على حل كثير من رموز النفس وتبسيط معضلات الطبيعة البشرية ربما كان له نظير يقابله في اصطلاحاتنا العامية . ويمكننا مع بعض التسامح تطبيقه على ما نسميه حسبما جرى عليه العرف بيننا بالنفس[1] والعقل والضمير .

فالنفس أو هي « The Id » : ينطبق عليها الكثير من خصائص العقل الباطن ، ولو أن التطابق بينهما لم يكن تاماً ، إذ قسم من الـ «أنا» والقسم الأعظم من « أنا العليا » لاشعوري أيضاً ، والنفس بهذا المعنى الأخص تشتمل وفقاً لرأي فرويد على الميول والاستعدادات الموروثة وهي مستودع الشهوات وينبوع النشاط الغريزي ، وموطن النزعات والميول الفطرية ، كما يقول إنها موطن تنازع البقاء بين الغريزة الجنسية وغريزة الموت .

وهي مسوقة بمبدأ نشدان اللذة The pleasure principle ولهذا كان دأبها أن تحمي كيانها من عوامل التوتر والألم ، دائبة السعي وراء إرواء ظمأ الشهوات لا تعترف بالآداب العامة ولا بالمنطق ، ولا رابطة تجمع بين أغراضها المتباينة ، وهي موطن الأماني والنزعات والخواطر والذكريات المكبوتة ، فلا تلبث هذه أن تندمج فيها وتصبح جزءاً منها .

والأنا ، أو الذات الحسية « The Ego » : تتألف من مجموعة متماسكة من الملكات العقلية ، أو العمليات الفكرية المستمدة من نزعات « النفس » بعد تهذيبها وفقاً لمقتضيات البيئة الخارجية والحياة العملية ، وهي لا يمكن تحديدها

---

(١) المقصود بالنفس هنا هي النفس ذات الشهوة المنتزعة من حياتنا الغريزية والتي يجاهد كل منا إلى حد ما في سبيل التغلب عليها وقمع رغباتها فهي « النفس الأمارة » وهي و « الأنا » الشعورية في نضال متواصل ، كما أن بعض علماء النفس القدماء قسم النفس إلى مراتب ثلاث : نفس سفلية ، ونفس أرضية ، ونفس علوية .

تحديداً فاصلا عن ال « هى » عند موضع اتصالها بها ، حيث تمتزج بها فى الطبقة السفلى امتزاجا يتعذر معه وضع حد فاصل بينهما .

أما خصائصها ومميزاتها فإنها تتلخص فى كونها صورة منعكسة للحياة الخارجية المنبعثة من عالم الحقيقة ، وهى تمثل ما نسميه اصطلاحا بالعقل أو المنطق .

وكما أن « النفس » أو ال « هى » قوامها الغرائز أو الشهوات ، فإن الصور الحسية قوام « الأنا » ، فهى المظهر المجسد من حياتنا العقلية ، وهى وحدة تجمع ما بين التصور والشعور وما قبل الشعور . منها قسم شعورى وقسم لاشعورى ، إذا ما أصبح شعوريا كان له خطره فى الحياة .

ومن خصائصها كبح جماح ال « هى » وصد تيار نشاطها العظيم وعنها يصدر الكبت ، وبواسطتها يتم تصعيد النشـــاط الغريزى ، وبذلك تتحول الشهوة الغريزية إلى شهوة عقلية أو معنوية .

وهى تجاهد فى سبيل الآداب العامة والمثل ، تنام ولكنها تدع منها رقيباً على الأحلام . ونظراً لاتصالها المباشر بعالم المحسوسات فى الحياة الخارجية فهى ترتب عملياتها العقلية ترتيباً زمنيا ، وتوازن بينها وبين ما يقابلها فى عالم الحقيقة من مشاهدات .

وهى مدينة بالفضل لأساتذة ثلاثة : « النفس » ، و « الأنا العليا » ، والحيـاة الخارجية ، كما أنها واقعة تحت ضغط الشهوة النفسية من جهة وقسوة الضمير (أو أنا العليا) من جهة ثانية وقسوة البيئة الخارجية من جهة ثالثة ، فهى فى جهاد متواصل مع هذه الجبهات الثلاث .

ويصفها فرويد بأنها كالقيم على الحدود بين الحيـاة الداخلية للنفس ، وبين الحياة الخارجية للبيئة ، فتعمل للوساطة بين أغراض النفس الباطنة وعوامل

البيئة ، وتقريب شقة الخلاف بينهما ، تعمل على إخضاع البيئة إلى حد ما لشهوات النفس . كما تعمل على إخضاع الغرائز والشهوات لمقتضيات البيئة الخارجية .

وبالنظر إلى ما لها من قابلية التكييف بحسب مقتضيات الظروف ، فإنها كثيراً ما تهب ذاتها « للنفس » فتقضى لبانتها الغريزية منها إذا ما تعذر على « النفس » بلوغ غرضها الشهوانى فى الحياة الخارجية ، فتتجلى عندئذ ظاهرة العشق الذاتى أو تركيز الشهوة الجنسية فى الذات ، وبذلك تصبح الأنا معشوقة الـ « هى » كما أنها قد تعمد إلى سلب « النفس » شهوتها فتلحقها بها ، وبذلك تصبح « شهوة ذاتية Ego-libido » .

ومن رأى فرويد أن الـ « أنا » معظم اشتقاقها من الصور السمعية أو الصور الفكرية الكلامية أو اللفظية ، ولو أنه لم ينكر أن للصور البصرية أو الصور الحسية الأخرى شأناً فى تكوينها ويقول العلامة ج جلوفر Glover .

إن الـ « الأنا » تتكون من الرغبات المكبوتة والنزعات الباطنية التى لم تتحقق ، والتى تدمجها « الأنا » عندئذ فى شخصيتها حتى يتم لها بذلك إخضاعها لعالم الحقيقة .

وهى تتكيف تبعاً لمقتضيات البيئة ، فهى تمثل طابع الظروف القاهرة ، وأحكام الضرورة المنزلة على « النفس » ، فمهمة « الأنا » قائمة على التوفيق بين النزعات الغريزية للنفس وبين مقتضيات البيئة .

ومن خصائصها نبذ مبدأ نشدان اللذة الخاص بالنفس الباطنة فى سبيل بلوغ الحقيقة ، ويقول جلوفر : إن مادة تماسك عناصر « الأنا » ، أو مقوماتها هى الشهوة المستعارة من « النفس » ، والتى حولتها إلى شهوة أنانية ، أو عشق ذاتى .

ومن حيث علاقة ال « أنا » بالنفس يشبه فرويد الأنا بالفارس ، والنفس بالجواد الجموح الذى كثيراً ما يدفع براكبه إلى حيث يريد ، وبذلك يسخره فى تحقيق أغراضه وأهوائه ، ويقول : إنه تشبيه ينقصه أمر واحد ، وهو كون قوى الفارس فى مثالنا (أعنى الأنا) مستعارة من قوى الجواد (أعنى النفس) . (ولعله يراعى فى ذلك كون النشاط العقلى إنما مستمد من النشاط الغريزى) .

وليس تشبيه العلامة فرويد بغريب علينا ؛ فمن أمثلة العرب المعروفة قولهم : « إن فلانا قوى الشكيمة » ؛ أعنى قادر على حكم نفسه ، والشكيمة مفهوم أنها لجام الفرس ؛ أو قولهم : « إن فلاناً لم يقو على كبح جماح نفسه » ، أعنى تغلبت عليه شهوات نفسه .

« أنا الأعلى — The Supeo-Ego » :

أما أنا الأعلى أو الذات المثالية The Ego-ideal كما يسميها فرويد أحياناً[1] ، فإنها تتكون من عنصرين :

(الأول) الروح المعنوية الموروثة عن المدنيات السالفة ، والتى هى وليدة التقاليد الاجتماعية والآداب العامة والأخلاق القومية والتعاليم الدينية .

و (الثانى) الروح المعنوية المكتسبة من الوالدين باعتبارهما المثل الأعلى للنفس فى نظر الطفل ، أو من يمثل الوالدين فى مراحل الحياة : كالمربين والمعلمين والرؤساء

---

(١) وإن كان الرأى السائد الآن يقوم على التفرقة بين « أنا العليا » وبين « أنا المثالية » التى تعد تفريعاً أو اشتقاقاً من الأولى ، بأن تمثل الاولى سلطة الوالدين ومن فى حكمهما ، وتضم مجموعة الروادع والنواهى الوالدية والاجتماعية ، وخليق بها أن تسمى « النفس المؤدبة » أو « اللوامة » بينما تمثل الثانية المثل العليا المستمدة من تقمص الطفل فى شخصية الوالدين ، ومن يتخذهم من الشخصيات مثلا أعلى يحتذيه بعد الوالدين .

الدينيين ، أو الإداريين ، فالأنا العليا تمثل أهم حوادث التطور العقلي الخاص بالجنس البشري بصفة عامة ، كما تمثل التطور العقلي الخاص بالفرد بصفة خاصة ، ولما كان للوالدين أثر عظيم في هذا التطور فيقول علماء النفس : إن « أنا العليا » تحمل بين طياتها العناصر التي تكونت منها وكانت سبباً في نشوئها ؛ فهي تمثل الجانب الأدبي الأسمى والمظهر الروحاني من الطبيعة البشرية ؛ وتنطوي على كل ما ينتظر أن تنطوي عليه أرق طباع البشر .

وإني أقتبس هنا عبارة فرويد في وصف الذات المثالية التي أوردها في كتابه المسمى « أنا وهي » ص ٤٧ ، لندفع عن التحليل النفسي وصمة اتهامه بتجريد النفس البشرية من ثوبها المعنوي ، والنظر إليها نظرة مادية مجردة عن كل جمال روحاني ؛ حيث قال في هذا المقام ما نصه :

« ... and here we have that higher nature, in the ego-ideal or super-ego, the representative of our relations to our parents. When we were little children we knew these higher natures, we admired them and later we took them into ourselve » (the Ego and the Id, p. 47)

وتعريبها :

« ... فحسبنا ذلك المظهر الأسمى المتجلي في الذات المثالية أو الأنا العليا التي تمثل ما كان بيننا وبين والدينا من صلات وروابط . ففي الوالدين تمثلت لنا أرق مظاهر الطبيعة البشرية منذ نعومة أظفارنا فملأت قلوبنا الصغيرة إعجاباً ورهبة ، ثم ما لبثت أن تشربتها نفوسنا وامتزجت بأرواحنا ودمائنا » .

ومن خصائص « أنا العليا » أنها لاشعورية ، وأنها مستقلة عن « الأنا » أو الذات الشعورية ، وهي مستودع القوة الرادعة للشهوات ، ومنها تستمد « الأنا » القوة المعنوية اللازمة للكبت ، أو كبح جماح النفس وصد تيار نزعاتها المتدفق

ومن أقوى مظاهر « الذات المثالية » أنها تنتقد « الأنا » وتؤنبها إذا ما خضعت لسلطان النفس الشهوانية ، ولبت داعى رغباتها المكبوتة فى النفس . ويقول عنها فرويد إنها أشبه شيء بما نسميه بصوت الضمير ، وإن من دأبها التحكم فى « الأنا » وبسط سلطانها عليها ، وكثيراً ما تكون فى حكمها إياها قاسية مستبدة تعاملها بلا شفقة أو رحمة ، وربما أدى بها فرط القسوة إلى انتصار غريزة الموت على غريزة الحياة ، فتدفع بصاحبها إلى الانتحار[1].

ويقول العلامة « جونس Jones » : إن أنا العليا يجب أن تساس منذ الطفولة بالحلم والأناة وأن تدرب برفق وحكمة تفاديا مما قد ينشأ عند أخذها بالشدة والعنف من أخطر النتائج ، إذ من الحقائق المعروفة عن « أنا العليا » أنها تكون قوية المظاهر فى دور معين من أدوار الطفولة إلى درجة قد تصبح معها بعض الهفوات البريئة فى نظر الطفل جرما شائنا ، فيستأثر الشعور بالخطيئة والإجرام بلبة الصغير ويستحوز على ملكات عقله الناشئة فيشل نشاطها منذ البداية ، ثم يضحى رجلا عاجزاً أشل الإرادة عيي حتى فى أتفه الأمور وأبسطها ، مثل تناول الطعام أو المشى أو الكلام وما إليها ، فتبدو هذه الأعمال للشعور كأنها عجز طبيعى فى حين أنها فى اللاشعور المكبوت مطبوعة بطابع الخطيئة والإجرام ، مصبوغة بصبغة المحرمات . فكشف علة هذا الشعور المرضى تعد فى نظر رجال التحليل من أخطر الخطوات شأنا فى سبيل شفاء العليل .

وجاء رأى الأستاذ إيدلر Eder مطابقاً لرأى جونس حيث قال ما معناه إن الذات الكاملة تكون لدى عصبي المزاج أعظم شأنا ، وأشد بأسا منها لدى الشخص الطبيعى أو السوى ، والأول يكون أقل كفاءة واستعداداً لمواجهة الحقيقة بسبب ما طبعت عليه ذاته المثالية من صلابة وعناد .

---

(١) كما يحصل أحياناً لدى المصابين بالظواهر العصبية أو النفسية نتيجة الشعور المجسم بالذنب .

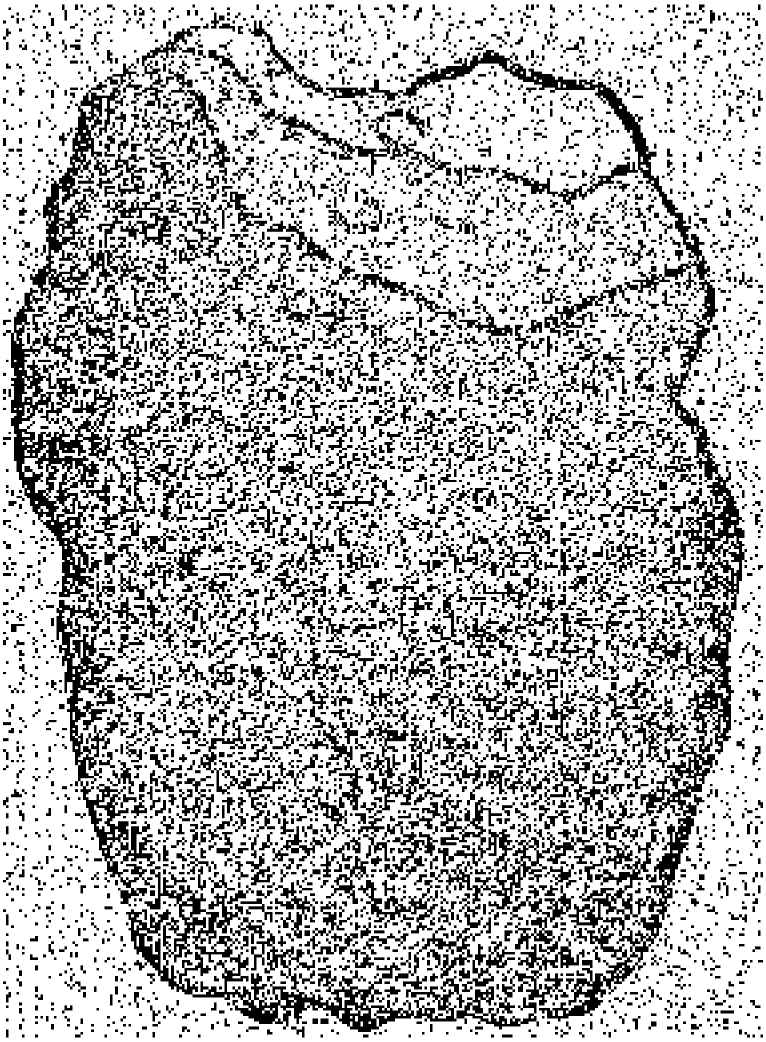

رسم تخطيطي للجهاز النفسي مبيناً به أقسامه الثلاثة وهي :

النفس ذات الشهوة أو هي Id — والنفس العاقلة أو الـ « أنا — The Ego » .

— وأنا العليا أو الضمير Super Ego .

— المنطقة ذات الظل الثقيل تعبر عن العقل الباطن أو اللاشعور .

— والمنطقة ذات الظل الخفيف تعبر عن العقل الكامن أو ما قبل الشعور .

— والمنطقة المكشوفة من الظل تعبر عن العقل الظاهر أو الشعور .

— والخط المتعرج المتقطع الفاصل بين Id, Ego يمثل منطقة الكبت .

— والحافة العليا وكذلك القسم العلوي من الحافة اليمنى للصورة تعبر عن منطقة الاتصال بالحياة الخارجية أو عالم الحقيقة .

(نقلا عن كتاب The Ego and the Id للعلامة فرويد)

ويقول : إن وسائل التحليل النفسي وتجاربه دلت على وجوب معالجة نزعات النفس الباطنة منذ نشأة الطفل بشيء من الرفق والهوادة والمرونة ، وبأسلوب أقل اتصالا بعالم الخيال ، حتى يتسنى بذلك « للأنا » تفادى الظواهر العصبية والأعراض النفسية التي يلجأ إليها هؤلاء المرضى بحكم الضرورة للتوفيق بين أغراض « النفس » الباطنة ونزعات « الأنا العليا » .

والعلامة « رانك Rank » قسم « أنا العليا » بدورها إلى ثلاثة مظاهر :

أولا — أنا العليا الحيوية The Biological Super-ego وتتكون من الروح المعنوية المتولدة من كبت شهوة الرضاع على أثر الفطام . ويقول : إن شهوة الفم المكبوتة قسم منها يجد منفذاً للتصريف عن طريق ظواهر جثمانية ، كما يبدو على الطفل أحياناً من ثورة حدة أو غضب موجهة نحو الأم ، وبالأخص ما كان منها عن طريق الفم . والقسم الثاني يكبت في « الأنا » وهو ما يؤدى إلى إنشاء أو تكوين روادع لا شعورية .

ثانيا — أنا العليا الأدبية The Moral Super-ego ، وتتكون من الروح المعنوية الناشئة عن تدريب العضلة العاصرة للشرج على الاحتفاظ بمحتويات الأمعاء في الدور المعروف فنيا باسم « الدور الشرجى The Anal Stage » ، وهى المرحلة الثانية من مراحل الردع أو التحريم في حياة الطفل النفسية .

ثالثا — أنا العليا الاجتماعية The Social super-ego ، وتتكون من الروح المعنوية الناشئة عن الروادع الوالدية ، وإدماج الطفل شخصيته في شخصية والده ، على أثر تحليل « مركب أوديب Oedipus Complex » (وهو المركب الخاص بغيرة الطفل من أحد والديه ، وبغضه إياه بسبب تعلقه بحب الآخر) .

ويفسر العالمان « ريكمان Reickman » و « ريك Reic » الميل للإجرام بسبب ضعف « الأنا العليا » وتفكك روابطها المعنوية الناشيء عن أساليب الردع المشوشة المتضاربة الغاية ، التي يتعرض لها الطفل في دور التربية حيث تضعف لديه ملكة النقد الذاتي .

ويقول العلامة « فرويد » : إن شدة الشعور بالخطيئة قد يكون من أقوى البواعث على الإجرام لا نتيجة ارتكاب الجرم بالذات .

* * *

ولا يعزب عن البال أن أقسام النفس الثلاثة الآنفة الذكر ما هي إلا مجرد فروض علمية ، دعت إليها الحاجة لتفسير ظواهر النفس المختلفة ، وتمييزها عن بعضها بأسلوب فني منظم ساعد على فهم الكثير من مشكلات الطبيعة البشرية وحل رموزها المعقدة . وكما أن هذا التقسيم كان له شأن خطير في تشخيص أمراض النفس وعلاجها من الناحية المرضية ، كذلك سيكون له أثره البالغ في دارسة ظواهر الإجرام وكشف عوامله الدفينة في قرارة النفس ، ووضع أنجع وسائل الوقاية والعلاج على ضوء العلم الصحيح .

المركبات النفسية الكبرى أو الغرائز العامة

إذا تأملنا مجموعة الغرائز التي تتألف منها حياتنا الغريزية بصفة عامة ، نجدها إجمالا لا تخرج عن دائرة ثلاث مجاميع كبرى ، أو غرائز عامة عالية ، وهي : غريزة الذات ، وغريزة الاجتماع ، والغريزة الجنسية .

وقد أورد العلامة « مكدوجال » في مؤلفه النفيس « مقدمة في علم النفس الاجتماعي » أهم الغرائز البشرية المعروفة ، ومجموعها اثنتا عشرة غريزة ، وهي :

١ — غريزة الهرب .
٢ — « الهجوم .
٣ — « النفور .
٤ — « حب الاستطلاع .
٥ — « الاعتداد بالذات .
٦ — « الخضوع أو التسليم .
٧ — « الطعام .
٨ — « الاقتناء .
٩ — « الإنشاء .
١٠— « التناسل .
١١— الغريزة الوالدية .
١٢— غريزة الاجتماع[١] .

---

(١) وهناك غرائز أخرى نورد بعضها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر . مثل غرائز : الانتقام ، والتقليد أو المحاكاة ، واللعب ، والضحك ، والبكاء ، والتدمير ، والموت .

فبالتأمل فى هذه المجموعة من الغرائز نجد أن القسمة الأولى منها تتعلق بغريزة الذات ، والعاشرة والحادية عشرة تتعلقان بالغريزة الجنسية ، والأخيرة بالغريزة الاجتماعية ، وهى الغرائز العالية الثلاثة الكبرى ، وتضمها جميعاً فى النهاية غريزة الحياة أو غريزة حب البقاء أصل الغرائز جميعاً .

ويقول العلامة « مكدوجال » : إن كل غريزة من هذه الغرائز الفرعية يصحبها وجدانات أو تأثرات خاصة بها (إلا ما كان منها قائماً على مجرد السلوك الغريزى ، الذى بحسب طبيعته لا يستلزم وجداناً خاصاً مثل غريزتى الإنشاء والاقتناء) فغريزة الهرب يصحبها انفعال الخوف ، وحب الاستطلاع يصحبه الغرابة والعجب ، والاعتداد بالذات يصحبه الإعجاب ، والخضوع يصحبه التواضع ، وغريزة الطعام يصحبها وجدان الجوع أو شهوة الطعام ، وغريزة التناسل يصحبها الميل الجنسى أو الحب ، والغريزة الوالدية يصحبها الحنان والشفقة ، وغريزة الاجتماع يصحبها روح الألفة وحب المعاشرة .

والعلامة « مكدوجال » هو أول من لفت أنظار رجال العلم إلى تعريف الغرائز المختلفة تبعاً لمظهر النزوع أو السلوك الغريزى منها ، لا وفقاً لمظهر التأثر والانفعال حسبما كان جارياً عليه العرف ، إذ يعتبر « مكدوجال » أن السلوك هو المظهر المقصود بالاستعداد الغريزى ، لا الوجدان الذى يعتبر مجرد حالة انفعالية مصاحبة لهذا الاستعداد .

ونظراً لتباين النزعات الغريزية أو تنازع أغراضها ، سواء فيما بين مجموعة الغرائز الصغرى المتفرعة عن غريزة واحدة أو بين مجاميع الغرائز الكبرى الثلاثة (وهى الذات والجنس والاجتماع) ، فإن كثيراً ما يؤدى هذا التباين إلى تحوير أو تكييف فى المظهر العام للغريزة الأصلية .

كما أنه عن طريق امتزاج نزعتين أو أكثر قد تتولد عواطف أو وجدانات

جديدة ذات طابع خاص ؛ فالحسد كما يقول « مكدوجال » مزيج من غريزتى الغضب والخضوع ؛ والاحتقار مزيج من غريزتى النفور والاعتداد بالذات .

وإذا تأملنا الغيرة من جانب الزوج نحو الزوجة نجدها خليطا بين غريزة الذات ، والغريزة الجنسية ، وغريزة الاجتماع ؛ بينما الغيرة من جانب الزوجة مصدرها غريزة الجنس وغريزة الذات .

ولما كانت مجاميع الغرائز الكبرى أو الغرائز العالية الثلاثة آنفة الذكر لها أعظم شأن فى دراسة الطبيعة البشرية ، فإنه يحسن بنا أن نفرد لكل منها كلمة إجمالية نقف منها على مبلغ أثرها فى حياتنا العملية بصفة عامة .

غريزة الذات

إن غريزة الذات أو « التركيب الذاتى The Ego-Complex » ، كما يسمى أحيانا هى بالنسبة لما عداها من المجاميع الكبرى تعد أشدها تغلغلا فى الطبيعة البشرية ؛ فقد نشأت مع النفس منذ انبثق فجر الحياة على ظهر البسيطة ، ورافقتها فى جميع مراحل تطورها الغريزى التى مر بنا ذكرها من أول عصر « الطبيعة النوعية » الخاص بالخلية حتى الآن ، وقد بسطت سلطانها على حياتنا العقلية بأكملها من أدنى مراتب اللاشعور إلى أسمى درجات الشعور ، وستظل هكذا فى مستقبل حياة النفس البشرية على مر العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وأولى العناصر التى تتألف منها المجموعة الذاتية هى المشاعر والإحساسات الجثمانية التى تجيئنا من عالم المادة الخارجى عن طريق الحواس ، ثم الوجدانات والتأثرات النفسية التى يصدرها العقل الباطن ، وهذه الاحساسات الباطنة ، وإن كانت حال ظهورها فى الشعور تبدو لنا مبهمة قليلة الوضوح ؛ ولكنها

مع هذا شديدة الأثر فى النفس إلى أقصى حد ، ولها أقوى سلطان على سلوكنا الشعورى ، وعنها تكتسب شخصيتنا طابعها الخاص .

ويقول العلامة « يونج » : إن شخصية الإنسان هى أشد المركبات النفسية ثباتاً وصلابة تجاه الحوادث النفسية ، وإن هناك من العواصف البشرية ما قد تكتسح غريزتى الجنس والاجتماع فتتلاشيان أمامها ، بخلاف غريزة الذات ، فإنها تصمد تجاهها باسطة سلطانها على النفس البشرية إلى آخر رمق من الحياة .

والشطر الثانى من عناصر « المركب الذاتى » يتألف من مجموعة الأفكار والذكريات والخواطر النفسية بمراتبها المختلفة ، الشعورى منها والكامن والمكبوت ، ومن هذا يتبين أن محتويات « المركب الذاتى العظيم » تتألف من نوعين من العناصر أو الظواهر النفسية ، بعضها حسى والبعض الآخر معنوى ، وأنها فى العقل السليم أو الطبيعى تكون وحدة متماسكة تصل بين العقل والجسم . كما أن قسماً منها شعورى ، وقسماً كامن فيما وراء الشعور ، وقسماً مدفون فى جوف اللاشعور ، وإن ترويض النفس على التأمل الذاتى من شأنه أن يغذى القسم الشعورى من « المجموعة الذاتية » ، وينميه برفع قسط كبير من محتويات النفس الكامنة أو الباطنة إلى مرتبة الشعور ، وبذلك تقف الذات الشعورية أو « الأنا » على الكثير من أسرار النفس الباطنة بقسميها الشهوانى والروحانى ، واللذين مر بنا ذكرهما ، فتقوى فى « الأنا » ملكة المعرفة الذاتية ، وتسيطر ظاهرة الاعتداد بالذات على الحياة العقلية للفرد . غير أن هذا لا يستدعى أن يكون الشخص فى هذه الحالة متصفاً بالأثرة والأنانية حتما . كما أنه ليس من الحتم أن يكون كل شخص أنانى ، أو محب لذاته متصفاً بسعة المعرفة الذاتية وحب ترويض نفسه على التأملات الباطنة ، بل ربما كان الأمر على النقيض من ذلك فإن دراسة النفس البشرية عن طريق التأمل الذاتى ، وتقوية

الجانب الشعورى من شخصيته عن طريق استظهار مكنون النفس الباطنة وخباياتها الدفينة ، وفحصها على أشعة ملكة النقد النزيه ، أدعى إلى فهم طبيعة النفس على وجهها الصحيح وعدم الإغراق فى الاعتداد بها أو الإفراط فى حب الذات ، ولو أن قوة الشعور بالنفس من شأنه أن يقوى فى الشخص روح احترام الذات ، ويرفع من شأنها فى نظر نفسه ، فيحرص على عدم التفريط فى كرامتها أو تعريضها إلى ما فيه خدش اعتبارها بأية وسيلة . فإذا ما تغلب القسم الكامن أو المكنون من المركب الذاتى على القسم الشعورى ، فإن ذلك قد يؤدى إلى تقوية روح الغرور والكبرياء والإعجاب بالذات ، وإذا تغلب القسم الباطن أو الشعورى فإن ذلك من شأنه أن يقوى فى الشخص حب الذات والأنانية .

فاحترام النفس يمثل أسمى مظاهر وجدان « المركب الذاتى » القائم على سعة العلم بأسرار النفس ، بينما الكبر والغرور يمثلان نوعاً من الوجدان تنقصه المعرفة الصحيحة بحقيقة النفس . وأما الأنانية وحب الذات فيمثلان وجداناً تغلب عليه الروح الغريزية أو الشهوانية .

وإذا ما وجهنا النظر إلى مظاهر النزوع من غريزة الذات نجد أن أقوى مظاهره هو حب الحياة والمحافظة على النفس ، وهو يشمل مجموعة من الاستعدادات الغريزية التى ترمى إلى نفس هذه الغاية ، مثل غريزة الطعام وغريزة الهرب وغريزة الهجوم ، ثم يتلوها طائفة من الغرائز التى ترمى إلى انتشار « المجموعة الذاتية » وبسط سلطانها على البيئة التى تحيط بها إلى أقصى حدود طاقتها ، وإدماج كل ما تستطيع إدماجه فى شخصيتها من الموجودات .

فغريزة الاقتناء أو الادخار ، (ولعلها فى الأصل مشتقة من غريزة الطعام وما تفرع عنها من جمع القوت وادخاره) ، وكذا غريزة الإنشاء ترميان إلى تحقيق هذه الغاية .

فملابس الإنسان وأمتعته ومقتنياته وممتلكاته على اختلاف أنواعها تكون قسماً من مجموعته الذاتية ، بل قد تمتد حدود مملكة شخصيته إلى زوجه وأولاده وعشيرته ورفاقه ، غير أن غريزة الاقتناء محدودة المدى بقوانين المجتمع ، وإلا ما تأخر الفرد إذا ما توافرت لديه الوسائل عن بسط سلطانه على كل ما يحيط به من موجودات من أشخاص أو حيوانات أو جمادات ، ولعل هذه الرغبة المكبوتة بحكم روابط المجتمع وما له من حقوق قيدت حرية الفرد هي التي حملت فريقاً من الناس على إفناء حياتهم في جمع الثروة وادخارها بشتى الوسائل ، مضحين في سبيل ذلك بكل راحتهم وهنائهم ، وهم في هذا مسوقون بتلك النزعة الغريزية الدفينة في أعماق النفس ، والتي تعد من أقوى عوامل تركيز الثروة في طبقة خاصة ، مما أدى إلى ما يشاهده العالم وتئن منه الهيئة الاجتماعية من مظاهر الشحناء والنزاع المستحكم بين الرأسمالية والاشتراكية .

أما غريزة الإنشاء فترمى إلى نفس الغاية التي ترمى إليها غريزة الإقتناء ، وهي « انتشارات المجموعة الذاتية وتوسيع مدى نفوذها وسلطانها » ، فكل ما ينشئه الإنسان ويصنعه لنفسه يعتبره جزءاً ملحقاً بشخصه ، بل ربما كان أشد التصاقاً بشخصيته من مقتنياته ، سواء كانت منشئات مادية أو معنوية . غير أن غريزة الإنشاء تختلف من حيث علاقتها بالمجتمع عن غريزة الاقتناء ، إذ أن هذه فيها معنى الحد من الثروة العامة بينما غريزة الإنشاء لا ضرر منها على المجتمع (إلا في أحوال شاذة قد يساء فيها استعمال هذا الحق) بل ربما كان من شأنها إنماء الثروة الاجتماعية وزيادة الرفاهية العامة .

« والمركب الذاتي » يبدأ في النمو والانتشار منذ أول عهد الطفولة ويستمر في نمو مضطرد إلى حين الممات . ولكن قد يعترض الإنسان في الحياة من العقبات والصدمات ما يؤثر في هذا المركب تأثيراً بيناً ، يعوق نموه ونضوجه

فى مستقبل العمر ، وكلما كان الإنسان موفقاً فى الحياة إلى النجاح فى أعماله ومشروعاته ، كان ذلك أدعى إلى إكساب « مركبه الذاتى » قوة وصلابة ؛ وبذلك ينمو لديه وجدان احترام النفس وتقوى فيه روح تقديره لذاته وثقته بها ، و على النقيض من ذلك ، إذا ما كان نصيبه الفشل المتواصل ، فإنه يفقد روح الثقة بالنفس ، وربما أحدث الفشل فى النفس صدمة عنيفة تهتز لها أركان المركب الذاتى ، وتتفكك روابطه ، وأوصاله ، فتنحل عنه بعض جزئياته ؛ وتتكبت فى جوف اللاشعور ، فيضحى صاحبه مريض النفس ، ذا شخصية عاجزة بتراء ، يئن تحت عبء ما يسمى اصطلاحا : « بمركب الضعف أو النقص » « Inferiority Complex »

وللعلامة « ادلر Adler » آراء قيمة فيما يترتب على وجود بعض العيوب الطبيعية لدى بعض الأفراد من الأثر فى « المركب الذاتى » ، أثر تختلف نتائجه باختلاف الأشخاص والاستعدادات ، فإن هناك من الناس من كان وجود مثل هذا النقص لديهم سبباً فى تقوية روحهم المعنوية ، لدرجة رفعتهم إلى مرتبة عظماء الرجال ؛ فإنه يرى عن دموستين أبلغ خطباء اليونان فى القرن الرابع قبل الميلاد (٣٨٤ ق . م) أنه كان ألكن اللسان ، قصير النفس ، ضعيف الصوت ، فكان هذا الضعف الخلقى سبباً فى توجيه عنايته إلى هذه الناحية من حياته ، والعمل على تقويتها بالمران العنيف والمثابرة ؛ ويقال إنه كان يضع فى فمه قطعاً من (الصوان) ويصعد الجبل ويهبط منه مرات وهو يلهث بالكلام حتى يدمى لسانه ويصيبه فرط التعب ، ويقصد الشاطىء ليغالب الأمواج بارتفاع صوته ، فما لبث أن أصبح خطيباً مفوهاً خلب لب مواطنيه الأثينيين ببلاغته وفصاحته .

كما أن ليدفيج بتهوفن نابغة أوربا فى الموسيقى فى القرن الثامن عشر كان يشكو ضعفاً طبيعياً فى حاسة السمع ، حتى أنه كان فى أواخر سنى حياته مصاباً

بصمم تام ، ولم تكن هنالك من وسيلة للتخاطب معه إلا بالكتابة ، ومع هذا فإن أشهر مقطوعاته وألحانه الموسيقية ألفها خلال هذه الفترة .

ويرد العلامة « ادلر » نبوغ بعض مشاهير فن التصوير إلى ما كان يعانونه من ضعف فى حاسة البصر ، ويقول إن ضعف البنية والأعصاب قد يؤدى أحياناً إلى بروز شخصية قوية الروح والجسد .

وقد كان تيودور روزفلت ، رئيس الولايات المتحدة الأسبق ، معروفاً فى صباه بضعف متناه فى البنية والأعصاب ، ولكنه كان دائب الجهاد ضد ما وجده فى نفسه من نقص ، حتى أصبح من أمهر راكبى الخيل وأكبر غواة صيد الوحوش ، وفى النهاية كان من أصلب رجال السياسة عوداً وأقواهم شكيمة . وربما أتيحت للكثير منا فرصة مشاهدة هذه الظواهر فى حياتنا العملية ولو بشكل مصغر ، أليس لكل منا خبرة بما يكون عليه الأعمى أحياناً من دقة السمع واللمس أو الذكاء وقوة الذاكرة لدرجة تعوض عليه الشىء الكثير مما فقده عن طريق البصر ؟ فإن العلامة « ادلر » يرجع سبب ذلك إلى قانونه المعروف « بقانون التعادل النفسى » أو ناموس التكافؤ "The law of psychical compensation" .

غير أنه بجانب قانون التعويض والتكافؤ توجد أحوال أخرى قد يكون فيها مركب الضعف والانحطاط سبباً لشذوذ خُلُقى أو أعراض عصبية مرضية ، حيث يولد هذا النقص حالة شعور دائم بعدم الطمأنينة أو الثقة بالنفس ، وكثيراً ما تنشأ هذه الحالة منذ عهد الطفولة فتستأثر بذهن الطفل منذ نشأته الأولى فكرة العجز والانحطاط ووضع ذاته فى مستوى أحط من مستوى من هم حوله ، فتبسط هذه العقيدة سلطانها على مستقبل حياته العقلية بأسرها ، فيرى فى نفسه الضعف ويستحوذ عليه القلق أينما حل أو رحل . وهناك من المرضى من تتولد لديه ظاهرة استطلاع كل ما يحيط به ، وتلازمه نزعة استكشاف مواطىء

خطاه قبل كل خطوة يخطوها ، فيصبح ذا عقلية كثيرة التردد لا تستقر في حكمها على رأى ، مغرمة بالتفاصيل والجزئيات ، لا لعلة إلا مجرد حب التفاصيل .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الصفة هى أخص صفات رجل البحث العلمى ، وأنها إذا لم تصل بالنفس إلى درجة الإفراط والإغراق فى الشك والتردد ، تكون أعظم مؤهل من مؤهلات النجاح ، وهى من خير الأمثلة التى تبين لنا كيف أن بعض الظواهر المرضية للنفس يمكن تسخيرها فى تحقيق أسمى أغراض الحياة ، إذا ما وجهت توجيهاً صالحاً فى ميدان الحياة العملية .

وهناك من المصابين « بمركب الضعف أو النقص » من يستترون خلف مظهر كاذب من الاعتداد بالذات ، ويذهبون فيه إلى حد الإفراط والتعالى ، وما ذلك إلا بسبب تسلط شعور الضعف أو النقص على الذات تسلطاً مستديماً يدعوها إلى الاحتماء خلف الجانب المضاد ، هرباً مما يترتب على الشعور بالعيب من آلام والحزة للنفس .

فكثيراً ما نشاهد هذه الظاهرة فيما يبديه أحد الزوجين من الإفراط فى إظهار السلطة والاستبداد فى الرأى تجاه أتفه الأمور ، وترقب الهفوات وتجسيمها بقصد تحقير الطرف الآخر ، وانتهاز الفرص لامتهان كرامته أو التهكم به ، مما يكون الباعث عليه شعور بنقص أو بضعف دفين فى النفس يخشى ظهوره أو إفشاءه . وكثيراً ما تتجلى هذه الظاهرة فى بعض سلوك الحكام أو الرؤساء ، إذا ما آنسوا من أنفسهم ضعفاً أو نقصاً فى بعض النواحى ، يخشون من ورائه عدم احترام المرؤوسين ، فيستترون وراء مظهر من التفوق المزيف مشرب بروح الغطرسة والصلف والكبرياء ، والتعالى فى الاعتداد بالمظاهر الشكلية .

ومما تقدم يتضح لنا كيف أن التركيب النفسى الخاص بالعيب أو النقص قد يكون سبباً لمجموعة من النتائج المتباينة ، باختلاف الأشخاص والأمزجة والطبائع . فإنه كما قد يؤدى بفريق من الناس — ممن لا يؤهلهم مزاجهم الخاص أو استعدادهم إلى مواجهة الحقيقة ، وتحمل مرارتها — إلى طائفة من الأعراض النفسية أو الحالات العصبية ، فإنه بجانب ذلك قد يكون له أبلغ الأثر لدى بعض الأمزجة فى تكوين « مجموعة ذاتية » متماسكة التركيب ، متينة البناء ، قوية الشعور بالوحدة الذاتية ، وبإدراك المثل الأعلى للحياة ، بفضل ما أوتيت من شجاعة لمواجهة الحقيقة ، وبفضل استعدادها للكفاح وجهادها المتواصل فى سبيل التغلب على ما أدركته فى بعض عناصرها من ضعف أو نقص ، حتى خرجت من كفاحها ظافرة بما كانت تنشده من كمال .

الغريزة الاجتماعية

ليس فينا من يجهل ما فطرت عليه الطبيعة البشرية من حب الألفة والمعاشرة ، وما جبلت عليه النفس من ميل غريزى إلى الاندماج فى الجماعة ؛ فليس أشق على الإنسان من عيشة العزلة والانفصال عن المجتمع ، ولا أقسى على النفس من حياة الوحدة والانفراد .

ولعل هذا ما حدا بمعظم الهيئات الاجتماعية إلى اعتبار العزل عقوبة من أقسى العقوبات التى تفرضها على من يعبث من أفرادها بنظام الجماعة ، أو تحدثه النفس بالإخلال بقوانينها ، وتعكير صفو العلاقات التى تربط وحداتها وعناصرها المختلفة بعضها ببعض . وليست هذه الغريزة مقصورة على الجنس البشرى دون غيره من الكائنات الحية ، بل يشاطره فيها الكثير منها على اختلاف طبقاتها ومراتبها .

وربما كانت غريزة الاجتماع موروثة عن الخلية منذ عصر انتقالها من حياة العزلة والانفراد إلى حياة الجماعة ، حسبما مر بنا في المرحلة الثانية من مراحل التطور العرزي الخاصة بأدنى مراتب الأحياء المتعددة الخلايا .

وكما أن جسم الإنسان ونظام حياته الفردية أصبح يمثل أرقى وأسمى هيئة اجتماعية لبلايين الخلايا البشرية التي يتألف منها ذلك الجسم ، كذا الإنسان بدوره خرج من حياة العزلة التي كان يعيشها في العصور الأولى ، وسار في طريق الاندماج في الجماعة حاذياً حذو الخلية جدته الأولى في عالم الأحياء ليتم له ما تم لها ، ويصبح من جسم المجتمع البشري في أرقى مظاهره ، بمثابة الخلية من جسمه ، واضعاً نصب عينيه ذلك المثل الأعلى لنظام الجماعات ، المتمثل في بناء جسمه ونظام حياته العضوية .

فلو نظرنا إلى الحياة نظرة أعم تشمل النوع بأسره ، لا نظرة مقصورة على الفرد ، لما تعذر علينا أن ندرك أن المقصود بالحياة ، إنما هو النوع بأكمله ، وأن الفرد ما هو إلا مجرد وسيلة لا غاية في ذاته ، يأتي في هذه الحياة ليقوم بواجب معين نحو المجتمع ، تنقضي بانقضائه حياته ، لتحل مكانها حياة أخرى ، لتقوم بقسطها من تكاليف الحياة العامة ، ثم لا تلبث أن تخلفها حياة جديدة ، وهكذا نشاهد الفرد يفنى ويتلاشى بينما الجماعة باقية بقاء الجسم تجاه خلاياه المختلفة التي هي في تجدد دائم لا يستقر .

وليست غريزة الاجتماع قاصرة على مجرد ما انطبع في النفس من ميل فطري إلى الاندماج في وسط المجتمع ، بل تشمل ما في النفس من استعداد خاص لتلقي تعاليمه ، والتأثر بتقاليده وأساليبه ، على الرغم من كونها تحد من استقلاله وحريته .

فهمة الفرد نحو المجتمع لا تقف عند مجرد الانضمام إلى وحداته ، بل ترمى إلى غرض أسمى من هذا وهو الاندماج فيه ، ليكون منه جزءاً متمماً ووحدة لا تنفصل ، بحيث يصبح يتأثر بما يتأثر به المجتمع ، وينفعل بما ينفعل به ، يعتمد على المجتمع فى شؤون الحياة كما يعمل لصالحه المشترك ، وهو أمر يمكن أن يشاهد بوضوح لدى بعض أنواع الأحياء كالنمل والنحل والذئاب وغيرها من الأحياء التى قويت فيها غريزة الاجتماع أو القطيع ، والتى تعتمد فى حياتها على التعاون المشترك بين أفراد النوع ، والعمل لصالح واحد متحد ، وهو صالح ذلك الكائن الأكبر ، والوحدة العظمى التى تتألف منها الجماعة .

فإذا نظرنا إلى جفير النحل أو جماعات النمل نجد نظامها الاجتماعى بلغ من الإتقان حداً تلاشت معه شخصية أفرادها ، وفقدت كل مظاهر الاستقلال فى الحياة ، وأصبح الجمع منها كأنه وحدة متماسكة التركيب محكمة النظام ، بحيث لا يختلف فى مظهره عن مظاهر الكائن الحى المتعدد الخلايا ، تخضع وحداته لنظام تقسيم العمل كما خضعت خلايا الجسم له من قبل فى مراحل التطور فى العصور الأولى ، فأصبحت من جسم المجموع بمثابة الأعضاء المختلفة ، كل فئة أو فريق منها يقوم بمأمورية أو مهمة معينة تخصص للقيام بها على مر الأجيال ، حتى بلغت حد الإتقان .

فإناث النحل وذكورها وعمالها وملكاتها لكل منها مهمة خاصة تقوم بها على أساس التعاون المشترك لصالح الجماعة ، بحيث يتعذر العيش على كل فريق منها مستقلا عن الآخر ، كما أن جماعات النمل تذهب فى تنظيم حياتها الاجتماعية إلى حد تخصيص فريق منها بمهمة الدفاع عن المجتمع ، كما هو شأن الجيوش لدى أرقى الدول مدنية ونظاماً .

وإذا نظرنا إلى قطعان بعض الأحياء الأخرى من ذوات الثدى . التى لم يبلغ

التخصص لديها درجة تستحق الذكر ، نجد مع هذا أن حياة النوع لا تزال قائمة على نظام التعاون بين الجماعة لدرجة يتعذر معها العيش على الفرد منها منعزلا ، فقطعان الذئاب تعتمد فى تحصيل قوتها واقتناص فريستها على التعاون المشترك ؛ بحيث إذا انفصل بعض أفرادها أو ضل عن الجماعة هلك جوعاً ؟ وقطعان الظباء والخيل والبقر والإبل ، تعتمد فى الدفاع عن كيانها وصد هجمات الحيوانات المفترسة عنها على نظام الجماعة ، فمن حدثته النفس من أفرادها بالانفصال هالك لا محالة .

وإذا ما وجهنا النظر إلى نظام الجماعات لدى الإنسان ألفيناه أعظم شأناً وأكبر تعقيداً مما لدى غيره من الأحياء ، وكثيراً ما لجأ علماء الاجتماع إلى تشبيه الجماعات البشرية بالكائن الحى فى كثير من مظاهر الحياة العامة . فنظام التخصص وتقسيم العمل الذى يسود أعضاء الجسم وأجهزته المختلفة ، ونظام التعاون المشترك بين وحداته وجزئياته ، له نظيره فى حياة المجتمع ، ولو أنه لم يبلغ بعد ما بلغه نظام حياة الجسم من الدقة والإحكام ، كما أن التطابق لم يكن تاماً من جميع الوجوه ، فإنه حتى فى أشد نظم الهيئات الاجتماعية إحكاماً لا يزال الفرد يتمتع بقسط وافر من الحرية الذاتية ومظاهر الاستقلال ، مما لا نظير له فى خلايا الجسم أو أجهزته ، وهذا يرجع معظمه :

أولا — إلى كون نظام الجماعة لا يزال فى مراحله الأولى من مراحل التطور .

ثانيا — إلى أن الموقف الطبيعى للفرد بالنسبة للجماعة يختلف عن الخلية فى الجسم من حيث كونه وحدة غير ملتصقة بجسم المجتمع التصاقاً مادياً ، كما هى حال الأعضاء بالنسبة للجسم .

ثالثاً — إلى ما يتمتع به الفرد من أسمى مواهب التفكير وعدم اعتماده فى حياته الفردية على الغريزة المجردة كالخلية .

ومع هذا فإن بعض نظم الجماعات وصلت بوحداتها إلى درجة من التساند والتضافر ، بحيث أصبحت معها حياة العزلة والاستقلال مستحيلة على الفرد .

فاعتماد الفرد فى شؤون الحياة المختلفة على نظام الجماعة له أبلغ أثر فى عقليته ودمغها بطابع المجتمع ، فعليه أن يخضع لسلطان المجتمع ويلبى أوامره ويرضخ لنواهيه ، وإلا أقام بين شخصه وبين المجتمع الذى يعتمد عليه فى الكثير من أسباب راحته وهنائه سداً منيعاً ، وأصبح فى عزلة كالعضو المبتور من جسم الجماعة. وغريزة الاجتماع قوامها الصلات المتبادلة بين الفرد والبيئة الاجتماعية التى يعيش فيها ، فمن طريق هذه الصلات تتكون مظاهر المعرفة والتأثر والنزوع الخاصة بهذه الغريزة ، فمظاهر المعرفة يتمثل فى إدراك طبيعة المجتمع وما له من حقوق وواجبات ومظهر التأثر يتمثل فى وجدان الطمأنينة وما يسود حياة الفرد من هدوء فكر وراحة بال بوجوده وسط الجماعة ، وما يجده فى نفسه من عاطفة مشبعة بروح الألفة وحب المعاشرة .

أما مظاهر النزوع فيتمثل فيما يبديه الفرد من محاولات فى سبيل الاندماج جثمانياً وعقلياً فى جسم المجتمع وتلبية نداء دواعيه .

فغريزة الاجتماع تمثل جميع المظاهر الخاصة بالسلوك الغريزى ، من حيث كونه استعداداً إجتماعياً قائماً على نزعات وميول فطرية مصحوبة بروح الاجتماع أو حب العشرة والاندماج فى الجماعة .

ومن أخص مظاهر الروح الاجتماعية قابلية الفرد لاعتناق تعاليم المجتمع وعقائده ، والتأثر بعاداته وتقاليده ، فإذا وجد من بينها ما يتنافر مع العقل والمنطق فما أسرع عقله فى تبريرها بانتحال الأسباب والعلل الوهمية ، حتى تتم له بذلك راحته وطمأنينته فى خضوعه إلى تقاليد المجتمع .

فالآداب العامة برمتها وليدة نظام الجماعة ، وما نزول الفرد على احترامها إلا تلبية من جانب الفرد لنداء غريزة الاجتماع . وهذه الآداب تعد القانون الأول من قوانين الجماعة التي ترمى إلى تحديد صلات الفرد بالمجتمع ، وهي خاضعة كسواها من تقاليد المجتمع لناموس التطور وقانون الانتخاب الطبيعي القائم على بقاء الأصلح ، ولهذا كانت في جملتها ترمى إلى خير المجتمع ونفعه ، غير أن بعض اصطلاحات المجتمع قد يصبح بتقادم العهد وبحكم تغير الظروف عقيم النفع ، ومع هذا قد تستمر تجري مجرى التقاليد المرعية الاحترام حيناً من الدهر بفضل ناموس التصور الذاتي .

وليست مصطلحات الجماعة وما لها من تقاليد وآداب عامة وقفاً على الجماعات البشرية ، بل للأحياء الأخرى التي قويت فيها غريزة الاجتماع قسط منها يتفاوت بتفاوت روحها الاجتماعية ، فتتميز أفرادها عن سواها من أفراد سائر الأنواع الأخرى التي يؤثر أفرادها حياة التشتت والعزلة ، بنوع من السلوك المشبع بروح النظام .

فإذا نظرنا إلى سلوك كل من القط والكلب تجاه ذنب اقترفه ، فمع ما يبدو لنا من أن كلا منهما يخشى عقاب مولاه ، يشاهد أن الكلب بالنظر لسليقته الاجتماعية لم يعدم الشعور بالذنب ، فيقبل نحو مولاه الذي يعد في نظره رمزاً لقائد القطيع في خوف وخجل خافض الرأس ليتلقى جزاءه في خضوع واستسلام ، بينما القط يعمد إلى الفرار من وجه سيده ، لا يعترف له بأي حق في توقيع الجزاء ، مهما ارتكب من أخطاء واقترف من آثام ، وما ذلك إلا لكون القط ينتمي إلى فصيلة لم تقو لديها غريزة القطيع .

فخضوع الفرد لآداب المجتمع يعد من أقوى مظاهر غريزة الاجتماع .

والآداب الاصطلاحية فى أخص معانيها تختلف عن القوانين الوضعية من حيث الباعث على إطاعتها ؛ فالأولى مبعث احترامها والخضوع إليها يستند إلى دافع غريزى أو فطرى متأصل فى النفس ، بينما الباعث على إطاعة القوانين قد يكون فى غالب الأحيان مجرد الخوف من العقاب المستمد من غريزة الذات ، فكثيراً ما يخضع الفرد لأحكام قوانين يعدها فى نفسه جائرة أو ظالمة ، ولا يشعر تجاهها بعاطفة احترام ، خلا الاحترام الواجب نحو سلطة الدولة بصفة عامة ، وهو موقف قد يختلف عن موقفه تجاه آداب المجتمع ، التى يخضع لها تفاديا مما قد يساور نفسه من القلق وعدم الطمأنينة إذا لم يلب نداء ما يقوم بالنفس من نزعات ودوافع غريزية تدفعه إلى احترام نظام الجماعة وتقاليدها الخاصة ، بقطع النظر عن مطابقتها لمبادىء العدل والإنصاف .

وليس أدل على كون آداب المجتمع لا تقوم فى ذهن الفرد على أساس من العقل أو المنطق ، أو أن لها مساساً مباشراً بمبادىء العدل من اختلاف مظاهرها ووجوهها باختلاف الشعوب والجماعات ، كما أنها قد تختلف لدى الأمة الواحدة باختلاف الأزمان والعصور .

فما اصطلح عليه المجتمع من الآداب يعتبر فى نظر الفرد الذى تأصلت من نفسه روح الاجتماع واجباً مقدساً مفروضاً عليه احترامه :

ويتلو الآداب العامة التقاليد والمصطلحات العامة فى المسائل التى لا ينطوى على مخالفتها خدش للناموس العام المتعلق بالحياء والاعتبار ، ولكنها تتعلق بالسلوك وأساليب المعاملة ، وهى المعبر عنها أحياناً بآداب السلوك ، فهى أقل خطورة من تلك ، ومع هذا فإن سهولة انقياد الفرد وخضوعه لسلطانها يعد من خير الأدلة على ما لغريزة الاجتماع من الأثر البالغ فى نفسه .

ولم تقف تعاليم الجماعات فى بسط سلطانها على حياة الفرد من ناحية سلوكه ، وعلاقاته الخارجية فحسب ، بل تجاوزتها إلى صميم حياته العقلية الخاصة ، فشمل نفوذها عقائده وأفكاره فى مختلف ميادين التفكير والمعتقدات ، سواء أكانت دينية أم أخلاقية أم اجتماعية أم سياسية ، حتى لم يسلم من نفوذها ما كان من الأمور شديد الاتصال بشخصه ، كالفنون ، والعلوم ، والمبادئ الفلسفية .

فما يشاهد من جانب الفرد من التعصب لطائفة دينية معينة ، أو لحزب سياسي معين ، أو مذهب علمى أو اجتماعى ، أو مدرسة فنية ذات أسلوب خاص ، ما هو إلا مظاهر من مظاهر سلطة الجماعة وما لها من أثر بليغ فى عقلية الفرد

وكما أن غريزة الاجتماع من شأنها أن تحد من حرية الفرد وتقيد تصرفاته وأعماله بطائفة من الروادع والنواهى ، فإنها من الناحية الأخرى تتطلب منه القيام بمعاونة الجماعة ، والاشتراك معها فى مجموعة من الأعمال والواجبات التى تؤدى إلى رفاهية المجتمع وتوفير أسباب سعادته وراحته ، أو ترمى إلى حفظ كيانه والدفاع عن أمنه وسلامته ؛ فالوطنية الصادقة مظهر رائع من مظاهر غريزة الاجتماع يتجلى بأسمى صورة إذا ما أصبحت حياة الأمة مهددة بخطر داهم ، حيث ينفر أفرادها جماعات متراصة فى سبيل الدفاع عن كيانها ، فيبذل الفرد حياته بسخاء فداء للجماعة .

بل إن هناك من الأمم من لم تر ضرورة للالتجاء إلى نظام التجنيد الجبرى ، معتمدة على ما تأصل فى نفوس أفرادها من ميل فطرى إلى تلبية داعى الوطن إذا ما مست الحاجة .

ومما يجب لفت النظر إليه وجوب التفرقة بين موقف الفرد تجاه المجتمع كهيئة

الاجتماعية منظمة الوحدات ، وموقفه تجاه الجماهير أو الجماعات غير النظامية ، فإن لكل منها أثراً خاصاً فى عقلية الفرد

فالمجتمع يمثله فى نظر الفرد أية هيئة نظامية ينتمى إليها ، ويعد نفسه فرداً منها أو تربطه بها مصلحة مشتركة ، سواء كانت قاصرة على مجرد البيئة الاجتماعية التى يعيش فيها أو الهيئة التى ينتمى إليها تجارياً أو صناعياً ، أو الطبقة الاجتماعية التى ينتسب إليها ، أو الأمة التابع لها ، أو الهيئة الاجتماعية للجنس البشرى بأسره .

بينما الجمهور لا يمثل أكثر من تجمع عدد من الأفراد تحت تأثير دوافع أو تأثرات وقتية مشتركة ، فالكثير من مظاهر غريزة الاجتماع قد يتجلى بصورة واضحة عند التجمهر ، حيث تمثل الجماهير أصدق صورة لنظام الجماعات الأولى ، أو بعبارة أخرى هى مظاهر لحياة القطيع الذى يعيش على الغريزة المجردة فتصرف الجمهور عند التجمهر تنقصه الحكمة وحسن التدبير ، وذلك مما يجعله سلس القيادة وسلاحاً خطيراً فى يد الزعيم المدرب على قيادة الجماهير ، الذى يعرف كيف يملك زمام نزعاتها الغريزية الشاردة . فكل من أتيحت له فرصة الاندماج فى فوج ثائر من الجماهير لا يصعب عليه أن يدرك مبلغ ما لنزعاته الجامحة من قوة بأس وسلطان ، وما لها من أثر شديد فى النفوس يتملك الرشد ويستأثر باللب .

غير أن حياة الجمع المتجمهر قصيرة المدى ، وهى بالنسبة للفرد حياة عرضية ، بينما حياة المجتمع بالنسبة له حياة دائمة أو خالدة .

الغريزة الجنسية

إن كانت غريزة الذات مسئولة عن حياة الفرد ، وغريزة الاجتماع مسئولة عن حياة الجماعة ، فإن غريزة التناسل أو الغريزة الجنسية مسئولة عن حياة النوع بأسره ومستقبل سلالاته المتعاقبة . فقد عرفنا من دراسة التطور الغريزى أن الوراثة من أقوى عوامل التطور ، وأنه لولاها لما تسنى تجمع أية ثروة من التطورات لدى نوع من الأنواع .

ومن هذا يتبين لنا أن الغريزة التناسلية وهى سبيل الوراثة الوحيد ، وعامل من أهم عوامل التطور ، تتبوأ أسمى وأشرف مقام بين مجموعة الغرائز البشرية ، غير أنه بالرغم من ذلك يشاهد أنها الغريزة الوحيدة التى انفردت من بين مجموعة هذه الغرائز بصراع عنيف مع المجتمع بحكم التقاليد القومية والتعاليم الدينية والآداب العامة ، فاختصت بنصيب وافر من الاستنكار وعدم الإقرار لها بحق الظهور عارية فى ميدان حياتنا الشعورية ، فنالها بذلك أعظم قسط من الكبت وقوة الكبح مما لم يتوفر لدى غريزة أخرى ، فلجأت إلى جوف اللاشعور تنشد من قرارة النفس لها موطناً يطيب لها المقام فيه ، لتمثل دورها الخطير فى الحياة خلف الستار ، وهى بمعزل عن عين الرقيب ، وإذا ما حدثتها النفس بأن تنسم روح الحياة الشعورية ، فإنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا مقنعة فى ثوب مستعار ، ليتسنى لها الإفلات من قبضة ذلك الرقيب ؛ فمن أجل هذا أصبحت الغريزة الجنسية تؤلف أعظم مجموعة من المركبات النفسية المكبوتة فى العقل الباطن ، فكان لها أبلغ أثر فى حياتنا العقلية وفى تكييف الكثير من نزعاتنا وميولنا ، والسيطرة على أعمالنا الشعورية وتوجيهها على الرغم منا فى اتجاهات معينة نقوم بها مسوقين بدوافع قهرية خفية لا سبيل لنا إلى كشفها

أو الوقوف على حقيقتها إلا عن طريق التحليل النفسي ، بسبب ما أقيم بيننا وبينها من حواجز منيعة من قوة الكبت والمقاومة الباطنية .

ولعل هذا ما حدا بالعلامة « زجمند فرويد » وطائفة من أتباعه وأعوانه إلى التغالي في تقدير ما للغريزة الجنسية وما يصحبها من قوى نفسية ، أو شهوة غريزية مكبوتة ، من سلطان على حياتنا العقلية إلى حد نسبة معظم الظواهر العصبية والأمراض النفسية ، بل وأعظم طائفة من أعمالنا الطبيعية إلى نشاط الغريزة الجنسية المكبوت ، وتفسيرها بكونها مظهراً مقنعاً من مظاهر هذه الغريزة ووسيلة للإفصاح عما تضمره من نزعات أو رغبات مكبوتة في أعماق النفس .

فدراسة الطبيعة البشرية من الناحية الجنسية ، والوقوف على نزعات النفس وميولها الحقيقية ، يتطلب منا الالتجاء إلى وسائل التحليل النفسي وأساليبه المعروفة للولوج إلى جوف اللاشعور ، وهتك ما أسدل على طبيعة النفس من أستار ، وكشف ما يحيط بها من مخبآت وأسرار ، وتجريد النفس من ثوبها المزيف وردائها المستعار ، وفحص طبيعتها على أشعة ضوء العلم الصحيح .

ولكن قبل أن نلجأ إلى أساليب رجال التحليل وما أنتجته بحوثهم في هذا الميدان ، يحسن بنا أن نولي أنظارنا أولا شطر الغريزة الجنسية في أبسط مظاهرها ، ممثلة في أدنى الأحياء مرتبة ، ثم نتبعها في مراحل تطورها عسى أن يساعدنا ذلك على فهم شيء من أسرار النفس وحل بعض ألغازها ، فنمهد بذلك سبيل التوفيق بين النظريات الحديثة لرجال التحليل النفسي وبين عقولنا ، ونعدها لتقبل ما عساه يبدو لنا فيها من شذوذ أو غرابة بشيء من الحلم وسعة الصدر .

مراحل تطور الغريزة الجنسية

لقد عرفنا مما مر بنا أن حياة الجنين فى رحم أمه تمثل حياة النوع بأسره ومراحل تطوره المختلفة فى رحم الطبيعة ، وهو ما يعرف لدى علماء التطور « بنظرية التلخيص » The Theory of recapitulation ، وكما أن أجسادنا تضم الشىء الكثير من تراث أجدادنا وأسلافنا فى عالم الأحياء فى العصور الأولى ، كذلك حياتنا العقلية . فإذا نظرنا إلى « الأميبا » أدنى الأحياء مرتبة وتأملنا حياتها التناسلية نجد أنه لا أثر للتباين الجنسى بين أفرادها ، وأن كل خلية منها تحمل فى جوفها عوامل التناسل عن طريق الانقسام ، فحياتها التناسلية تتألف من مظهر واحد ثابت ، وهو انشطار نواة الخلية إلى قسمين يتلوه انقسام فى مادتها الزلالية ، كل قسم منها يختص بشطر من النواة ليكون خلية مستقلة بذاتها ، حتى إذا ما تم نموها ونضجت ، انقسمت بدورها كذلك ، وهكذا يتم لها التكاثر عن طريق الانقسام ، وهذه الظاهرة معروفة باسم Amitosis أو الانقسام المباشر .

فهذه المرحلة التى تعد من أولى مراحل الغريزة الجنسية تشمل أبسط مظهر من مظاهر هذه الغريزة ، حيث لا أثر فيها للتمييز بين ذكر أو أنثى من بين أفراد النوع الواحد ، بل كل فرد من أفراده يحمل فى جوفه عوامل التكاثر بالانقسام أو المقدرة الذاتية على التناسل ، وهى إحدى صور الغريزة الجنسية المعروفة « بالتناسل المفرد الذاتى Monosexual and autosexual act » فإذا تأملنا الغريزة التناسلية لدى بعض الأحياء الأرقى مرتبة من الأميبا مثل البراميسيوم paramoecium ، وهو من الأحياء المائية البسيطة التركيب التى تعيش فى البرك والمستنقعات ، لألفينا الحياة التناسلية لهذه الكائنات ذات مرحلتين كل منها تسودها ظاهرة خاصة

فى المرحلة الأولى من حياة هذا الكائن تتم عملية التناسل عن طريق ظاهرة الانقسام المباشر ، أعنى بانقسام فى النواة يتلوه انقسام فى المادة الزلالية ، وهى ظاهرة « تناسل ذاتى » كما هى الحال بالنسبة للأميبا ، فبعد أن تباشر عملية التكاثر والانتشار بهذه الوسيلة عدة دورات لا تلبث أن تستبدل بعملية التناسل الذاتى عملية تشبه عملية التلقيح أو التناسل المزدوج ، وذلك بانقسام النواة داخل جسم الحيوان ، وعوضاً عن انقسام ذلك الجسم ، فإن كل حيوان يقترب من حيوان آخر ويلصق فتحة فمه بفتحة فم زميله ، ويتداول كل منهما من الآخر نصفاً من نصفى نواته المنقسمة ، وبذلك تتم عملية التلقيح ، وبعد أن يمارس الكائن الحى عملية التناسل المزدوج هذه يعود مرة أخرى إلى التناسل الذاتى عن طريق الانقسام ، ولا يوجد أدنى فرق بين الحيوان فى كلتا المرحلتين ، كما أن التجانس بين جميع أفراد النوع تام لا أثر للتمييز بين ذكر وأنثى من بينها ، فكل نواة تحمل عناصر التذكير والتأنيث اللازمة للتلقيح ، وكل حيوان يجمع بين الصفتين ويقوم بوظيفة الجنسين . وهو ما يعبر عنه اصطلاحاً بازدواج الميل الجنسى Bisexuality .

فإذا ما صعدنا بمشاهداتنا إلى مرتبة الأحياء المتعددة الخلايا ، ووجهنا النظر إلى سلوك نوع من الأحياء المائية المعروفة باسم « الهيدرا Hydra » ، وهو كائن مستطيل الجسم ذو أهداب ، وجدناه يتكاثر « بالتناسل الذاتى » إما عن طريق تكوين خلايا تحمل عناصر التذكير فى جوفه ، وخلايا تحمل عناصر التأنيث ، وباتحاد هذين النوعين يتكون جنين الكائن الجديد ، ومن ذلك يتبين لنا أن الحياة التناسلية للهيدرا تجمع بين ظاهرتى التناسل الذاتى والتناسل المزدوج .

فإذا ارتقينا إلى مرتبة الحشرات والديدان وتأملنا حياة الدودة المعروفة

بدودة الطين لألفيناً كل واحدة منها تحمل أعضاء التذكير والتأنيث مجتمعة ، حيث يشاهد لدى كل منها خصيتان ومبيضان كاملا النمو ، وأن كل حشرة ، إنتاجها متوقف على تلقيحها من حشرة أخرى . فى هذه الأحياء تبدو ظاهرة الخنوثة واضحة مصحوبة بازدواج النزعة الجنسية .

ولما كان كل فرد منها يماثل باقى أفراد النوع والتجانس بينها تام ، فإن هذه الكائنات تعتبر أيضاً متصفة بنزعة الميل لذات الجنس .

فإذا ما استقصينا مراحل التطور ومراتب الأحياء المختلفة ، فإننا كلما صعدنا مرحلة بدت لنا بوادر التخصص والتميز بين الذكر والأنثى أشد جلاء ووضوحا ، فبنسبة ارتقاء الكائن الحى تكون درجة التخصص فى إحدى الصفتين ، ومن هذا يتضح لنا أن اختلاف الجنسين لدى أرقى مراتب الأحياء ، وعلى قمتها الإنسان لم يتم طفرة واحدة ، بل حصل تدرجياً على مر الأجيال وتعاقب العصور .

ومع هذا فإنه لا يزال كل فرد من أفراد أحد الجنسين يحمل آثار أعضاء الجنس الآخر على درجة من النمو تختلف باختلاف الأفراد ، حتى أنه فى بعض الحالات وبفضل « ناموس الرجعة Law of atavism » تتجلى ظاهرة الخنوثة بشكل صريح ، بأن تجتمع أعضاء التذكير والتأنيث لدى الفرد بصورة واضحة .

فكل ذكر يحمل ثديين أثريين ورحما أثريا ممثلا فى غدة البروستاتا (وهى غدة عند قاعدة المثانة ذات إفراز خاص بالعملية الجنسية) ، وكل أنثى تحمل عضو تذكير مصغر ممثل فيما يسمى « بالبظر الحساس » وتحمل خصيتين ممثلتين فى المبيضين ، وصفنا ممثلا فى الشفرين العظيمين .

وإذا نظرنا إلى حياة الجنين وتطوراته خلال حياته الرحمية نراه فى أول

مراحل نموه يجمع بين صفتي الذكورة والأنوثة ، حيث تكون أعضاء التناسل متماثلة لدى الذكر والأنثى ، ولا يبدأ التخصص والتميز بينهما إلا بعد انقضاء بضعة أسابيع رحمية .

الغريزة الجنسية فى عهد الطفولة

إن حياتنا العضوية كما تتمثل فيها مظاهر تطور الحياة الجنسية فى العصور الغابرة ، كذا حياتنا العقلية ، تتمثل فيها مجموعة النزعات المختلفة الخاصة بهذه الغريزة ، وقد جاءت بحوث رجال التحليل النفسى ونظرياتهم المستقاة من التجربة والمشاهدة مؤيدة هذه الحقيقة ، فهم يقولون إن الطفل يجىء إلى هذا العالم مزوداً بذخيرة وافرة من الشهوة الجنسية ، ولكنها فى مبدأ حياته تكون موجهة إلى ذاته ، فتسود نزعاته الجنسية ظاهرة « الميل الجنسى الذاتى Autosexuality » ، ولكنها تتخذ شكلا خاصاً يتناسب مع حياة الطفل وعدم نضوج جهازه التناسلى ، ويستدل عليها بما يشاهد فى الطفل على الرغم من امتلاء معدته من الانهماك فى مص حلمة الثدى ولو بعد نضوبه ، أو مص أصابع يديه أو قدميه ، أو مص حلمة صناعية ، وهو لا ينشد من وراء ذلك إشباع نهمه ، بل نوعاً من اللذة الجنسية الذاتية عن طريق الفم ؛ إذ يعتبر علماء التحليل الفم منطقة شهوة Erogenous Zone ، أعنى مثيرة للشهوة الجنسية ، وغالباً ما تنتهى عادة المص بالطفل إلى ممارسته العادة السرية والعبث بأعضاء التناسل ، فيقلق بال والديه بما يبدو عليه من ظواهر البلوغ الباكر ونشدان اللذة الجنسية عن طريق العادة السرية ، كما أن الشرج يعتبر أيضاً منطقة شهوة جنسية لدى الطفل ، وأنه كثيراً ما يمارس عادة حبس محتويات الأمعاء مدة أطول مما يلزم لكى تحدث حال مرورها بالشرج تهيجاً بالأغشية المخاطية يكون مصدراً لنوع من اللذة الجنسية يألفها الطفل ويسعى وراءها عن طريق حبس الإفرازات عمداً ، فيصاب الطفل

بأعراض الإمساك ، (ولعل هذا يفسر علة الإمساك لدى بعض عصبي المزاج) ، وكثيراً ما يلجأ الطفل إلى القيام بأعمال تبدو فى ظاهرها بريئة (وهذا من حسن حظ الوالدين حتى لا تضطرب خواطرهم وتتبلبل أفكارهم بغير مقتض) ولكنها فى الواقع ظواهر جنسية مقنعة ترتدى ثوباً مستعاراً .

ويقول علماء التحليل النفسى إن النزعات التى تبدو على الطفل كأنها شاذة ليست فى ذاتها أعراضا مرضية ، كما يظن لأول وهلة ، بل هى مرحلة طبيعية من مراحل تطور الغريزة الجنسية لدى الطفل ، فإذا لم يعالج كبتها بشىء من الحكمة المقترنة بوسائل التصعيد الصحيحة ، فإنها قد تنتهى بالطفل إلى أعراض مرضية ، أو عيوب خلقية قد يستعصى علاجها فيما بعد .

غير أن وسائل التصعيد مهما بلغت درجاتها ، فإنها لا تقوى على انتشال مجموعة الميول الفطرية المكبوتة برمتها من وهدة اللاشعور ، وإذاً لا مفر من بقاء قسط منها على طبيعته قد يرافق الطفل إلى حين بلوغه أشده ، ونضوج غريزته الجنسية .

وليست ظاهرة الميل الجنسى للذات مقصورة على الإنسان فحسب ، بل نشاهد أيضا لدى طائفة من ذوات الثدى كالكلاب ، والقردة ، والإبل ، والخيل وغيرها من الدواب : فالقردة كالطفلة من بنى الإنسان ، تضغط أعضاء تناسلها بين فخذيها ، وتعمد إلى فركها طلبا للذة الجنسية ، وقد تستخدم فى ذلك يدها أحياناً .

ومما تقدم يرى أن حياة الطفل الأولى تمثل من حيث نزعاته الجنسية أول مرحلة من مراحل تطور الغريزة الجنسية ، وهى ظاهرة « التناسل الذاتى التى مر ذكرها » ، وأن هذه المرحلة لا تلبث أن تتبعها المرحلة الثانية من حياة الطفل

وهى المرحلة التى تسودها ظاهرة الميل لذات الجنس Homosexuality ، (والمقصود بذلك ميل الذكر للذكر والأنثى للأنثى) ، ولا يصعب على من يرقب سلوك تلاميذ المدارس وعلى الأخص فى بلاد تسمح تقاليدها بالجمع بين الجنسين ذكوراً وإناثاً فى دار تعليم واحدة من تعصب أو تحزب واضح بين أفراد كل فريق من الفريقين ، وما يبدو إجمالا على كل منهما من مظاهر الاحتقار والازدراء تجاه الفريق الآخر مع ما يبديه من دلائل الصداقة والودة نحو الزملاء من أبناء الجنس الواحد ، وقد لا يقف الأمر عند حد الرابطة المعنوية ، بل قد يتعداه فى الحالات التى تفشل فيها وسائل الكبت والتصعيد إلى أمور وأفعال صريحة فى الدلالة على توفر الميل لذات الجنس ، مما لا يخفى على كل خبير بشؤون التلاميذ وميولهم الغريزية من كلا الجنسين ، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً .

ثم يتلو ذلك دور البلوغ أو النضوج الجنسى حيث يتحول القسم الأكبر من مجرى النشاط الغريزى نحو الجنس المضاد ، وبذلك تتغلب ظاهرة الميل لغير الجنس Heterosexuality ، ولو أن التحول مع هذا لا يكون مستغرقاً كامل النزعات الغريزية الأولية . سواء الخاصة بالميل لذات الجنس أو الخاصة بالميل الجنسى الذاتى ، بل يبقى قسط من هذه النزعات كأنه جزء متمم للمجموعة الجنسية ، ولو أنه فى الظروف الطبيعية أو الصحية ، يكون إما مكبوتاً فى اللاشعور أو مصعداً برفع هذه النزعات من مستوى الشهوة الجثمانية ، والتسامى بها إلى مرتبة المعنويات أو الشهوة العقلية ، فيتحول النشاط الغريزى الخاص بالميل لذات الجنس إلى صداقة أو محبة معنوية ، وتتحول النزعات الخاصة بالعشق الذاتى ، أو الميل الجنسى الموجه نحو الذات إلى حب تجميل النفس بالفضائل والمعنويات حبا مشفوعاً باحترام الذات وحب الفضيلة ، والاستعاضة عن الجمال الجثمانى بالجمال الروحانى .

ومما تقدم يتبين لنا أن للغريزة الجنسية مظاهر ثلاثة لكل منها مرحلة خاصة من مراحل نمو الطفل يتجلى فيها ذلك المظهر ، متخذة فى ظهورها نفس الترتيب الذي سلكته الغريزة الجنسية فى مراحل تطورها فى العصور الغابرة ، فحياة الطفل من الناحية النفسية ماهى إلا نموذج مصغر من حياة النوع بأسره ، وصورة تاريخية حية تمثـــــل تاريخ السلالات والأجيال المتعاقبة التى تطورت عنها النفس البشرية .

وقد رأى العلامة بوسفيلد أن يضع نسبة مئوية لكمية النشاط الغريزى الخاص بكل نزعة من هذه النزعات الجنسية الثلاث فى مراحل نمو الطفل ، وهو بطبيعة الحال لم يقصد بذلك إلا مجرد تقريب الأمر إلى الذهن من الناحية الدراسية ؛ ولم يرم بحال من الأحوال إلى اعتبارها مقياساً صادقاً للنزعات الجنسية ، إذ ليست لدينا وسيلة عملية تمكننا من قياس النشاط النفسانى الخاص بالنزعات الغريزية المختلفة والموازنة بين كمياتها أو مقاديرها ، هذا فضلا عن اختلافها باختلاف الأشخاص والظروف اختلافا كبيراً يتعذر معه وضع قاعدة يمكن الأخذ بها فى جميع الأحوال كمبدأ أو قانون ثابت ، وهذه النسبة نقلا عن كتابه «أصول علم النفس التحليلى والعملى» صفحة ٤١ كما يأتى :

المرحلة الأولى من مراحل نمو الطفل : — يكون فيها نشاطه الغريزى قاصراً على الميل الجنسى الذاتى أعنى بنسبة ١٠٠ ٪ .

المرحلة الثانية ، وهى حول دور المراهقة ؛ حيث يكون فيها نشاطه الغريزى موزعاً بين النزعات الغريزية الثلاث بالنسبة الآتية :

٤٠ ٪ ميل جنسى ذاتى Autosexuality .

٥٠ ٪ ميل لذات الجنس homosexuality .

١٠٪ ميل للجنس المضاد heterosexuality .

المرحلة الثالثة ، وهى الخاصة بدور البلوغ — تتكون فيها النسبة كما يأتى :

٢٠٪ ميل جنسى ذاتى .

٣٠٪ ميل لذات الجنس .

٥٠٪ ميل للجنس المضاد .

ويقول علماء التحليل النفسى إن كلا من هذه العناصر الثلاثة المكونة للنشاط الغريزى قد يكون نصيبه فى الحياة العملية واحداً من أمور أربعة :

أولا — إما الكبت مع التصعيد .

ثانياً — وإما كبت بغير تصعيد ، أو تصعيد أبتر وهو ما قد يؤدى بالنفس إلى أعراض مرضية وحالات عصبية ، أو إلى أعراض خلقية مع شذوذ وانحراف فى الميل الجنسى .

ثالثاً — وإما باستعاضة المثيرات الأهلية للنزعة الغريزية بأشياء أخرى تقوم مقامها ، وهو ما عبر عنه فنياً بالاستعاضة أو الاستبدال displacement .

رابعاً — وإما بتحقيق النزعات الغريزية عملياً بشكلها الصريح .

ويعبر علماء التحليل النفسى عن النزعة الجنسية أحياناً بالغرض الجنسى « أو الغاية الجنسية The sexual aim » وعن مثيرات النزعة أو الأشياء التى تحقق هذا الغرض بالشيء الجنسى The sexual object أو موضوع الشهوة ، ويمكننا مع بعض التسامح أن نسميه بالمطية أو الوسيلة .

فالميل الجنسى يكون ثابتا من حيث الغرض أو الغاية ، بمعنى أنه يظل محتفظا بمظهره كميل للجنس المضاد ، أو ميل لذات الجنس على الرغم من تغير المطية

واستبدالها بعملية أخرى ، كما لو كان الميل الجنسي موجهاً نحو شخص معين ، ثم استعيض عنه بشخص آخر في حالة الميل للجنس المضاد أو استبدال عضو بآخر من نفس الجسم تحقيقاً لغاية شهوانية ذاتية في حالة الميل الجنسي للذات ، ولكن إذا ما تحولت النزعة من ميل إلى الجنس المضاد إلى ميل لذات الجنس أو ميل إلى الذات كان الاستبدال هنا واقعا في نفس النزعة الجنسية أو الغاية كما يقولون .

فإذا صادف الطفل في دور من أدوار حياته ما يعيق تطور الميل الجنسي لديه والنمو الطبيعي للغريزة الجنسية ، فإن ذلك قد يؤدى به إلى توجيه تيار نشاطه الجنسي في أحد المسالك الأولية للغريزة الجنسية ، فتسيطر على حياته المستقبلة نزعة من النزعات الخاصة بعهد الطفولة ، وتسود حياته الجنسية أو تغلب عليه نزعة الميل لذات الجنس ، أو نزعة الميل الجنسي للذات .

وقد ينجح الفرد إلى حد ما في كبح جماح ما قد يجده في نفسه من ميول أو رغبات شاذة تتنافر مع التقاليد والآداب العامة ، ويجد من نفسه المقدرة على كبتها ما دام متمتعا بقسط وافر من قوة الإرادة والصحة .

ولكن إذا ما تعرضت أعصابه لوهن أو ضعف ، سواء بتأثير عاهة أو مرض أو بسبب الشيخوخة ، فإنه قد يعجز عن مقاومة الدوافع الباطنية أو الرغبات المكبوتة فيكتسح تيارها الحواجز البالية من قوة الكبت ، وتغلبه على أمره نزعاته الجنسية الأولى التي استأثرت به منذ عهد الطفولة ؛ وربما يفسر لنا ذلك ما يشاهد أحيانا من سلوك بعض الشيوخ من انحراف أو شذوذ في الميول الجنسية لدرجة تدعو إلى الغرابة والدهشة ، وتصرف لا يتفق مع ما يتطلبه مظهر الشيخوخة من رزانة ووقار ، فهي مؤثرات قديمة ترجع إلى عهد الطفولة ظلت كامنة في قرارة النفس تتحين الفرصة الملائمة للظهور ، واقتحام منطقة الكبت

والولوج منها إلى ميدان الشعور ، وما ذلك إلا لكونها كبتت كبتا مرضيا دون أن يمهد للنشاط الغريزى المكبوت سبيل التصعيد أو التحويل إلى أغراض أسمى كالاشتغال بالعلوم والفنون وما إليها .

ويقول رجال التحليل النفسى ، إن طائفة من أعمالنا وعاداتنا المألوفة ، والتى ليس فى ظاهرها أية مسحة جنسية ، ما هى إلا مظاهر مقنعة للنزعات الجنسية الأولية التى رافقتنا منذ عهد الطفولة ولا يزال أثرها منطبعا فى قرارة النفس ، فيقولون إن التدخين وشرب الخمر وعادة التقبيل الشائعة بين السيدات بصفة خاصة رمز لشهوة الفم المكبوتة ، لما فيها من معنى الرضاع أو المص عن طريق الشفتين .

وبالتأمل فى سلوك العشيقين ، ربما وجدنا فى مظاهره ما يعبر عن عاطفة الأمومة من جانب ، ونزعات الطفولة من الجانب الآخر ، حيث يكون للفم والثديين أعظم شأن فى تمثيل هذا الدور .

الغريزة الجنسية فى دور نضوجها

إن كثيراً من خصائص الغريزة الجنسية الناضجة وسلوك الزوجين قائم على مظاهر بيولوجية (خلقية) مستمدة من سلوك الجرثومة المنوية والبويضة البشرية ، وعلاقاتها من الناحية الجنسية .

فإذا درسنا سلوك كل من هاتين الجرثومتين تحت عدسة المجهر ، وجدنا بينهما تباينا واضحا فى الطباع والصفات ، فالحيوان المنوى صغير الجسم سريع الحركة شديد التأثر بما تفرزه البويضة البشرية من مواد كيماوية لها رائحة خاصة تجذبه إليها ، وحياته قصيرة ، إذ لا يحمل فى جوفه شيئا من العناصر المغذية ،

فإذا لم يقم بعملية التلقيح فإنه يموت لفوره ، أما البويضة البشرية فإنها أكبر حجماً وأبطأ حركة تفرز مادة كيماوية من شأنها اجتذاب الجرثومة المنوية إليها وهدايتها إلى مكان وجودها ويتقطع إفرازها بمجرد التلقيح ، وهى تحمل فى جوفها كمية من العناصر الغذائية لكى تعيش عليها البويضة الملقحة فترة من الزمن فى مبدأ حياتها الرحمية . ومن عادة البويضة البشرية ألا تسمح إلا بجرثومة منوية واحدة بالولوج إلى داخلها ، بالرغم من تجمع الكثير من هذه الجراثيم حولها ، وقد لوحظ أنها إذا ما خدرت بقطرة من الكحول أو الكلوروفورم ، فإنها تفقد هذه الخاصة وتسمح للكثير منها بالدخول إلى جوفها بغير حساب ، فكأنها متمتعة بنوع من الإرادة ، فما أعظم التشابه بين خصال هاتين الخليتين الصغيرتين وبين خصال الذكر والأنثى من حياة الفرد ، فإن الذكر سريع الحركة والنشاط يسعى فى طلب الأنثى ، حتى إذا ما تم له الاتصال بها انتهت مأموريته بالتلقيح ، بينما الأنثى تتخذ عادة من حيث الاتصال الجنسى موقفاً يكاد يكون سلبياً منحصراً فيما تقوم به من مجرد التجمل بما يجتذب إليها الذكر ، ولا تبدأ مهمتها الحقيقة إلا بعد التلقيح ، حيث ألقت الطبيعة على عاتقها أمر العناية بالجنين وتغذيته من دمها خلال حياته الرحمية ، ثم العناية بإرضاعه وتربيته بعد انفصاله .

فمهمة الذكر لدى معظم الأحياء الأقل مرتبة من الإنسان تنتهى حيث تبدأ مهمة الأنثى .

غير أن الحال ليست كذلك لدى الإنسان وأرقى مراتب الحيوان ، فإنه بالنظر إلى خطورة مهمة الأنثى وما يترتب على الحمل والوضع والنفاس من شل حركتها وعجزها عن تحصيل القوت ، أصبح التعاون بين الذكر والأنثى أمراً تقضى به الضرورة ، إذ أن الذكر بحكم طبيعة وظيفته الجنسية يكون حراً طليقاً بمجرد قيامه بمهمة التلقيح ، ولهذا ألقى عليه عبء تحصيل القوت للأنثى والنتاج

وتربيته ، ومن ثم نشأت صلات الزوجية ، وتوطدت دعائم الأسرة والروابط العائلية لدى الجنس البشرى ، وأصبحت مهمة الزوجين قائمة على التعاون المتواصل بينهما فى العناية بالنسل وتربيته وتعليمه والسهر على مصالحه ، وتوفير أسباب راحته وهنائه .

ومما تقدم ، يتضح أن الغريزة التناسلية لدى الذكر كانت أصلا مقصورة على مهمة التلقيح ، ولكنها أصبحت بالنسبة للإنسان تشمل بجانب ذلك علاقات الزوجية وما بين الزوجين من روابط وصلات معنوية ، كما تشمل أيضاً الروابط العائلية الخاصة بالأولاد وتربية النسل ، ولذلك تفرعت عن هذه الغريزة ثلاث غرائز فرعية أو مجاميع صغرى :

الأولى — خاصة بالاتصال الجثمانى أو الميل الجنسى فى أخص معانيه .

والثانية — خاصة بالعاطفة الروحية المتبادلة بين الرجل والمرأة ، أى الحب المعنوى .

والثالثة — خاصة بالحب العائلى أو عاطفة الشفقة والحنان الموجهة نحو الأولاد خاصة وسائر أفراد الأسرة بصفة عامة .

ويمكننا أن نطلق على المجموعة الأولى اسم : « مركب القران الجنسى » The Physical Sexual Sub-Complex ، والثانية « مركب الحب المعنوى » The Ideal Sexual Sub-Complex ، والثالثة « مركب الحب العائلى » Domicile Sexual Sub-Complex أعنى أن المجموعة الجنسية الكبرى تشمل الحب الشهوانى والحب المعنوى أو العذرى والحب العائلى[١] . فالحياة

---

(١) ولعل هذا يفسر لنا قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم =

الزوجية الموفقة هي التي تجمع بين هذه المركبات الثلاثة من مظاهر الحياة الجنسية . غير أنه كثيراً ما يتفق في الحياة العملية ، ألا يجد أحد الزوجين أو كلاهما في الزوج الآخر ما يحقق أغراضه الجنسية من هذه النواحي الثلاث مجتمعة ؛ فإن اجتماع عناصر المجموعة الجنسية الكبرى في حياة الزوجين ليست بشرط لازم ، فقد يكون أحد الزوجين في حياته الزوجية غير متمتع بالزوج الآخر من الناحية الجثمانية أي الشهوانية لسبب من الأسباب .

ومع هذا قد تبقى عاطفة الحب المعنوى وكذا الحب العائلي ، كل منهما قائم بين الزوجين ؛ أو قد يكون الحب المعنوى هو المفقود مع توفر الحب الشهوى والحب العائلي ؛ وقد تكون كل من العاطفتين الشهوانية والمعنوية مفقودة ، ولم يبق من مركبات المجموعة الجنسية سوى الحب العائلي ؛ وربما كان الأمر بالعكس ، أعنى أن يكون المركب العائلي مفقوداً بسبب عقم أحد الزوجين مع توفر مظهرى الحب الجثمانى والحب المعنوى .

وأن عدم توافر عناصر المجموعة الجنسية الكبرى في حياة الزوجين قد يؤدي إلى انفصال العنصر أو المركب الناقص منها وكبته ، ثم السعي وراء

= أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، وإن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وقد وافقني فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ أحمد إبراهيم بك رحمه الله على هذا التفسير . إذ ذكر في مقال له نشر بمجلة الشبان المسلمين (عدد ٢٠ يونيه سنة ١٩٤١) تحت عنوان « جامع أحكام المرأة في الشرع الإسلامي » تعليقاً على الآية الشريفة المتقدمة ما نصه : « يسكن الزوج إلى زوجته في العلاقة الجسمية ، وتكون بينهما المودة في العلاقة الروحية ، ويكون من كل منهما رحمة على الأولاد المشتركين بينهما . فإذا اجتمعت هذه الخلال الثلاث في الزواج بين اثنين فأي نعمة في العلاقة الجنسية تكون أعظم من هذه النعمة » .

تحقيقه وتكملته خارج الحياة الزوجيـة ، وهو ما يسمى segregation ، أى « الانعزال » ، غير أن الكبت إذا لم يكن موفقاً أو غير مقترن بوسائل التصعيد فإنه قد يؤدى إلى أعراض عصبية من النوع المعروف بالقلق العصبى Anxiety neurosis المترتب على عدم إرواء ظمأ الغريزة الجنسية من ناحية من نواحيها الثلاث ، سواء كانت متعلقة بالشهوة الجثمانية أو الحب المعنوى ، أو العاطفة الوالدية . فقد يتفق للزوجين الجمع فى حياتهما الزوجية بين عاطفتى الحب المعنوى والحب الجثمانى ، مع حرمانهما من الأولاد ، فيساورهما أو أحدهما القلق ، ويسود حياتهما الزوجية شعور بعدم الطمأنينة والحيرة وتبلبل الفكر ، مما قد يدفع بكثير من الناس إلى الالتجاء إلى وسيلة « الاستعاضة » Displacement تفادياً من الأعراض العصبية المترتبة على شدة الكبت ، بالسعى وراء أغراض مصطنعة فى سبيل إرضاء هذه العاطفة وتكلف الوسائل لتحقيق بعض نزعاتها : فيلجأ بعض الناس إلى تبنى أبناء الغير ، ويحولون عاطفة الحب والحنان الوالدى إلى عناية بشؤون النسل المستعار ، كما أن البعض قد يجد نوعاً من الترضية فى تربية بعض الحيوانات كالكلاب والقطط وبعض أنواع الطيور ، غير أن بعض الناس قد يوفقون إلى تصعيد عواطفهم ونزعاتهم المكبوتة الخاصة بالغريزة الوالدية بتحويلها إلى خدمات عامة موجهة نحو أبناء الوطن ، ورصد جزء من نشاطهم الغريزى على أعمال البر والإحسان ، كالعناية بتربية الأطفال وتعليمهم ، أو مواساة الضعفاء والمرضى ، وبإنشاء المدارس والملاجىء والمستشفيات .

فمثل هؤلاء الأشخاص عادة يدمجون شخصيتهم فى شخصية المجتمع ، ثم يحولون ما تكنه صدورهم من عواطف الشفقة والحنان الأبوى إلى أبناء الأمة كما لو كانوا أبناءهم ، ولذلك يجدون أكبر وسيلة لإرواء ظمأ هذه النزعة الغريزية ، كما أن فيها من ناحية أخرى ترضية للنزعة الاجتماعية ، وربما كان المغرور

له سعد زغلول باشا من خير الأمثلة لتصعيد العاطفة الوالدية التي حرم منها في حياته الزوجية ، بحولها إلى خدمة عامة موجهة نحو أبناء الوطن .

وإذا تأملنا بعض العبارات التي كانت تبدو منه في خطبه أو أحاديثه ، قد نجد من بينها ما يشف عن ظاهرة إدماج شخصيته في شخصية الأمة ، واتخاذه الأربعة عشر مليوناً من أبناء الوطن كأولاده ، وربما كان حرمانه من النسل من أقوى العوامل التي ساعدت على تفرغه لمهمة الزعامة ، ونجاحه فيها بتوجيه تيار النشاط النفساني الخاص بالغريزة الوالدية نحو أبناء الوطن ، وحصره في هذا المجرى دون سواه .

وإذا شعر أحد الزوجين من نفسه بفتور في عاطفة الحب المعنوى نحو الزوج الآخر ، فقد يحول هذه العاطفة نحو الأولاد ، فيزداد شغفه بهم ويجاوز الحد في العطف عليهم ، مما يترتب عليه تدليلهم وإفساد طباعهم ، وقد تتحول هذه العاطفة إلى شغف بالوالدين أو أحدهما ، كما أنها قد تمتد إلى غيرها من الأهل والأقارب أو الأصدقاء .

وقد يوفق المرء في تصعيد نزعة الحب المعنوى بتحويلها إلى ولع ببعض الفنون أو العلوم ، فتهواها النفس ، وتهيم بها لدرجة لا تقل عن ولع المرء بمعشوقته ، وتلهيه عن كثير من شؤون الحياة ، فيصبح الفن الجميل أو العلم لدى النفس رمزاً معنوياً للمعشوقة المفتقدة .

وهناك من الناس ، من استطاع تصعيد النشـــاط الغريزى للمجموعة الجنسية الكبرى بمركباتها الثلاثة ، من عالم الحس والمادة إلى عالم الفكر والمعنى ، غير أن المرء مهما بالغ أو أمعن في وسائل التسامي لا يستطيع تصعيد كل قطرة من ينبوع النشاط الغريزى إلى سماء المعنويات ، بل لابد من بقاء كمية من

ذلك النشاط على الفطرة تلتمس لها مخرجا طبيعيا من حين لآخر ، فالتصعيد الكامل يكاد يكون فى حكم العدم .

ولعل حياة كل من أبى العلاء المعرى وليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci (العالم والمصور الإيطالى الشهير) ونابغة الفن الموسيقى « بتهوفن » من أبرز الأمثلة فى الحياة على مبلغ ما وصلت إليه جهود البشر فى وسائل التصعيد والتسامى بالغريزة الجنسية ، ورفعها من مستوى الشهوة البهيمية أو المادية إلى سماء الفلسفة والعلم والفن . حتى أن أبا العلاء بالغ فى التفانى فى تصعيد غريزته الجنسية إلى درجة إنكارها على نفسه إنكاراً تاماً مقترناً بمقت النساء ، وقد أصدر على الزواج والتناسل حكماً قاسياً ، بأن أوصى عند مماته أن يكتب على قبره بيته المشهور :

هذا جناه أبى علىّ   وما جنيت على أحد

وقد آثر فى الحياة الاشتغال بالفلسفة والشعر على حب النساء . فكان نصيبه من غرامه المعنوى الإنتاج الفكرى وتخليد الذكرى الأدبية عوضاً عن الإنتاج الجثمانى وتخليد الذكرى المادية عن طريق النسل .

وإنه لمن دواعى الحيرة علة اتجاه بعض الأفراد إلى تصعيد غرائزهم الفطرية ، وتوفيقهم فى ذلك دون البعض . وربما كان للاستعداد الطبيعى أو ظروف البيئة أو بعض الاعتبارات الشخصية دخل كبير فى هذا التوجيه . إذ ليس من المستبعد أن يكون ما أصيب به أبو العلاء من فقد الإبصار فى طفولته على أثر إصابته بالجدرى . وما أحدثه هذا المرض فى وجهه من تشويه ، من أهم العوامل التى صرفته عن النساء والزواج وحملته على أن يولى وجهه شطر عالم المعنى . ملتمساً من مماته زواجاً روحياً يحقق للنفس ما ضاع عليها من إنتاج مادى عن طريق الزواج بخلود معنوى عن طريق الإنتاج العقلى .

ومما يروى عن « بتهوفن » أنه كان دميم الخلقة ، ولم يكن فى حياته الجنسية موفقاً مع النساء . وقد أصيب فى حبه بصدمات صرفته عن الزواج ودعته إلى كبت هذه العاطفة القوية فى نفسه . ثم الاتجاه إلى تصعيدها بتحويلها إلى غرام وولع بفن الموسيقى . فحصر كل جهوده الحيوية ونشاطه الغريزى فى الاشتغال بهذا الفن الجميل الذى اتخذه رمزاً للزوجة الصالحة التى كان ينشد إخلاصها .

فمن ضمن مؤلفاته الموسيقية المشهورة الأوبرا المسماة « فيدليو Fidelio » التى أودعها ما كان ينشده من عواطف الإخلاص التى افتقدها فى المرأة خلال حياته العملية . فجاءت أصدق صورة للتعبير عن هذه العاطفة المكبوتة فى نفسه . ولم يكن بتهوفن يجهل أنه حين وضع ألاحينه كان يعبر عن نزعاته الغريزية المكظومة ، فمن أحاديثه المأثورة العبارة الآتية[1] :

« Why do I write? What I have in my heart must come out; and that is why I compose »

وترجمتها حرفيا : « لماذا أكتب ؟ إن ما يكنه فؤادى لابد أن يجد له فى الحياة مخرجا . وهذا هو السر الذى دفعنى إلى التأليف » . فقوله : « ما يكنه فؤادى» يعبر عن نزعاته المكبوتة وقوله « لابد أن يجد له فى الحياة مخرجا » يعبر عن ظاهرة التصعيد . وقد وجد بتهوفن فى اشتغاله بالموسيقى أعظم قسط من الترضية النفسية . وأنبل وسيلة لإرواء ظمأ العاطفة الجنسية المكبوتة من نواحيها الثلاث .

فإن النشاط الجثمانى والجهود العضلى المنصرف فى مزاولة الإيقاع يمثل

---

(١) هذه العبارة نقلا عن كتاب Beethoven تأليف Romain Rolland المترجم إلى الإنجليزية بمعرفة B. Constance Hull ص ٢ تحت باب خواطر موسيقية .

المظهر الجثمانى من الغريزة الجنسية . والهيام والشغف بالفن يمثل عاطفة الحب المعنوى . والتلحين والتأليف يمثل الناحية الخاصة بالنسل والإنتاج .

فما لا جدال فيه أن هناك اتصالا وثيقا بين الإنتاج الجثمانى (أعنى النسل) وبين الإنتاج الفكرى من الناحيتين المعنوية والمادية ، فما بينهما من ناحية معنوية يتمثل فيما ينطوى عليه التأليف والاختراع من معنى الإنتاج مع تخليد الذكر . فكما أن النسل استمرار للحياة فى صورة أخرى من الناحية المادية ، فإن الإنتاج الفكرى استمرار للحياة المعنوية فى صورة خالدة . بل ربما كان أبلغ أثراً فى فى الاحتفاظ بالذكرى وخلود النفس المعنوى من الإنتاج المادى ، فهو من هذه الناحية يحقق نزعة غريزة حب البقاء فى صورة أسمى ، وأما ما بينهما من صلة مادية فيستند إلى ما دلت عليه التجربة والمشاهدة ، ومن أن الإنتاج العقلى يكون محسوبا على الإنتاج الجثمانى ، وأن الأشخاص كثيرى الاشتغال بالأمور العقلية والفكرية ، هم غالبا أقل شغفا بالشئون الجنسية ، وأقل استعداداً لكثرة النسل من عامة الناس ؛ ومن المشاهد أن الإجهاد العقلى له تأثير محسوس فى الطاقة الجنسية .

أما إذا تعذرت على المرء وسائل التصعيد ، أو كانت التصعيد ناقصا أبتر ، فإنه قد يلجأ فى هذه الحالة إلى وسائل الاستعاضة ، فإن كان أحد الزوجين غير موفق فى حياته الزوجية من ناحية الحب المعنوى ، فإنه قد يتخذ له خليلا من الجنس المضاد يعوض عليه هذا النقص ، وقد يصادف أن يتخذ الرجل له خليلتين : إحداها لإرواء ظمأ الشهوة الجثمانية ؛ والثانية لإرواء ظمأ عاطفة الحب العذرى ، أى المعنوى .

وقد تقف العاطفة الجنسية لدى بعض الأفراد تحت تأثير اعتبارات خاصة ،

أو تساطه عقيدة أو فكرة معينة ، أو الظروف قاهرة عند حد الحب المعنوى مع كبت الشهوة الجسمانية، هى والعاطفة العائلية، وتحويل نشاطهما الغريزى إلى مجرى الهوى العذرى دون سواه .

وكثيراً ما تبدأ الحياة الجنسية بنوع من ذلك الحب ، ولكنها لا تلبث أن تنتهى بطغيان العواطف المكبوتة على الحواجز والاعتبارات التى صدت مجراها حيناً من الزمن ، فضلا عن أن إيقاظ عاطفة من العواطف الجنسية من شأنه أن يؤدى إلى إيقاظ العاطفتين الأخريين ، نظراً لما بين عناصر المجموعة الغريزية الكبرى من اتصال وثيق ولما يوجد فى النفس من ميل فطرى إلى الجمع بينهما فى ميدان واحد .

وقد يوفق بعض الأفراد عند انعدام وسائل تحقيق النزعات الجنسية من الناحية الجثمانية أو الشهوانية ، إلى تصعيد قسط وافر منها بمجهودات جثمانية تكون بريئة فى ذاتها من النزعة الجنسية كالاشتغال بالألعاب الرياضية ، أو بفن من الفنون التى تستنفد من الإنسان نشاطا عضليا أو جثمانيا .

وقد يلجأ بعض الناس إلى تصريف هذا النشاط بوسائل مصطلح عليها فى بعض المجتمعات ، ولكنها ليست فى ذاتها بريئة من العاطفة الجنسية الجثمانية كالرقص المزدوج أو المفرد ، وبالأخص ما كان منه يتخلله نوع من الحركات البدنية قريبة الشبه بالعملية الجنسية ولو بصورة مقنعة .

كما أن من يتأمل بعض المعزوفات الموسيقية الراقصة قد لا يصعب عليه أن يدرك ما يتخلل ألحانها وطريقة عزفها ونظام إيقاعها من ابتدائه بدقات متماوجة الحركة ، يعقبه ترادف فى الإيقاع يزداد بالتدريج سرعة وحماسا ، حتى ينتهى بهزات عنيفة سريعة تشبه الهزات العصبية للعملية الجنسية فى نهايتها .

فمثل هذا الضرب من الرياضة يصعب أن نعتبره تصعيداً بالمعنى الصحيح ، فهو إلى الاستبدال والاستعاضة أقرب منه إلى التصعيد ، لأنه لم يرق بالعاطفة إلى مرتبة المعنويات .

مما تقدم يتضح أن المركبات الجنسية الفرعية التي تتألف منها الغريزة الجنسية لا يشترط اجتماعها فى الحياة الزوجية ، بل كثيراً ما يتعذر اجتماعها كاملة نظراً لما يكون عليه الزوجان غالباً من تباين فى الأمزجة والاستعدادات الجثمانية والعقلية واختلاف فى النزعات ، مما يؤدى بهما أو بأحدهما إلى كبت مركب أو أكثر من المركبات الثلاثة الفرعية الخاصة بالغريزة الجنسية ، فإن كان المكبوت مرضيا كانت نتيجته القلق العصبى غالباً ، وهو عرض من الأعراض النفسية المتفشية بين الطبقات الراقية ، وبصفة خاصة بين السيدات والأفراد الذين بحكم مركزهم الاجتماعى أو الأدبى يتعذر عليهم إرضاء النزعات الغريزية المكبوتة بوسائل غير مشروعة .

ومما هو جدير بالذكر أن الإخلاص والحب بالنسبة للحياة الزوجية ليسا مترادفين فى المعنى ، فاجتماعهما ليس شرطا لازماً ، فقد يوجد أحدهما دون الآخر ، إذ الإخلاص سجية متوقفة على التربية المكتسبة وهى مستمدة من الـ « أنا العليا » ، بينما الحب عاطفة فطرية لشهوة غريزية مستمدة من النفس ذات الشهوة أو « هى » ؛ فقد تكون الزوجة مخلصة فى حياتها الزوجية حريصة على القيام بواجباتها كزوجة وما يتطلبه مركزها الاجتماعى من عفة وأمانة ، دون أن تشعر من نفسها بعاطفة الحب الجنسى ، سواء أكان شهويا أم معنويا نحو زوجها .

وربما كانت ظواهر الإخلاص المجـــرد عن الحب أكثر شيوعاً بين السيدات منها بين الرجال ، بالنظر إلى مركز المرأة من الناحية الاجتماعية وخضوعها لأحكام التقاليد ومقتضيات البيئة .

وحوادث الحب المجرد عن الإخلاص أكثر وقوعاً بين الرجال ، فكثيراً ما يتفق أن يكون الرجل محباً لمرأة ولكنه غير مقتصر عليها فى علاقاته الجنسية ، إذ الرجل بطبيعته ميال لتعدد الزوجات ، ولكن تقاليد المجتمع هى التى تلجئه إلى عدم المجاهرة بهذه النزعة الفطرية ، فيلجأ إلى كبتها قسراً بحكم الظروف القاهرة ، أو يسعى إلى تحقيقها عن طريق التعدد المشروع ، إذا كانت شريعة بلاده تسمح بذلك ، أو بالالتجاء إلى وسائل غير مشروعة يقوم بها ولو فى طى الخفاء . أما إذا تعذرت عليه وسائل تحقيق هذه الرغبة سراً أو جهراً ، وعزت عليه سبل التصعيد ، فإنه قد يكون عرضة لأعراض القلق العصبى أو غيره من الظواهر النفسية المرضية ، كما سنرى عند التكلم على الأمراض العصبية .

نظرية فرويد فى الامراض العصبية

إن المقصود بالأمراض العصبية هنا هى الأمراض الناشئة عن اختلال فى وظائف المجموع العصبي ، دون أن يكون مصدرها علة عضوية ، أو عاهة تصيب الجسم أو أحد أجهزته المختلفة ، بما فيها الجهاز العصبي نفسه كالجروح والضربات والقرح والأورام والتمزقات ، التى تصيب جوهر المخ أو النخاع أو غيرها من أنسجة المجموع العصبي ، وإن كانت بطبيعتها قد تؤدى إلى اختلال فى وظائف هذا المجموع ، لكنها لا تعد أمراضاً عصبية بالمعنى الأخص ، كذلك بعض الأمراض المكروبية التى تفرز سموماً تؤثر فى وظيفة الجهاز العصبي ، والتى مثلها مثل الجواهر السامة والمخدرات لا تدخل ضمن دائرة نطاق بحثنا ، الذى هو مقصور على دراسة مجموعة من الأمراض الوظيفية المجردة المعروفة باسم Functi nal diseases (١) .

وإلى عهد غير بعيد كانت طائفة من الأمراض العصبية التى ترجع الى علة عضوية معدودة ضمن زمرة الأمراض العصبية ، كالأمراض الناشئة عن اختلال فى وظائف الغدد الصماء مثل مرض بزدو « basedaw » المعروف بمرض جحوظ المقلتين « Ex-ophthalmic goitre » الناشيء عن خلل فى وظيفة الغدة الدرقية ، والمرض التشنجى المعروف باسم تتنى Tetany الناشيء عن استئصال الغدتين المجاورتين للدرقية Parathyroid ، أو الأمراض الناشئة عن علة مكروبية كالمرض المعروف باسم الرقص السنجى « Chorea » أو رقص سنت فيتس St. Vitus dance ، غير أن هذه الأمراض وأمثالها أخرجت من حظيرة الأمراض العصبية بالمعنى الصحيح بعد أن ثبت بالدليل القاطع أنها ترجع الى أسباب عضوية ، وبذلك ضاقت دائرة الأمراض العصبية حتى

---

(١) وجدير بها أن تسمى أمراضاً نفسية لا عصبية لأن الأعصاب بريئة من المرض وأن المريض هو النفس ، ولكن هكذا جرى العرف .

أصبحت مقصورة على مجموعة الأمراض الوظيفية المجردة ، مثل « النوراستانيا (الضعف العصبي) Neurasthenia » و « الهستريا (الاضطراب النفساني) Hysteria » ؛ والظواهر العصبية القهرية Compulsions ، أو « الفكرة المتسلطة Obsession » .

وإن ميدان أبحاث العلامة فرويد يشمل بجانب هذه الأمراض طائفة من الاضطرابات النفسية الأخرى ، مثل مرض العقائد الوهمية المعروفة باسم « البارانويا Paranoia » ، والاختلاطات الفكرية والهذيانات الحادة Acute hallucinatory Confusion وما إليها .

وطبقاً لنظرية فرويد يجدر بالأمراض العصبية أن تسمى أمراضاً عصبية جنسية Sexual Neurosis ، مراعاة لكونها تحمل دائماً طابع الغريزة الجنسية معها ، وأن السبب الأساسي فيها يرجع إلى عوامل نفسية لها اتصال وثيق بهذه الغريزة .

وقد قام فرويد في ميدان بحثه الأمراض العصبية بمجهودها الخاص بتقسيم على أعظم جانب من الدقة والأهمية من الناحيتين العلمية والعملية ، حيث توصل عن طريق البحث العملي الناضج إلى أن يستخلص من ظاهرة النوراستانيا المبهمة ظاهرتين مختلفتين اختلافاً جوهريا ، من حيث سبب العلة وأعراضها ومميزاتها ، وهما ظاهرة « القلق العصبي Anxiety neurosis » ، وظاهرة النوراستانيا بالمعنى الأخص True neurasthenia .

وقد أطلق على هاتين الظاهرتين مجتمعتين معا اسم أمراض عصبية فعلية أو حقيقية Actual neurose or true neurose مراعياً في ذلك كون مصدر العلة فيها يرجع إلى عوامل وأسباب واقعية راهنة خاصة بالوظيفة الجنسية ، وما تعانيه في الحال من مظاهر الانحراف والاختلال ، تمييزاً لها عن الهستريا وعن الظواهر العصبية

التسلطية التى سبب العلة فيهما مما يرجع إلى عوامل نفسية ماضية قديمة العهد تتصل غالباً بدور الطفولة ، وقد أطلق عليها اسم «أمراض عصبية نفسية psychoneurosis» ففى هذا النوع الأخير من الأمراض العصبية تلعب النزعات الجنسية فى عهد الطفولة (تلك النزعات المكبوتة خطأ من جانب الأهل والمربين والمعلمين بما يقرب من الإجماع وما يترتب عليها من مؤثرات نفسية بالغة الأثر فى نفس الطفل) دوراً خطيراً فى إعداد الطفل فى مستقبل حياته إلى هذا النوع من الأعراض التى لا تخرج عن كونها ذكريات قديمة العهد استأثرت بلب الطفل منذ نشأته فى الحياة ، ثم انقلبت فى مستقبل العمـــر إلى أعراض نفسية تحت تأثير الظروف المتممة لها .

ويقول فرويد : إن فى كل حالة عصبية يمكن كشف العامل الجنسى بلا استثناء . ففى الأمراض العصبية الفعلية يكون هذا العامل عادة جثمانياً physical أعنى متعلقاً بالإجراءات الخاصة بالعملية الجنسية وكيفية ممارستها أو كظمها بقسوة ، بينما فى الأمراض العصبية النفسية يكون متعلقاً بذكريات جنسية مكبوتة فى النفس ترجع إلى عهد قديم ، أى أنها خواطر فكرية أو أعراض نفسية بحت .

ثم إن هنالك فرقا جوهريا آخر بين هذين القسمين العظيمين من الأمراض العصبية ، وهو أنه فى الأمراض العصبية الفعلية تكون الأعراض ممثلة فى ظواهر جثمانية أو ظواهر عصبية تشبه أعراض التسمم ، أو التخدير المعصى ، كما أن هذه الأعراض تنشأ عن تعرض الحياة الجنسية الحاضرة لبعض المؤثرات المؤذية التى أضرت بها ، مما يجعل استنتاج العامل الجنسى والوقوف عليه أمراً ميسوراً بمجرد التشخيص المرضى لظواهر العلة البادية ، بينما الأمر فيما يختص بالأمراض النفسية يكون على النقيض من ذلك ، بمعنى أنه يتعذر عادة كشف عوامل العلة من مجرد التشخيص الظاهرى ، بل لا بد من الالتجاء إلى إجراءات التحليل النفسى المعقدة

في كشف العوامل الباطنية التي هي أساس العلة .

وقد دلت التجربة الفنية على أن مجموعة الاضطرابات العصبية التي من قبيل الهستريا والظواهر التسلطية ترجع إلى عامل نفسي مكبوت في جوف اللاشعور ، ولذلك كانت هذه الاضطرابات ذات صبغة نفسية Psychogenic ، وأنها باطراد دائم قائمة على مركبات لاشعورية مشتملة على عناصر جنسية دفينة في قرارة النفس فنشوء مثل هذه المركبات أو تكوينها يرجع إلى الرغبات الجنسية على اختلاف مظاهرها وبأوسع معانيها ، والتي تعذر تحقيقها في الحياة العملية فكبتت في جوف اللاشعور ، ثم انقلبت فيما بعد إلى ظواهر نفسية مرضية ، وهذه الظواهر تعتبر في عرف الأستاذ فرويد نوعا من الترضية المستعارة .

ولن يغيب على الأذهان أنه مع وضـــــوح الفرق بين الأمراض (العصبية الفعلية) والأمراض النفسية فإنه كثيراً ما يتفق اجتماع أعراض القسمين وامتزاجهما معاً ، حيث تشاهد أعراض القلق العصبي ممتزجة بأعراض الهستريا ، فينشأ عن ذلك الظاهرة المعروفة (بالقلق الهستيري Anxiety Hysteria) ، كما يشاهد كثيراً اجتماع أعراض النوراستانيا والقلق العصبي وامتزاجهما معا .

ففي مثل هذه الحالات يشاهد اجتماع عوامل كل من المرضين واشتراكهما في إحداث مجموعة الأعراض الممتزجة .

وكان الشطر الأعظم من مجهودات فرويد موجها نحو دراسة الأمراض العصبية النفسيه (Psychoneurosis) ، وبالأخص مرضى الهستريا وتسلط الفكرة الوهميه .

ففي عام ١٨٨٥ منذ كان فرويد تلميذاً للعلامه شاركو بباريس ، تشبع فرويد من أستاذه الكبير بروح البحث العلمي والاستقصاء .

وكان من بين ثمرة مجهودات شاركو الصادقة فى ميدان الأبحاث النفسية تلك الخطوة الموفقة التى خطاها فى سبيل حل أول عقدة من عقد مرض الهستريا ، والتى أكسبته فخر الأسبقية فى حل الرمز الأول من رموز هذا اللغز العظيم ، ورفعت آراءه عن مستوى آراء معاصريه تجاه هذا المرض المضلل الذى حارت وقتئذ فى كنهه الأفهام .

فبينما كان شاركو منهمكا فى دراسة ظواهر الشلل الهستيرى الذى يعقب بعض الأحلام ، خطر له أن يجرب إحداث ظواهر الهستريا صناعيا عن طريق التنويم المغناطيسى ، فكان موفقا فى تجاربه ، وبذلك تسنى له أن يثبت أن الأعراض الهستيرية لم تكن إلا نتيجة عقيدة رسخت فى ذهن المريض تحت تأثير عوامل خاصة ، أو فكرة تسلطت على عقله فى فترة معينة كان خلالها على استعداد خاص للتأثر واعتناق الفكرة .

وبذلك أمكن لأول مرة فى تاريخ الأبحاث النفسية كشف بعض العوامل النفسيه الدفينة الخاصة بالأعراض الهستيرية .

وقد عدت هذه المرحلة من مراحل البحث العلمى الموفق نقطة تحول خطير ومن أهم العوامل التى ساعدت العلامة بيير جانيه ، وهو من تلاميذ شاركو الأفذاذ على متابعة البحث ، ومهدت له سبيل التعمق فى دراسة طبيعة الظواهر الهستيرية .

وقد احتذى مثاله كل من العالمين بروير Breuer وسجمند فرويد ، إلى أن نجحا فى وضع المبادىء الأساسية لأول نظرية نفسية لتعليل الهستريا فى مؤلفهما المشترك المعروف باسم « أبحاث فى الهستريا Studies in Hysteria » والمنشور عام ١٨٩٥ .

ففى الفترة ما بين عام ١٨٨٠ وعام ١٨٨٢ بينما كان الأستاذ بروير يعالج فتاة

مريضة بالهستريا عن طريق التنويم ، اتفق له حال تنويمها أن كشفت له فى إحدى الجلسات خلال السبات التنويمى عن ذكريات قديمة العهد لها اتصال وثيق بالصدمة النفسية التى كانت سببا فى ظهور الأعراض الهستيرية ، فلما أيقظها من نومها أخذ يذكرها بتلك الوقائع التى كانت خالية الذهن منها خلواً تاما بعد اليقظة ولكنها ما لبثت أن تذكرتها تباعا حتى عادت إليها ذكرياتها المنسية الخاصة بذلك الحادث القديم تفصيلا ، وارتسمت فى مخيلتها صورة وقائعه بوضوح نادر المثال ، كما لو كانت خبرتها فى عشية يومها ، كما تمثلت لها الانفعالات التى أحدثتها الصدمة القديمة الخاصة بذلك الحادث ، ومن ذلك الحين أخذت أعراض الهستريا تتلاشى شيئاً فشيئاً حتى اختفت وزالت عنها زوالا تاما لا رجوع فيه ، فكان ذلك مبدأ كشف الستار من هذه الحقيقة الخطيرة ، وهى إمكان شفاء الهستريا ، واختفاء أعراضها الثقيلة بإيقاظ الذكريات المنسية لوقائع الحادث الذى نشأت عنه الصدمة النفسية ، وتنبيهها فى الذاكرة من جديد ، وحمل المريض على تذكر وقائع الحادث تفصيلا مع دفعه إلى الإفصاح عن تأثراته النفسية الخاصة بالحادث بالكلام والألفاظ بقدر المستطاع ، حيث لوحظ أن تذكر الوقائع من شأنه أن يحيى الانفعالات النفسية القديمة المكبوتة بفعل الصدمة العصبية .

وقد أخذ فرويد عن زميله بروير هذه التجربة العلمية ، والتى تعد بحق أول عملية تحليل نفسى ، وطبقها على مجموعة من الحالات المرضية تطبيقا مقرونا بالنجاح وقد أطلق على هذه العملية وقتئذ اسم « عملية تطهير أو استفراغ الذكريات المكبوتة Cathartic methob » .

وبذلك تسنى لكل من بروير وفرويد حل العقدة التى وقفت عندها مجهودات شاركو ، حيث أمكنهما بهذه الوسيلة كشف القناع عن المؤثرات التى تنشأ عنها

أعراض الهستيريا وإيجاد حلقة الاتصال بين الأسباب وتلك الأعراض ؟ فقد قامت نظريتهما وقتئذ على افتراض أن الأعراض الهستيرية ما هي إلا مظهر من مظاهر النشاط المستمر للصدمة العصبية التي تعرض لها المريض ، فالتأثرات النفسية التي اقترنت بتلك الصدمة انفصلت عن الشعور وارتدت إلى جوف اللاشعور ، حيث تحولت إلى نشاط عصبي جثماني يبدو لنا في شكل أعراض هستيرية .

فعلاج الهستيريا وفقاً للنظرية المتقدمة قائم على افتراض توافر عمليات ثلاث : الكبت ، والتحويل ، والتطهير ؛ وهي تتلخص في أن الصدمة العصبية من شأنها أن تؤدي إلى انفصال مجموعة الذكريات والخواطر المتصلة بالحادث ، الذي نشأت عنه الصدمة ، عن مجموعة الملكات الشعورية وكبتها في اللاشعور هي وما يصحبها من تأثرات نفسية ، تخلصا من آلامها التي هي فوق حد الطاقة الشعورية ، ثم يعقب الكبت تحويل التأثرات والآلام النفسية إلى نشاط جثماني في صورة أعراض عصبية هستيرية ، وأن الوسيلة الوحيدة لحل هذه الظواهر المرضية هي إطلاق الذكريات المكبوتة وما يصحبها من تأثرات محتبسة من عقالها بردها أولا إلى الشعور ، ثم حمل المريض على الإعراب عنها بالعبارات اللفظية أو الكلامية بقصد تفريغ الشحنة الانفعالية .

* * *

وقد يتفق أن تكون الوسائل اللازمة لنجاح عملية تحويل الانفعال النفسي إلى نشاط عضوي معدومة ، فتبقى عندئذ مجموعة الذكريات المؤلمة الخاصة بذلك الانفعال منفصلة عن المجموعة الفكرية الشعورية انفصالا تاما ، كما انفصل عنها انفعالها وأصبح وجداً هائماً بالنفس قد يتصل بأفكار وخواطر بريئة

لا علاقة لها بالحادث النفسي الذي أحدث الصدمة ، فتصبح في هذه الحالة أفكاراً ملازمة ، أو تنقلب إلى ظاهرة تفكير تسلطي بأوسع معاني الكلمة . ففي الهستيريا التحويلية يلجأ لاشعور المريض إلى تحويل الانفعال النفسي المكبوت إلى نشاط جثماني فراراً من الألم النفسي ، بينما في حالة ملازمة الفكر يلجأ إلى تحويله إلى نشاط عقلي في صورة فكرة متسلطة دائبة غير مجدية تحقيقاً لنفس هذه الغاية .

ومما تقدم يتضح أن الهستيريا وملازمة الفكر كلاهما وسيلة من وسائل الدفاع تجاه ذكريات وخواطر تحمل معها آلاماً نفسية فوق حد الاحتمال ، ولكنه في الواقع دفاع زائف غير مقرون بالتوفيق .

ولم يلبث « فرويد » طويلا حتى كرس القسط الأوفر من حياته العملية لدراسة القسم الثاني من الأمراض العصبية ، وهي الأمراض العصبية النفسية بصفة خاصة Psychoneurosis وخصص معظم أوقاته للتعمق فيها إلى أبعد مدى : فكشفت له التجاريب أخيراً عن حقيقة جديدة ، وهي أن الصدمة النفسية وما يتبعها من ذكريات مؤلمة في ذاتها قد لا تكفي في إحداث الأعراض النفسية ، بل لا بد من اشتراك عوامل أخرى معها ترجع إلى عهد قديم كان لها شأن في إعداد النفس مقدماً للتأثرات المرضية ، وتهيئتها للاضطرابات النفسية إذا ما تعرضت للأسباب المتممة لظهور العلة .

وقد بدا لفرويد في أول الأمر أن هذه العوامل ترجع إلى دور البلوغ ، بسبب ما كانت تشتمل عليه دائماً من مؤثرات جنسية مكبوتة ، ولكنه ما لبث أن قاده البحث والاستقصاء إلى عوامل أخرى أبعد مدى من تلك ، وأعمق منها أثراً في النفس ، حيث وجدها تتصل بمؤثرات الغريزة الجنسية في دور الطفولة مع ما يتبعها من ذكريات خاصة بذلك العهد . غير أنه لم يلبث أن أظهرت له التجارب خطأ وجهة نظره من حيث اعتبار هذه المؤثرات الباكرة

وقفاً على عصبي المزاج ومرضى النفوس ، بل وجد أنه يشاطرهم فيها الأصحاء ، ولهذا كان لزاماً عليه أن يتابع البحث وراء العامل الأساسي الذي يرجع إليه السر في إعداد بعض النفوس لتتأثر بالصدمات إلى حد إيقاظ ظواهر المرض دون البعض ، فعكف على دراسة الحياة الجنسية للطفل درساً مستفيضاً ، حتى خرج منها بأن ذكريات الطفل الخاصة بحياته الجنسية في ذاتها لا تكفي لإعداده للمرض ، بل استئثار نشاطه الغريزي بهذه الذكريات وتركيزه في مؤثرات الطفولة تعد في نظره العامل الأقوى في تهيئة النفس للأعراض العصبية في مستقبل الحياة ؛ فإن النفس في مثل هذه الحالة تبقى عالقة في تصوراتها وتأملاتها الجنسية ، غارقة في أوهام الماضي وتخيلاته ، وهو ما أطلق عليه فرويد اسم « الطفولة الجنسية Sexual infantilism » وقد أيدت إجراءات التحليل النفسي العديدة هذه الحقيقة ؛ حيث دلت على أن المصابين بالأمراض النفسية إنما هم سابحون دواماً في لجة من الخواطر والذكريات الخاصة بعهد الطفولة المملوء بالأوهام والتخيلات الصبيانية .

وقد استطاع البحاثة « فرويد » دراسة بعض الظواهر النفسية المرضية وهي في دور التكوين لدى طفل من بين مرضاه ، فجاءت نتيجة بحثه حاسمة في الدلالة على صدق نظريته ، حيث كشفت عن مبلغ ما لمؤثرات البيئة العائلية من الأثر العميق في نفس الطفل ، وما يكون لتعلق الطفل بأحد والديه أو إخوته أو أخواته ، وتركيز نشاطه الغريزي فيه أو في أية فكرة تتعلق بالشئون الجنسية ، كالحمل والوضع والعملية الجنسية من سلطان قوي قد يستأثر بالنفس مدى الحياة .

وقد حذر « فرويد » الآباء والأمهات من الإفراط في تدليل الأطفال ، والتمادي في إظهار عواطف الحب نحوهم أو تقبيلهم بكثرة ، فكلها أمور

تثير منهم كامن نزعاتهم الجنسية وتدعوهم إلى تركيز نشاطهم الغريزى وحصر شهواتهم الجنسية فى الأهل ، كما حذرهم من المضار التى تنجم عن إغراء الأطفال للأطفال أو بعض المراهقين والبالغين للأطفال .

ولم يغب عن ذهن « فرويد » أن يوجه عنايته إلى دراسة عامل الوراثة وما عساه يكون لها من الأثر فى إعداد النفس للحالات العصبية ، فدلت إحصائياته على أن نصف المصابين من مرضاه بأعراض هستيرية ثقيلة أظهر الفحص الطبى أنهم مصابون بزهرى وراثى ، وأن وراثته فى الغالب كانت عن طريق الأب .

ومما تقدم يتضح أن وجهة نظر « فرويد » فى تعليل الأمراض العصبية النفسية قائمة على افتراض ظاهرة الانفصال العقلى الناشئة عن الكبت المرضى ، الذى من أقوى البواعث إليه اصطدام المركبات النفسية الخاصة بنزعات الغريزة الجنسية فى عهد الطفولة مع غيرها من النزعات الخاصة بالغرائز الأخرى : كغريزتى الاجتماع والذات ، فبسبب تعذر التوفيق بين الدوافع الباطنية للنزعات الجنسية من جانب ، وبين القوى المضادة لها (مثل التقاليد الاجتماعية والآداب العامة والروادع الدينية) من الجانب الآخر ، تلتمس الشهوة المكبوتة لها مخرجا من هذا الانفصال بتحولها إلى أعراض مرضية ، وتشق لها بين القوى المتعارضة طريقاً ملتوياً للخلاص بدلا من السعى لحل ما بينها من مشكلات أو وجوه خلاف حلا موفقا .

أما وقد ألقينا نظرة عامة على النظرية الفرويدية فى الأمراض العصبية وتاريخ تطورها ، فلنجتزىء بكلمة عن كل نوع من أنواع هذه الأمراض ، من حيث الأعراض الخاصة بكل منها ومميزاتها وأسبابها .

الهستيريا التحويلية Conversion Hysteria

لقد عرفنا مما تقدم أن وجهة نظر « فرويد » فى الهستيريا قائمة على نظرية الكبت المرضى لمؤثرات جنسية ترجع إلى عهد الطفولة ، وأن البيئة التى ينشأ فيها الطفل ، ووسائل التربية المعيبة تعد من أهم العوامل المسئولة عن حالة الكبت المذكورة ، كما أن قيام هذه الحالة بالنفس يعتبر العامل الرئيسى الذى يهيء النفس للأعراض الهستيرية ، بحيث يصبح ظهورها متوقفا على مجرد سنوح الفرصة الملائمة للعامل المتمم ، وهى الصدمة النفسية التى قد يتعرض لها صاحب المزاج الهستيرى فى مستقبل حياته . وطبقاً للنظرية الفرويدية نفسر الأعراض الهستيرية بأنها نتيجة النضال الحاصل بين المجموعة الذاتية الشعورية وبين بعض النزعات الجنسية التى تعذر على الذات الشعورية هضمها والتوفيق بينها وبين محتويات الشعور مما أدى إلى انفصالها عن المجموعة الشعورية وارتدادها إلى جوف اللاشعور ، ولكنه ارتداد مقترن بإجراءات كبت فاشلة ، مما جعل تلك الرغبات مصدراً للقلق والاضطرابات تدفع نفسها إلى الظهور ، فالتمست لها مخرجا مقنعا بين الملكات الشعورية وهى ترتدى ثوباً مزيفاًمستعاراً من الظواهر المرضية ، فبرزت بشكل أعراض هستيرية .

فالأعراض الهستيرية أشبه شىء بصلح زائف بين الرغبات النفسية المتضاربة التى تعذر على العقل أن يوفق بينها توفيقا منطقيا معقولا يرد إلى العقل هدوءه وطمأنينته . فقد دلت دراسة الطبيعة البشرية على أن حياتنا العقلية تشمل نوعين من القوى النفسية ، بعضها دافع والبعض رادع ، وأنه بسبب ما بين المركبات الفكرية ، والبعض الآخر من تباين فى النزعات قد يقع بينها نضال يؤدى إلى انهزام المجموعة الأقل ثباتاً فى الكفاح واختفائها من ميدان المعركة فى الشعور . وقد دلت أساليب التحليل النفسى على أن ملكة الكبت تقوم بأخطر دور فى حياتنا العقلية ، وأن لها أكبر شأن فى إكساب شخصيتنا طابعا خاصا ، وتكييف سلوكنا

وأخلاقنا ومظهر حياتنا العقلية . ولما كانت الغريزة الجنسية بما يتبعها من نزعات جنسية فرعية ، هى الغريزة الوحيدة التى تصادف أكبر قوة كابتة ، فإن ذلك مما يجعل لها المقام الأول فى إحداث الأعراض المرضية ، فيما لو كان الكبت فاشلاً ، وكانت الدوافع الباطنة للنزعات الجنسية قوية لدرجة تعجز معها الإرادة عن صدها ومنعها من الظهور .

والرغبات الجنسية عرضة للكبت فى مرحلتين من مراحل الحياة . المرحلة الأولى فى عهد الطفولة ، والثانية فى دور البلوغ ، فإذا اعترى القوى الكابحة للنزعات الجنسية المكبوتة ، وهن أو ضعف فى أية مرحلة من مراحل العمر ، وعزت على المرء وسائل التصعيد ، أصبح ممهداً للظواهر المرضية لأقل عارض يؤدى إلى تنبيه تلك النزعات الدفينة ودفعها إلى الظهور .

وقد تبدأ إجراءات الكبت مبكرة فى دور الطفولة ، ثم تعرض للإنسان فى مستقبل العمر أمور تزيد العبء على الأعصاب ، ومع هذا قد يبقى الكبت سليماً موفقاً إلى حين ، فلا تبدو على المرء خلاله مظاهر المرض ، فإذا ما اعترضه فى الحياة ما يضعضع قوة إرادته ، ويوهن من عزيمته ودرجة مقاومته ، فإنه قد يضحى لأقل عارض فريسة للداء .

والنضال النفسى الذى من شأنه إحداث الأعراض الهستيرية ، ينشب عادة بين قوتين متعارضتين فى النزعة ، إحداهما دافعة والأخرى رادعة ، وقد تكون القوة الرادعة مصدرها مركبات باطنية أخرى ، كما قد يكون مصدرها البيئة الخارجية والظروف القاهرة ، وعلى أثر وقوع النضال ، قد تتحول النزعات المكبوتة من نشاط نفسانى إلى نشاط جثمانى بالشكل المألوف فى أعراض الهستيريا التحويلية ، كوسيلة للصلح والتوفيق بين القوتين المتعارضتين .

ولتقريب الأمر من الذهن يمكن أن نذكر على سبيل المثال الحالة الآتية

نقلا عن العلامة بريل Brill ، وملخصها أن امرأة متزوجة فى سن الأربعين ، كانت تشكو من أعراض هستيرية منذ أكثر من اثنين وعشرين عاماً ، وكان من جملة مظاهر المرض أن أصيبت بشلل فى ذراعها الأيمن مصحوب بتقلص مؤلم مضى عليه نحو ثلاث سنين ، وقد لوحظ بعد الفحص أن عضلات الذراع والكتف كانت مفقودة الإحساس ، لدرجة أنها كانت لا تشعر بأى ألم عند إدخال آلات واخزة إلى أبعد عمق فى تلك العضلات ، فى حين أنها كانت تبدى ألماً شديداً لمجرد محاولة بسط الذراع ، وكانت ظاهرة الألم هذه أشد الأعراض لديها وضوحاً ، وقد أظهر التحليل أنها عانت بعض الصدمات النفسية فى عهد الطفولة ، مما أدى بها إلى كبت كل لذة جنسية فى مستقبل حياتها ، وجعلها عند زواجها فى حالة فتور تام .

ولم تقف حالها عند حد الزهد فى المقارنة الجنسية ، بل كانت تمقت هذه العملية ، وتعدها فى نظرها ممارسة كريهة مؤلمة تمجها نفسها ، فكان ذلك سبباً لتكدير صفو حياة الزوجين وجعلها حياة بؤس وتعاسة .

وقد حار زوجها فى أمرها ، ومما زاد الطين بلة أن وجدها مرة حال نومها تمارس العادة السرية بيدها ، فهاله الأمر لأول وهلة ، فلما أراد مؤاخذتها وجدها فى سبات عميق ، فحاول إيقاظها فلم يفلح ، وقد ظنها فى بادىء الأمر متصنعة النوم ؛ ولكن ما لبث أن تبين أنها مصابة بنوبة هستيرية ، فاستشار طبيب العائلة فى أمرها ، وقد تبين من مراقبتها أنها كانت تمارس هذه العملية حوالى خمس أو ست مرات فى الأسبوع ، ولكنها فى اليقظة كانت خالية الذهن خلواً تاماً من ناحية دأبها ، ولم تكن لتصدق ما أخبرت بشأنه ، لولا أن شقيقتها أكدت لها ما شاهدته من أمرها ذات مرة حال نومها معها ، فاهتمت بالأمر ولجأت على الفور إلى الطبيب ، فوصف لها جرعات وافرة من مركبات البرومور ،

كما أشار عليها بأن تلف يدها اليمنى فى قماط من القماش بعد إطباقها لفاً محكماً حال النوم .

وفى الفترة التى كانت تعالج فيها بلغها أن بين زوجها وبين إحدى العاملات اللاتى كن يشتغلن فى مصنع للقبعات كانت تديره علاقة غرامية ، فلم تصدق الرواية فى أول الأمر ، ورفضت الإذعان لنصيحة أهل زوجها فى إخراج الفتاة المذكورة من المصنع بدافع الشفقة عليها مراعاة لكونها ابنة امرأة بائسة ، وكانت قد أخذتها منذ حداثتها من أمها ، وعنيت بتربيتها وتدريبها على العمل .

وقد دامت الحال على هذا المنوال أشهراً عدة كانت خلالها تشعر بغيرة شديدة من ناحية تلك الفتاة ، ولكن منعتها عزة نفسها من اتخاذ أى إجراء فى هذا السبيل ، وقد صادف أن قام نزاع ذات يوم بينها وبين زوجها بشأن أمر من الأمور العادية ، وفى خلاله أمسكها زوجها من ذراعها الأيمن وضغطه بشىء من العنف ، وعلى أثر ذلك أصابها الشلل بأعراضه المؤلمة على الوجه السابق الذكر ، وبالنظر لمرضها وعجزها عن العمل اضطرت بطبيعة الحال إلى إغلاق المصنع وإخراج الفتاة .

ففى هذا المثال لا يتعذر على الإنسان أن يتبين ظاهرة النضال الواقع بين القوة الباطنية الدافعة الصادرة عن النزعة الجنسية الدفينة فى اللاشعور ، وبين القوة الرادعة الصادرة عن النزعة الخاصة بالكبت ؛ فقوة الكبت جعلتها فى حياتها الشعورية فاترة من جانب المسائل الجنسية ، بينما فى حياتها اللاشعورية كانت شهوانية النزعة ، فلما اتصل بعلمها أمر ممارستها العادة السرية حال نومها بذلت أقصى ما لديها من تدابير واحتياطات للاقلاع عن هذه العادة فلم تفلح ؛ ثم جاء دور الفتاة والشك فى أمانة الزوج التى كانت سبباً لنضال جديد بين نزعتين متعارضتين ، إحداهما دافعة مصدرها الغيرة الشديدة من تلك الفتاة ، والأخرى

رادعة مصدرها عزة النفس التي كان لها السلطان الأقوى ، والتغلب على وجدان الغيرة ، مما جعلها لا تصدق ما كان يروى لها عن الفتاة ، وأن تكذب عينيها في بعض الأحيان ، فلما أمسكها زوجها في فترة النزاع من ذراعها التي ألفت أن تمارس به عادتها السرية ، كان هذا السلوك من جانب الزوج وما ينطوي عليه من امتهان لكرامتها وإيلامها ألماً نفسياً شديداً سبباً لصدمة عصبية ، أعقبها تحويل النزعات المكبوتة إلى الأعراض الجثمانية الآنفة الذكر ، فتحول الألم النفسي إلى ألم جثماني ، وهو ما كانت تشعر بشدة وطأته عند محاولة فرد الذراع .

أما أعراض الشلل ، فهي وفقاً لرأي فرويد تعتبر وسيلة للتوفيق بين النزعتين المتعارضتين وهما النزعة الجنسية التي تبغي لها مخرجاً يحقق رغباتها من جانب ، والقوة الرادعة المستمدة من النزعة الأدبية ، التي تدفع هذه الرغبة وتصدها عن الظهور في الشعور من الجانب الآخر .

وبالتأمل يرى أن ظاهرة الشلل هذه حققت لديها غرضين في آن واحد : أولهما أنها كانت وسيلة للكف عن العادة السرية ، والثاني أنها كانت سبباً في إغلاق المصنع والتخلص من الفتاة التي سببت لها متاعب وآلاماً جمة . فتحقيق غرضين أو أكثر عن طريق ظاهرة مرضية واحدة تعد من الأمور المألوفة في الأمراض الهستيرية ، وتسمى هذه العملية بالتجمع أو « التكثيف Condensation » أما الألم الذي كانت تعانيه تلك السيدة في ذراعها ، فكان في نظرها رمزاً للقصاص من العادة المقوتة التي كانت تمارسها ، إذ فيه معنى التكفير عن تلك السيئة .

وبالتأمل في إجراءات العقل الباطن في الهستيريا نرى أنها عظيمة الشبه بإجراءاته في الأحلام ، حيث يتخذ العقل الصور الخيالية والأعراض الرمزية وسيلة للتعبير عن الوجدانات المكبوتة .

والأعراض الهستيرية أشكال ومظاهر شتى ، لا تقف عند حد أو حصر ، فالنزعات المكبوتة قد تتحول إلى نشاط عضلى فى صورة نوبات هستيرية متقطعة يقوم المريض خلالها بحركات عضلية مضطربة فى شكل تشنجات أو تقلصات عضلية ، قد تكون مصحوبة بشىء من الجهد أو العنف أو بلفظ عبارات أو مقاطع كلامية غير مفهومة ، وليس لها معنى ظاهر ، ولكنها قد تكون رمزاً لمعان باطنية يتعذر حلها بغير أسلوب التداعى الطلق طبقاً لطريقة فرويد ، أو التداعى اللفظى ، طبقاً لطريقة يونج فى الاختبار النفسى ، والهستيريا ذات النوبات التشنجية التى تسمى Convulsive Hysteria قد تلتبس أعراضها أحياناً مع أعراض التشنج العصبى الناشىء عن نوبات الصرع Epileptic fits غير أن نوبة الصرع تتميز عادة عن التشنج الهستيرى بقصر مدتها ، إذ أنها لا تتجاوز عادة دقائق معدودات ، والمريض بالصرع يكون خلال النوبة ملتزم الصمت فاقد الشعور فقداناً تاماً ، وقد تأخذه النوبة على غرة ، فيسقط بغير احتياط أو تحفظ بكيفية من شأنها أن تؤذيه ، وقد يعض لسانه فيدميه أو يصيبه بجروح بالغة ، ولا تبدو منه حركات تدل على القصد أو الاختيار أثناء النوبة ، وكثيراً ما ترتخى العضلة العاصرة ، فيبول المريض على نفسه ، وتبدأ النوبة عادة بصرخة أو أنة واحدة ، وقد تأخذ المريض النوبة وهو فى العزلة ، كما تأخذه وهو فى حضرة الغير .

أما النوبة الهستيرية ، فإنها عادة تكون أطول مدة من نوبة الصرع ، (وقد أتيحت لى فرصة مشاهدة مريضة كانت النوبات تمكث معها عند مبدأ ظهور العلة نحو نصف ساعة ، ثم امتد الزمن تدريجياً ، حتى بلغ أخيراً ساعتين أو يزيد) .

والمريض خلال النوبة الهستيرية لا يكون عادة فاقد الشعور فقداناً تاماً أو مجرداً عن الحركة ، كما هى الحال فى الصرع ، بل يقوم فى بعض الحالات بحركات جثمانية

تشنجية ، ويتخذ جسمه أوضاعا خاصة ، أو يأتى بإشارات يكون لها اتصال بالرغبات الجنسية المكبوتة ، أو تعبر عن هذه الرغبات بصورة رمزية ، وقد تكون أحيانا ذات دلالة عكسية ، بمعنى أن جذب الساعدين للخلف قد يكون رمزاً للاحتضان ، والبصق رمزاً للتقبيل . وكثيراً ما يتخلل النوبة بعض عبارات لفظية قد تكون غير مفهومة أو حركات صوتية غير مألوفة .

والنوبة الهستيرية لا تأخذ المريض على غرة أو منفرداً ، بل تصيبه فى حضرة الناس عادة ، فإذا سقط على الأرض فإنه يسقط فى شىء من الاحتياط والتحفظ ، وبكيفية لا يصيبه منها أذى جدى ، وقد تبدو منه خلال النوبة حركات مصحوبة بشىء من العنف ، تدل على أنه يحاول إيذاء نفسه ، فيضع يده فى عنقه كما لو كان يريد أن ينتحر خنقا ، أو يلطم وجهه بقوة ، أو يجذب شعر رأسه بشدة ولكن كلها فى الواقع محاولات كاذبة لا خطر منها على المريض ، لأنه يكون متمتعاً بدرجة من الشعور تكفل له عدم إيذاء نفسه إيذاءاً جدياً ، فهو لا يعض لسانه فيقطعه أو يدميه ، كما قد يحصل فى الصرع ، ولو أنه قد يعض شفته أحياناً ، ولكن بشىء من الرفق ، ولا يبول على نفسه ، كما أن النوبة قد تبدأ ببعض الصيحات أو الزفرات ، ولكنها تكون فى الغالب على دفعات متكررة لا منفردة كما فى الصرع .

وهناك نوع من الهستيريا تتحول فيه النزعات المكبوتة إلى أعراض جثمانية سلبية ، كشلل يلحق بعض أجهزة الحركة ، أو تقلص دائم أو رعشة مستديمة فى بعض العضلات ، أو فقد المقدرة على النطق أو إخراج الصوت ، أو فقد بعض وظائف الحس كالسمع والإبصار أو الشم ، أو فقد الإحساس أو اللمس أو الألم فى بعض أجزاء الجلد أو العضلات .

وقد تتحول بعض التأثرات النفسية المكبوتة إلى أعراض فى هستيرى يكون

رمزاً لما يعانيه المريض من حياة جنسية أو عائلية تعجها نفسه ، فكأن لسان حاله يقول إنها حياة مقرفة لا تهضم ، فتتحول هذه الحالة النفسية إلى حالة جثمانية تماثلها ، أو تعبر عنها بصورة رمزية ، وهي حالة القيء لما بينهما من تشابه وقد يصاب المريض بأعراض الآلام العصبية المعروفة باسم « نيورالجيا Neuralgia » ، وحيث يكون الألم الجثماني رمزاً للألم النفسي . وقد ذكر فرويد أنه حلل نفسية مريضة تشكو من نيورالجيا بالصدغ ، فتبين أن سبب الألم يرجع إلى أن زوجها في ثورة غضب كان قد وجه إليها عبارة قارصة ، فكان وقعها على نفسها شديداً ، وشبهتها باعتبارها بصفعة على الوجه ، فكظمت غيظها ، ولكن ما لبث أن تحول الألم النفسي المكبوت إلى ألم جثماني تمثل في صورة نيورالجيا في الصدغ .

وقد اتفق لي أن شاهدت حالة ألم واخز في القلب أصيبت به سيدة على أثر عبارة واخزة وجهت إليها من زوجها في فترة عتاب مؤلم ومن ذلك التاريخ أصبحت تعتريها نوبة الألم لأقل مناسبة ، أو لأتفه عبارة تعدها جارحة ؛ وربما كان ذلك راجعاً لكون آلامها النفسية المكظومة تحولت إلى ألم جثماني في القلب ، كما لو كان لسان حالها يقول إنها أصيبت بطعنة في القلب على أثر العبارة الجارحة التي رماها بها زوجها وشبهتها في ضميرها بالسهم المصوب إلى صميم فؤادها .

ومما تقدم يرى أن الظواهر الهستيرية على تعدد أشكالها وصورها قائمة على نظرية الكبت والتحويل ؛ أعني كبت التأثرات والنزعات النفسية ثم تحويلها إلى أعراض جثمانية ، وهو ما دعا فرويد أن يطلق عليها اسم هستيريا تحويلية Conversion hysteria ، تمييزاً لها عن نوع آخر من الهستيريا لا تتحول فيها الانفعالات المكبوتة إلى ظواهر عضوية بل إلى ظواهر مرضية أخرى معنوية أو نفسية ، كالتخيلات والأوهام

والمخاوف المعروفة باسم Phobiae . وقد أطلق على هذا الفريق من الظواهر اسم Anxiety hysteria أعنى هستيريا قلقية ، تمييزاً لها كذلك عن الحالات المعروفة باسم Compulsive hysteria وهى نوع من الهستيريا تتحول فيه الرغبات المكبوتة إلى فكرة معينة ، أو عقيدة خاصة تستأثر بذهن المريض وتدفعه مكرها إلى التفكير بصورة ثابتة تجاه أمر معين . ويعرف هذا النوع من الهستيريا أيضا باسم Compulsion neurosis أعنى أعراض عصبية قهرية أو أفكار متسلطة .

فالهستيريا التحويلية تختلف عن كل من الهستيريا القلقية والهستيريا التسلطية بكون الوجدانات المكبوتة فى النوع الأول تتحول إلى أعراض بدنية ، وهذه الأعراض إما أن تكون من النوع الإيجابى ، أى الذى يتطلب نشاطا عضلياً كما فى الهستيريا التشنجية Convulsive hysteria أو من النوع السلبى الذى تتخذ فيه الاعراض صورة شلل عضوى يصيب بعض أعضاء الحركة أو بعض وظائف الحس ، أما فى النوعين الآخرين ، فإن الرغبات والتأثرات النفسية المكظومة تتحول إلى نشاط فكرى عقلى فى صورة ظواهر نفسية مرضية ، غير أن هذه الأعراض تكون فى الهستيريا القلقية عادة وجدانات طليقة غير مقيدة أو مخاوف وأوهام مختلفة الأشكال أو تخيلات متعددة الصور ، وفى الهستيريا التسلطية تستحيل النزعات الجنسية والتأثرات النفسية إلى صورة فكرية خاصة أو عقيدة معينة[1] .

---

(١) وتحويل التأثرات النفسية إلى حركات جثمانية ليس من الظواهر الغريبة علينا فى الحياة العادية ، فمثل هذا التحويل له نظيره فى المآتم والمحازن ، وبالاخص لدى السيدات حيث تتحول الآلام النفسية أو قسط منها إلى ندب وعويل وبكاء ، كما أنه قد يقتضى لبعض الافراد ممن كانوا على جانب من الثقافة الفكرية والتهذيب الخلقى التسامى =

الهستيريا القلقية Anxiet Hysteria

إن هذا النوع من الهستيريا قائم أيضاً على نظرية الكبت المرضى والتحويل غير أن النزعات والتأثرات المكبوتة عوضا من استحالتها إلى أعراض بدنية فإنها تتحول إلى ظواهر نفسية من ذات المرتبة الخاصة بالعقليات ، أعنى أن التحويل يتم باستبدال وجدانات نفسية مكبوتة فى اللاشعور بظواهر نفسية أخرى شعورية ، تتمثل فيها الأعراض المرضية ، وهو ما يجعل العملية أقرب إلى الاستبدال والاستعاضة Displacement منها إلى التحويل Conversion بمعناه الاخص

وأعراض الهستيريا القلقية تتمثل عادة فيما يساور المريض من مخاوف وهمية وتخيلات فكرية مقلقة ، أو أحلام يقظة مزعجة ، والمصابون بالهستيريا القلقية يسود حياتهم الفكرية نوع من الانزعاج والقلق الفكرى ، بعكس المصابين بالهستيريا التحويلية ، فإن حالتهم النفسية تكون نسبياً أكثر هدوءاً واطمئناناً ، وبالاخص إذا كانت الاعراض من النوع السلبي الهادىء . ولا يغيب عن الذهن أن الهستيريا القلقية غالباً ما تكون خليطا من القلق العصبي Anxiety neurosis (الذى هو من نوع الأمراض العصبية الفعلية actual neurosis طبقا لتقسيم فرويد) ، ومن الهستيريا بمعناها الاخص والتى هى نوع من الامراض

= بهذه الوجدانيات إلى مرتبة الحكمة والفلسفة ، وتحويل الآلام والأوجاع النفسية المترتبة على فقد عزيز إلى تأمل فى الحياة والوجود ، وعظم الكون وتمجيد الخالق جل وعلا ، والاسترسال فى هذه التأملات والأفكار الفلسفية تخفيفاً للألم ، وهو ضرب من التصعيد عوضاً عن التمادى فى التوجع والانين ، ففى هذه الحالة الاخيرة يتم التحويل إلى مستوى المعنويات ، إنما مما يجدر لفت النظر إليه أن التحويل فى الحالات الطبيعية سواء كان جثمانياً أو عقلياً يختلف عنه فى الحالات المرضية بكونه ينقصه عنصر الكبت المرضى ؛ الذى هو من مميزات الظواهر المرضية ، كما أنه فى الحالة الطبيعية يتم شعورياً ، بينما هو فى الحالة المرضية يكون لاشعورياً .

العصبية النفسية Psychoneurosis ولهذا كان لاضطراب الحياة الجنسية الحاضرة وعدم إرواء ظمأ الشهوة الجنسية وكبت ما يصحبها من رغبات وانفعالات شأن يذكر في إحداث أعراض القلق الهستيري .

وإن أحلام اليقظة والتصورات الخيالية كثيراً ما يرجع سببها إلى كبت العادة السرية المعروفة بجلد عميرة Masturbation ، دون إيجاد أية وسيلة أخرى لإطفاء ظمأ الشهوة المتقدة ، أو تصعيد ما يصحبها من انفعالات مكظومة ، فهذه الظواهر الفكرية نتيجة النضال الواقع بين القوة الدافعة للغريزة الجنسية والقوة الرادعة للكبت . ومما يلاحظ في هذه الأحلام الهستيرية على وجه العموم أنها تتخذ لها أدواراً ثلاثة تشبه الأدوار الخاصة بالعملية السرية ، إذ هي في الواقع نوع من الاستعاضة أو الاستبدال لتلك العملية .

فالدور الأول تكون فيه التخيلات عبارة عن مجموعة من الصور المفرحة والأحلام اللذيذة ، وهو ما يسمى « بدور النشوة الخيالية » Phantastic - euphoria

والدور الثاني هو دور الاستغراق في لجة من الأوهام والتخيلات حيث يقطع المرء فيه كل صلة له بعالم الحقيقة ، ويسمى دور « الاستغراق الذاتي » « Self - absorption » .

والدور الثالث هو الذي يحل فيه الحزن والكآبة محل النشوة الفكرية ، وتهبط فيه النفس من ملكوت الخيال منهوكة القوى ، وهو ما يسمى بدور « الهبوط » Depression .

ولسهولة الإيضاح نذكر الحالات الآتية لستودارت Stoddart في كتابه « العلاج النفسي الحديث New psychiatry » .

الحالة الأولى — وهى حالة سيدة فى مقتبل العمر اعتادت أن تتخيل أنها متزوجة بشاب ثرى رشيق ، وأنها رزقت منه بأولاد ثلاثة على جانب كبير من الجمال ، وأن الزوجين وأولادهما يعيشون أهنأ عيشة فى يخت فخم يؤمه المعارف والأصدقاء من أرق الطبقات وأرقها حاشية ، غير أنها لا تلبث فى لجة أوهامها طويلا حتى ترى اليخت يغرق فيموت زوجها وأولادها وتصبح وحيدة كئيبة تعانى الهموم والأحزان وتسود حياتها نوبة هبوط وانقباض تدوم معها بضعة أيام .

الحالة الثانية — وهى حالة شاب حائك (نساج) يعتقد أنه مضطهد من مخدومه ، وكان من عادته التفكير فيما يصنعه لو كان ذا دخل يبلغ ٤٠٠ جنيه فى العام ، فكان يتخيل دائما أنه فتح دكانا للنسيج تدر عليه ربحاً وافراً بسبب إرهاقه العمال وابتزاز مجهوداتهم ، وبذلك اتسع نطاق المصنع حتى أصبح تحت إدارته مئات من العمال ، ثم أخذت ثروته تتعاظم شيئاً فشيئاً إلى أن خسرها مرة واحدة فى المضاربات

الحالة الثالثة — شاب من مراسلى الجرائد يتخيل أنه دخل سباقا للجرى ، وأنه حال جريه يصدمه أحد منافسيه صدمة قوية بحذاء ذى نعل مصفح يصيب مخلفه فيدميه ، فيحاول مدربوه إيقافه عن الجرى وإخراجه من الميدان ، ولكنه يدفعهم من حوله ويتابع الجرى ، حتى يتم له الظفر ، ويحرز قصب السبق ، ثم يسقط خائر القوى ، فيحمل بين هتاف النظارة وتهليل الجماهير المحتشدة .

الحالة الرابعة (وهى نقلا عن العلامة فرويد) — وموضوعها أن سيدة تخيلت أن واحداً من مشاهير العازفين على البيانو ممن لا تعرفهم معرفة شخصية اتصل بها اتصالا غير شرعى فحملت منه سفاحاً ، وعلى أثر الوضع نبذها ذلك الرجل ، وتركها هى وطفلها فى حالة بؤس وشقاء ، فلما أفاقت من أوهامها ألفت نفسها تبكى باكية فى طريقها حيث كانت سائرة .

بالتأمل فى الأمثلة السابقة يسهل أن نتبين فى كل منها الأدوار الثلاثة للأوهام الهستيرية الآنفة الذكر ، وهى النشوة ، والاستغراق ، والهبوط ، كما أنه لا يتعذر على من أوتى بعض الخبرة بأساليب التحليل النفسى أن يكشف المركبات النفسية المكبوتة فى كل منها ، فى الحالتين الأولى والأخيرة ، يستدل على أن المكبوت هى الرغبة فى الزواج ، وفى الحالة الثانية نزعة جنسية خاصة مقترنة بالإيذاء أو إيلام الغير معروفة باسم النزعة السادية (نسبة إلى مركيز دى ساد Marquis de Sade)(١) .

أما الحالة الثالثة ، فإنها تتضمن النزعة الجنسية الخاصة بتعرية البدن المعروفة باسم Exhibitionism ، أعنى نزعة العرض أو التعرية .

المخاوف الهستيرية Phobias

قد يتفق أن الرغبات المكظومة لا تتخذ صورة أحلام هستيرية ، بل تتحول إلى قلق نفسى فى صورة مخاوف وهمية تجاه أشياء معينة ، أو تقوم بالنفس فى ظروف خاصة ، ولا يشترط فى حالة المخاوف ، أن يكون سببها كبت العاطفة الشعرية كما هى الحال فى أحلام اليقظة ؛ كما أنه ليست جميع المخاوف خاصة بالهستيرية القلقية ، بل هناك قسم منها خاص بالهستيريا التسلطية Compulsion hysteria .

---

(١) وهو اللقب الذى عرف به الكونت دونسيان ألفونس فرانسوا ساد أحد كتاب الفرنسيس (سنة ١٧٤٠ - ١٨١٤) والذى اشتهر عنه هذا النوع من الشذوذ الجنسى بشكل مجسم حمله على ارتكاب جرائم حكم عليه من أجلها دفعتين بالإعدام . وتمكن فى كلتيهما من الهرب ، ثم أودع فى ختام حياته فى أحد مستشفيات الأمراض العقلية .

ويمكن تقسيم المخاوف العصبية إجمالا إلى قسمين رئيسيين :

القسم الأول : وهو الذى يتضمن استبدال المركبات المكبوتة بظاهرة خوف أو قلق فى صورة خاصة محدودة ، أو تجاه أشياء معينة ، كالخوف من بعض الحيوانات ، أو من المرور أو الوقوف فى أماكن معينة ، كالمضايق والمرتفعات ، أو الخوف من بعض الأمراض والأدواء ، أو من بعض الأطعمة أو العقاقير ، أو من بعض الأفراد أو من الوجود فى ظروف أو مواقف خاصة ، وما إلى ذلك .

والقسم الثانى : وهو الذى تذهب فيه ظاهرة قلق وانزعاج مبهمة غير محدودة أو محصورة ، فيسود النفس نوع من الرعب أو الفزع المجهول المصدر ، وقد يتصل بأشياء متنوعة ، ولكنه لا يستقر على صورة ثابتة ، بل يستمر دائب التنقل من حال إلى حال .

فالقسم الأول من المخاوف ، أى التى من النوع المحدود ، يمكن اعتبارها من فصيلة الظواهر الهستيرية .

أما القسم الثانى غير المحدود ، فيعتبر من ضمن ظواهر القلق العصبى الذى هو أحد قسمى الأمراض الفعلية . غير أنه كثيراً ما تشتبه أعراض الخوف الهستيرى بالقلق العصبى ، فيتعذر التمييز بينهما إلا بعد التحليل والبحث للوقوف على سبب العلة ، فإن كان سببها ذكريات مكبوتة كانت الأعراض من النوع الهستيرى ، وإن كان سببها الحرمان فى الممارسة الجنسية ، أو ظمأ جنسى كانت الأعراض من نوع القلق العصبى .

وليست ظاهرة الخوف الهستيرى بسيطة التركيب ، كما قد يظن لأول وهلة ، بل غالباً ما تكون كثيرة التعقيد تشترك فى تكوينها مجموعة من العوامل أو

أو التأثرات المكبوتة فى النفس من عهد بعيد يرجع إلى سن الطفولة ، كما يتضح من تحليل الحالة الآتية التى أوردها الأستاذ أرنست جونز «Ernest Jones» فى كتابه مذكرات فى التحليل النفسى papers on psycho-analysis ص ٥٢ تحت عنوان « ظاهرة فوبيا بسيطة a simple phobia » وملخصها أن شاباً كان يشكو من وجدانات رعب وقلق مصحوب بدوار فى الرأس وخفقان فى القلب ، مع زيادة فى إفراز العرق كلما وقف فوق مكان مرتفع ، كما كانت تعتريه هزة فزع تلقاء ما كان يساوره من نزوع لأن يلقى بنفسه من أعلى ذلك المكان ، وكانت هذه الأعراض تزداد شدة إذا كان المرتفع مشرفاً على ماء عميق القرار، وخاصة إذا صادف وجود شخص بجواره ، فإنه كان يتوهم أنه سيأخذه على غرة ويدفعه إلى الهاوية . غير أن تخوفه من هذه الناحية كان مقصوراً على الخوف من جانب الرجال دون النساء ، وقد كشف التحليل عن الأمور والوقائع الآتية :

أولا — حينما كان الفتى فى سن العاشرة صادف أن وجد فى قاعة حفلة موسيقية كانت مزدحمة بالزائرين ، فأجلسه شاب على حافة نافذة مشرفة على السلم على ارتفاع ستة أقدام ، وقد مكث على هذه الحال أكثر من نصف ساعة كان فى خلالها شديد الرعب من السقوط ، إلى أن وافاه من أنقذه من هذا الموقف وأنزله عن النافذة . إن هذه الحالة بذاتها لا تكفى لإحداث ما كان يعانيه من أعراض مرضية ، ولكن قد يكون لها شأن يذكر فى تنبيه تلك الأعراض ودفعها إلى الظهور .

ثانياً — وهو فى سن التاسعة اصطحبه والده معه فى صعود برج على ارتفاع مائتى قدم ، وكان بالبرج شرفة بارزة (بالكونة) عند قمته ، فتولاه خوف شديد عند ولوجه الشرفة بالرغم من كونها محصنة بقضبان حديدية متينة ، غير

أن والده أخذ يهزأ به ، وأرغمه على المسير فيها مكرهاً وهو فى حالة رعب وفزع شديد .

ثالثاً — وهو فى سن السابعة أمسكه مدرس بقصد المزاح من قدميه وأدلاه على حافة جدار مشرف على جرف تل على ارتفاع يتراوح بين ١٥ قدماً و ٢٠ قدماً ، وهدده بإسقاطه ، فسبب له ذلك انزعاجاً شديداً ، ولكن ما لبث أن هدأ روعه بعد انتشاله وإعادته إلى فناء المدرسة .

رابعاً — قد دل تاريخ حياته على أنه كان فى عهد الطفولة شكس الأخلاق كثير البكاء ، يغضب لأتفه الأسباب ، وقد صادف وهو فى سن الثالثة أن أزعج زائراً كان فى منزل والده بكثرة بكائه وصراخه مما دعا الزائر إلى أخذه محمولا إلى خارج المنزل ، ثم رفعه « فوق » فنطاس مملوء بالماء ، وهدده بإلقائه فيه .

إن هذه المجموعة من الحوادث فى ذاتها لا تكفى لتكوين مركب الخوف العصبى أو « الفوبيا » فقد يتعرض الشخص السليم إلى مثل هذه الصدمات العصبية ، وربما لما هو أشد منها دون أن يترتب عليها أية نتيجة مرضية ، وإذاً لابد من البحث عن عامل آخر بجانبها ، وبالبحث عن طبيعة هذا العامل على ضوء النظرية الفرويدية نرى أنه لابد أن يكون عاملا جنسياً ، فإن الظواهر العصابية وبجملتها المخاوف الهستيرية — طبقاً لهذه النظرية — تعتبر رمزاً لرغبة جنسية دفينة ، أو وسيلة للتعبير عن هذه الرغبة ، وأن بقاء هذه الأعراض متوقف على بقاء التعطش الجنسى والنزوع إلى تحقيق هذه الرغبة المكبوتة كبتاً مرضياً فى النفس فـكل ظاهرة خوف عصبى « Phobia » تعد وسيلة لتفادى الصدام بين القوة الدافعة للنزعات المكبوتة ، والقوة الرادعة الصادرة عن ظاهرة الكبت .

فالظواهر النفسية المرضية ما هى إلا مظهر مقنع من مظاهر النشاط النفسى الصادر عن تلك التركيبات الباطنية ، وما تقوم به من محاولات بغية الظهور ،

ولكن أين هي تلك الرغبة الجنسية المقنعة ، التي تستتر خلف ظاهرة الخوف من السقوط ؟ وأي معنى جنسي تنطوي عليه مثل هذه الظاهرة ، وهي كما تبدو لنا بريئة من كل صبغة جنسية ؟ إن رجال التحليل النفسي عادة يفسرون الخوف من السقوط المادي بأنه رمز لرغبة جنسية مكظومة ، تحقيقها قد يجر إلى سقوط أدبي بسبب ما تنطوي عليه من نزعات غير مشروعة ، أو لا تقرها التقاليد ، فوجدان الخوف من السقوط المعنوي الذي ملأ أرجاء اللاشعور ، وطغى على النفس ، قد يجد له وسيلة للتنفس بتحوله في الشعور إلى وجدان خوف من السقوط المادي ، نظراً لما بين الحالتين من تشابه في المعنى . فكلمة سقوط هي حلقة الاتصال بين مدلولها المعنوي الكامن في جوف اللاشعور ومدلولها المادي الماثل في الشعور ، فهي أشبه شيء بالقنطرة أو الوصلة التي عن طريقها تتم عملية الاستبدال (التي تكلمنا عنها في صدد الكلام عن الهستيريا القلقية والتي تقابل ظاهرة التحويل إلى أعراض جثمانية في الهستيريا التحويلية) . فالسقوط المجسد الظاهر أو السقوط المادي رمز للسقوط المعنوي ، والرموز هي وسيلة العقل الباطن في التعبير ، ولغته الفطرية في الإفصاح عن رغباته المكبوتة .

وإذا تأملنا لغتنا الشعورية نجد أن كلمة « سقوط » وهي بطبيعتها ذات مدلول مادي قد يتحول مدلولها عن طريق المجاز إلى أمر معنوي ، فيقال « رجل ساقط » أو « أن هذه المرأة سقطت إلى الحضيض » أو أن « فلاناً سقط من أعين الناس » أو « سقط عن مركزه » وهلم جرا . فكما أن العقل الظاهر قد يحول التعابير المادية إلى تعابير معنوية عن طريق المجاز ، فإن العقل الباطن قد يحول التعابير المعنوية أو المعاني النفسية إلى تعابير مادية عن طريق الرموز .

ثم يقول رجال التحليل إن ظاهرة كالتي يشكو منها ذلك الفتى تنطوي أيضاً على رغبة أخرى مكظومة بجانب النزعة الجنسية المخالفة للآداب ، وهي

الرغبة فى إسقاط الغير ودفعه من مرتفع بقصد إيذائه أو قتله (وذلك نوع من النزعة السادية Sadistic tendency) ممثلة فيما كان يساور المريض حال اقترابه من شفا جرف أو مكان مرتفع من تخوف من جانب الغير ، خشية أن يقذف به ذلك الغير إلى الهاوية .

فهم يفسرون الموقف على ضوء الظاهرة المعروفة « بالانعكاس Projection » والتى من مؤداها أن المريض يلقى ما يهيم بنفسه من وجدانات أو رغبات مكبوتة على سواه ، فيرى صورة رغباته ونزعاته ، الخاصـــة بشخصه ، منعكسة على مرآة شخصية الغير .

وهذه الظاهرة وإن كانت تشاهد فى بعض الحالات المرضية بشكل بارز مجسم غير أنها كثيرة الشيوع فى الحياة العملية بين الأصحاء ، وإنما بشكل مخفف ، فهى ظاهرة متأصلة فى الطبيعة البشرية إلى حد معين ، يختلف باختـــلاف الأفراد والطباع ، تكون قوية المظهر عادة لدى أصحاب الضمائر السيئة التى تنطوى على الشر والأذى ، فالأشخاص ذوى النزعة الإجرامية ، والميل إلى قتل النفس ، يتوهمون عادة أن حياتهم مهددة بالقتل ، والشخص الكذوب لا يصدق الغير عادة .

ويقول برناد شو ويحق : « إن أبلغ جزاء للكذوب هو فى كونه لا يصدق الناس لا فى كون الناس لا يصدقونه » .

وفى حالات الجنون التى تتضمن فكرة الاضطهاد من جانب الغير كما فى حالة المرض المسمى « بالبرانويا paranoia » ، وهى الحالة المعروفة بالهذيان الاضطهادى أظهر التحليل أن سبب العلة راجع إلى انعكاس نزعة اضطهادية تأصلت فى نفس المريض نحو الغير .

ولم يخف أمر هذه الظاهرة عن الكثيرين من الكتاب والروائيين ، فإن التأليف الروائي مليء بالشخصيات التي انعكست عليها نتيجة نواياها الإجرامية ، فسامتهم نواياهم أشق أنواع الآلام والعذاب جزاء وفاقا لما قدمت أنفسهم .

* * *

لقد وقفنا مما تقدم على بعض نظريات رجال العلم وآرائهم في هذا النوع من الظواهر المرضية إجمالا ، فلم يبق أمامنا سوى تطبيقها على الحالة الخاصة بذلك الفتى ، وما أظهره التحليل فعلا من مركبات نفسية دفينة متعلقة بنزعاته وأمياله الجنسية لمعرفة مبلغ انطباقها على حالته المذكورة .

إن العلامة أرنست جونس لم يقصد لسرد تفاصيل إجراءات التحليل ودقائقه في مؤلفه الآنف الذكر كاملة ، لأنه اعتبر ذلك أمراً متعذراً لضيق المجال ، ولكنه اكتفى بأن سرد طائفة من التفاصيل عدها كافية لتفسير موقف الفتى من الناحية العلمية ، وهي كما يأتي :

« كان الفتى في عهد طفولته ضعيف البنية متوعك المزاج ، وكانت أمه بطبيعتها ذات حنان مفرط ، فبالغت في العطف عليه وتدليله ، وخصوصاً أنه كان البكر ولم تكن رزقت بسواه بعد ، فاحتضنته ليلا ونهاراً حتى أفسدت طباعه من فرط العناية به وأصبح مدللا ، فلما وضعت أمه مولوداً آخر وأخذ يشاطره فيما كانت اختصته أمه به من عطف ومحبة أخذت الغيرة تدب في نفسه منذ ذلك الحين ، وبالرغم من كونه بلغ الثانية من عمره فإنه رفض أن يتنازل عن حضن أمه ولكن الظروف كانت تضطره أحياناً إلى الانتظار على مضض حتى تنتهي أمه من ارضاع المولود الجديد . في ذات مرة وكان قد جاوز الثانية بقليل قال لأمه محتدا : « ضعي الطفلة في مهدها لتبكي واحمليني » . وقد علق العلامة « جونس » على هذه العبارة بقوله : « إن ما يلفت النظر قوله « لتبكي » ، فإنه ما كان أغناه

عن ذكر هذه الكلمة لو كان الأمر مقصوراً على مجرد اهتمام هذا الصغير بشأن نفسه ، أما ورابه يطالب فوق ذلك بكاء أخته فهو أمر يدل على ما في نفسه من نزوع إلى القسوة ، ولو أن الطلب جاء في صورة ملطفة . فهو إذ لم يخش جانب أمه ، ولو لم يتأثر وجدانه الصغير بمجموعة من الروادع النفسية التي في دور التكوين لكان في خطابه لأمه أكثر جرأة ، ولطلب منها بصريح اللفظ أن تدفع بالمولود إلى الأرض لكي يتخلص من وجوده .

وقد كشف التحليل عن ظاهرة أخرى على جانب من الأهمية ، وهي أنه طول مدة طفولته كان شديد الخوف من أبيه ، كما كان يخاف أيضاً من ذلك الزائر الذي ألف التردد على المنزل ، والذي مر بنا ذكره في الواقعة الرابعة ، وكان الغلام يرى فيه صورة ثانية لصورة أبيه عن طريق إدماج الشخصية Identification ، وكانت معظم مخاوفه من ناحية أبيه ترجع إلى انعكاس ما كان يكظمه في نفسه من وجدانات الحقد والغيرة من أبيه على أمه (وهو ما يسمى بالمركب الوالدي المعروف باسم « مركب أوديب Oedpus Complex » فكان يضمر لوالده البغض والعداء ، ويبتكر الصور الخيالية لقتله والتخلص منه ، ولهذا فإنه أسند إلى والده موقفاً عدائياً مماثلا لما في نفسه ، فخشي جانبه كما خشي أن يطلع والده على شيء من دخائل سريرته .

فمن أجل هذا قد أحس بخطر محقق على حياته عندما أدلاه ذلك الزائر فوق حوض الماء وهدده بإسقاطه فيه ، كذلك عندما أكرهه أبوه على السير في شرفة البرج المعلقة على ارتفاع شاهق في الفضاء ، فكانت نفسه وقتئذ تحدثه بأنه هالك لا محالة ، حيث اعتقد أن أباه قد وقف على خبايا ضميره ، وتعرف من نفسه تلك النزعة العدائية الكامنة ، وأنه سيمثل به حسبما كان هو يبغي أن يمثل بوالده وبأخته الصغيرة .

فوجدانات الحقد والغيرة والعداء التي نشأت في نفس الفتى تجاه أبويه منذ الطفولة ، ثم اتصلت بمن عداه من الشخصيات عن طريق الاستبدال ، ظلت كامنة في سويداء قلبه حتى مستقبل حياته ، ولكنها كانت مكبوتة في قرارة النفس تحت تأثير الاعتبارات الأدبية وسلطان الإرادة ، كما أنها كستها طبقة من الحب والاحترام المكتسبين بالتربية ، فلم تجد هذه الوجدانات المختنقة مخرجاً تتنفس منه الصعداء إلا عن طريق الانعكاس بتحويلها إلى ظاهرة خوف من جانب الغير ، مندمجة في ظاهرة خوف السقوط من المرتفعات التي كشف التحليل عن كونها ترجع إلى مجموعة من الرغبات والأماني الجنسية المكظومة .

ويقول رجال التحليل بجانب ذلك : إن ما يعانيه مثل هؤلاء المرضى من المخاوف النفسية والآلام يعد بمثابة عقوبة وجدانية لما يضمرون في أنفسهم من سوء طوية وأمان تنطوي على القسوة والإجرام ، فهي أشبه بقصاص ذاتي عادل .

فلما حللت وجدانات الفتى وأطلقت من عقالها ، وانتشلت رغباته المكبوتة وأمانيه المكظومة من وهدة اللاشعور إلى ميدان الشعور مجردة من ردائها الزائف ، وعُرضت على طبيعتها تحت أشعة من النقد الصحيح ، والتأمل الذاتي البريء ، وفهم المريض حقيقة موقفه بين أمانيه ورغباته المكبوتة في اللاشعور ، وبين أعراض مرضه وظواهر مخاوفه الماثلة في الشعور ، وأدرك وجه الصلة بينهما ، سُرّي عن نفسه الوهم والخيال ، وحلت محله الحقيقة الناصعة ، فوجدت بذلك انفعالاته المكبوتة في قرارة النفس مخرجاً صريحاً أطلقاً جذوتها ، فانخفضت حدة أعراض مرضه ، وهبطت مخاوفه من المرتفعات إلى مستوى الحد الطبيعي .

لقد تبين بجلاء من إجراءات التحليل المتقدمة أن فزع المريض من فكرة أن شخصاً آخر قد يأخذه على غرة ويقذف به من عل كانت أشد أعراض علته ظهوراً ووضوحاً ، وما ذلك إلا لكونه كان يحمل فى طيات نفسه ويكن بين حنايا ضلوعه صورة والده المنتقم المتربص له دائماً للأخذ بالثأر .

أما خوفه من نفسه أن يقذف هو بنفسه من المكان المرتفع فرجعها ما كان يكبته فى قلبه من نزعة إلى الخطيئة والسقوط فى حمأة المعصية كما تبين أن ذكرياته عن الأماكن الشاهقة ارتبطت فى ذهنه بمجموعة من الخواطر التى تدور حول الموت والقتل والإلقاء والسقوط والولادة .

فمن تتبع إجراءات التحليل آنفة الذكر قد نستخلص أن الخوف الهستيرى ، أو بعبارة أخرى الخوف المرضى من أمر أو شىء معين ، ما هو إلا رد فعل أو انعكاس لرغبة مكبوتة ، فهذه الظاهرة المرضية تعبر عن خوف المريض من قطعة من عقله تضمنت نزعة جامحة محفوفة بالخطر انشقت عن بقية العقل وانفصلت عنه واستقلت فى جوف اللاشعور ، وتحصنت فى ظلامه الدامس ، فأصبحت قوة ثائرة تهدد الذات بالخطر ، فهذه الظاهرة فى معناها لا تخرج عن كونها خوف المرء على نفسه من نفسه .

وأما الصدمات النفسية التى يتعرض لها الإنسان فى مستقبل الحياة ، فطبقاً لرأى « فرويد » ومشايعيه ، لا تخرج عن كونها عامـــلا متمماً لظهور العلة التى نبتت بذورها ، وتكونت عناصرها فى أعماق النفس منذ فجر الحياة .

ومما لا شك فيه أن حادثة الخوف الهستيرى ، أو العصبى آنفة الذكر تعبر عن النظرية الفرويدية التى تستند إلى الرغبة الجنسية المكبوتة أصدق

تعبير ، وهي تعد من خير الأمثلة المطبقة لهذه النظرية ، ولكن هل كل ظاهرة خوف عصبي أو فوبيا يكون أساسها العامل الجنسي وتنطوى على رغبة جنسية مكظومة حتماً ؟

إن هناك من رجال التحليل من يؤمنون بأن بعض ظواهر الخوف العصبي قد تنشأ عن صدمات نفسية ليس للرغبات الجنسية أو العنصر الجنسي أى دخل فيها ، ودللوا على ذلك ببعض الحالات التي وقفوا على عواملها خلال تحاليلهم وتجاربهم .

وربما كان ذكر بعض الحالات على سبيل المثال لا يخلو من الفائدة :

الحالة الأولى — (وهي للدكتور « ريفرز Dr. W. H. R. Rivers ») نقلا عن كتاب « علم النفس المرضى » للعلامة مكدوجال — ص ٣٠٤ « An Outline of abnormal Psychology by W. Mcdougall »

وهي ظاهرة خوف من الأماكن الضيقة وتسمى « Claustrophobia » ، وملخصها أن طبيباً في سن ٣١ كان يشكو من حالة رعب وفزع تعتريه من الممرات الضيقة والأماكن المحصورة ، كما كان يشكو أيضاً من اضطراب عام في الأعصاب مصحوب بلكنة أو لعثمة في النطق ، عرض نفسه على أحد محللى النفس من المتشيعين لنظرية العامل الجنسي ، ولكنه لم يوفق إلى الشفاء ، ثم صادف أن أرسل المريض المذكور إلى الميدان الحربي ، وحال وجوده بالخندق اعترته أمراض عصبية شديدة استدعت نقله إلى المستشفى ، ومن ذلك الحين ازدادت حالته سوءاً ، فأصبح نومه يسوده الأرق ، وأحلامه مضطربة مزعجة مملوءة بويلات الحرب ، يشكو من آلام في الرأس وانحطاط في القوى ، فعرض نفسه على الدكتور « ريفرز » الذي طلب منه أن يسجل أحلامه وذكرياته الماضية فيما عدا المسائل الجنسية مما قد يكون له علاقة بمحتويات

أحلامه ، فن طريق الأحلام تذكر المريض وقائع حادث قديم يرجع إلى عهد الطفولة مضمونه أن شخصاً من باعة « الكهنة » والأمتعة القديمة كان يسكن بجوار منزل أبيه ، وكان من عادة ذلك الشخص أن يغرى صغار الأطفال على سرقة بعض الأوانى والأشياء الثمينة من منازل آبائهم فى مقابل بعض الحلوى أو الدريهمات .

واتفق له أن أخذ من منزل والده مرة آنية نفيسة ، وذهب بها إلى منزل ذلك الرجل حيث اقتاده إلى فناء المنزل عن طريق ممر ضيق مظلم كان عند نهايته كلب شرس من النوع الأسبانى ، فلما أخذ الطفل الجمل عاد من نفس الممر بمفرده ، حتى إذا بلغ الباب وحاول فتحه يلتمس الخروج تعذر عليه ذلك لصغر سنه ، وفى هذه الأثناء زمجر الكلب نحوه ، فاعترته هزة رعب وفزع ، مما جعله لا يجرؤ بعد ذلك التاهخ من أن يخطو إلى منزل ذلك الرجل .

ولما كان عمل الغلام يستوجب العقاب من والديه فلم يجرؤ بطبيعة الحال أن يبوح لهما بما جرى له ؛ فكظم انفعالات الخوف فى نفسه ، وقد ظلت مكظومة فى اللاشعور ، إلى أن ظهرت فى مستقبل حياته تحت تأثير الظروف المهيئة فى صورة أعراض خوف مرضية من الممرات والمضايق .

وبعد تذكر الوقائع المتقدمة ببضعة أيام تذكر المريض فى منام آخر اسماً لا يعرف شيئاً عن شخصية صاحبه ، وهو اسم « M. C. Cann » ، ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن تذكر أنه اسم ذلك الرجل القديم ، وعلى أثر تذكر المريض هذه التفصيلات خفت أعراض المرض تدريجيا حتى اختفت وبرىء منها .

الحالة الثانية — حالة فتاة من بيت أصيل كانت تشكو منذ سن السابعة إلى حين بلوغها العشرين من حالة فزع ورعب لسماعها خرير الماء بخلاف رؤيتها

الماء راكداً فإنه لا يثير منها أى انفعال للخوف ، وقد دل ماضيها على الحادثة الآتية التى لم تكن تتذكر منها شيئاً إلا وهى فى سن العشرين ، على أثر مناسبة خاصة سيجىء ذكرها فيما بعد .

وهذا الحادث يتلخص فى أنها وهى فى سن السابعة كانت قد ذهبت إلى الغابة مع أمها وخالتها لتمضية يوم عطلة هناك ، غير أن الأم طرأ عليها ما استدعى عودتها إلى المنزل مبكرة ، فلما أرادت أن تصحب معها ابنتها تشبثت فى البقاء فى الغابة مع خالتها ، فتركتهما الأم معا وانصرفت إلى المنزل ، ولكن الفتاة انتهزت فرصة انصراف أمها وغافلت الخالة وتسربت إلى مكان قصى بمعزل عن الرقابة ، فلما فطنت خالتها إلى ذلك أخذت فى البحث عنها حتى وجدتها ملقاة على الأرض بجانب غدير ماء ورأسها محشور بين صخرتين ، والماء ينحدر فوق قمة رأسها ، فأنقذتها ثم اقتادتها إلى المنزل ، وفى الطريق توسلت إلى خالتها ألا تبوح لأمها بما جرى لها خشية أن تعاقبها ، فوعدتها بذلك ، وفعلا كتمت الأمر كتماناً تاما براً بوعدها .

وقد سافرت الخالة فى اليوم التالى إلى بلدها ولم تعد ، وعلى أثر ذلك بأيام ظهرت عند الفتاة أعراض الفزع من خرير الماء على الصورة المتقدمة الذكر ، ودامت معها الأعراض ثلاثة عشر عاماً إلى حين قدوم خالتها لزيارة العائلة ، فلما علمت بما أصاب الفتاة من أعراض ذلك الخوف وجهت إليها تحية اعتذار بقولها إنها لم تبح أبداً بما جرى ، فهذا الاعتذار مقترناً برؤية الخالة نبه فى الحال من ذهن الفتاة وقائع ذلك الحادث القديم المكبوت فى اللاشعور فارتد إلى الشعور ، ومن ذلك الحين اختفت مخاوفها وبرئت من مرضها .

الحالة الثالثة — حالة شاب إذا ركب الترام تولاه رعب شديد وهزة فزع تدفعه إلى القفز منه منزعجا ، ولكنه إذا ركب أية مركبة أخرى ، سواء كانت

سيارة أو قطارا أو عربة وما إليها فإنه يظل طبيعيا لا يحس بأى أثر لخوف أو قلق ، وقد حار فى أمر نفسه وتفسير موقفه هذا ، فلم يوفق إلى ذلك إلا حين التجأ إلى تحليل خواطره وذكرياته المكبوتة ، حيث تبين مع التحليل أنه حينما كان فى ميدان القتال وضع فى أحد الخنادق مع مجموعة من رفاقه الجنود ، فمرت قنبلة بجوار أذنه فسمع أزيزها ، ثم انفجرت على مقربة منه فى الخندق ، وقتلت بعض رفاقه على مرأى منه ومسمع ، فأحدث ذلك لديه صدمة عصبية شديدة كان من شأنها انفصال وقائع هذا الحادث من مجموعة ذكرياته وكبتها فى اللاشعور ، حيث بقيت مصدراً لأعراض الرعب والفزع التى كانت تعتريه حين ركوبه الترام وتحركه بسبب ما كان بين أزيز القنبلة ،وأزيز عجلة ذراع الترام حال احتكاكها بالسلك أثناء سير الترام من تشابه ، وما كان يثيره هذا الصوت من انفعالات الرعب والفزع المكبوتة فى نفسه عن طريق التداعى بالتماثل . فلما تنبهت وقائع الحادث المكظوم برىء من أعراض مرضه .

وليست حياتنا العادية خالية من مثل هذه الظواهر ، ولو بصورة مخففة ، فإنى أذكر مرة أن تولانى نوع من الرعب والفزع من سماع حفيف الهواء المتردد من مبسم حقنة من المطاط كانت فى يد ابن شقيقتى يلهو بها على مقربة منى ، فاستوقفتنى غرابة هذا الانفعال ودعانى ذلك إلى التأمل والتفكير فيما عساه يكون سبب انقباضى من هذا الصوت ، فما لبثت أن قادتنى خواطرى إلى واقعة مرض إحدى أطفالى وهى فى سن الثالثة بالتهاب شعبى رئوى وذكرانى بموقفى وأنا أحملها بين ذراعى أرقب زفراتها السريعة المتقطعة بقلق وفزع ، وأدركت فى الحال ما بين الصوتين من تشابه ، وفهمت علة اضطرابى فسرى الانقباض عن فؤادى .

فما تقدم من الأمثلة يتضح أن هناك من ظواهر الخوف العصبى ما يتعذر

رده إلى نزعات جنسية مكبوتة من عهد الطفولة كما يقول المتشيعون للنظرية الجنسية ، أى لنظرية فرويد .

ومع هذا فقد يعترض هؤلاء بأن التحليل الذى أجرى فى الحالات المتقدمة وما عداها لم يكن على درجة من التعمق تكفى لسبر غور طبقات العقل الباطن حتى القرار ، مما كان يؤدى إلى كشف العنصر الجنسى فيها ، ذلك العنصر الذى يعد بمثابة الطبقة المبطنة لمدركات اللاشعور ، والتى لا مفر لرجل التحليل من بلوغها فى كل حالة بلا استثناء فى النهاية .

الظواهر العصبية القهرية

أو الهستيريا التسلطية

Compulsion Neuroses (or Compulsion Hysteria)

إن المقصود بالظواهر العصبية القهرية هى الحالات النفسية التى يسود عقل المريض فيها فكرة خاصة أو عقيدة معينة يجد نفسه مسوقاً إلى التفكير فيها مرغماً دون أن يجد من نفسه قدرة على كبح جماح هذا التفكير ، وقد تدفعه الفكرة المتسلطة إلى التزامه مسلكاً معيناً فى ناحية من نواحى الحياة يكون ذا طابع خاص محدد بأسلوب ثابت لا سبيل إلى التصرف أو التنوع فيه ، فهى نوع من التفكير الإلزامى أو الغير الإرادى ، الذى يرجع مصدره إلى بعض المركبات النفسية المشتملة على نزعات أو مشتهيات جنسية مكظومة ، والتى انفصلت عن المجموعة الشعورية لما بينها وبين تلك المجموعة ، أو بعض مشتملاتها من تنافر فارتدت إلى جوف اللاشعور ، ثم التمست لها فى الحياة الشعورية مخرجاً للتنفس منه الصعداء ، فتحولت إلى ظاهرة تفكير قهرى أو فكرة متسلطة .

فالظواهر العصبية القهرية مثلها مثل الهستريا التحويلية قائمة على نظرية الكبت المرضي للتأثيرات الجنسية الخاصة بعهد الطفولة ، غير أن التأثرات والانفعالات الخاصة بالرغبات المكبوتة بدلا من استحالتها الى أعراض بدنية كما هي الحال في الهستريا التحويلية ، فإنها تنفصل عن مركباتها وتتصل بأمور أو أفكار أخرى بريئة كتب عليها أن تحمل طابع تلك الرغبات وتأثراتها

فالهستريا التسلطية قائمة على ظاهرة الاستبدال ، مثلها في ذلك مثل الهستريا القلقية ، غير أنها تختلف عنها بكون الوجدانات المكقاومة تتحول عادة الى فكرة أو عقيدة ثابتة متسلطة بدلا من تحولها الى مخاوف عصبية أو انفعالات وتأثرات نفسية

كما أن هناك فرقاً آخر بين الظواهر العصبية القهرية وبين كل من الهستريا التحويلية والقلقية ، وهو أن النزعات المكبوتة فيها تكون من النوع الإيجابي الاعتدائي ، بمعنى أنه اذا حللت ذكريات المريض بالهستريا التسلطية فإنها قد تكشف عن سابقة قيامه في عهد الطفولة بدور البادىء أو المعتدي ، بينما النزعات المكبوتة في النوعين الآخرين من الهستريا (التحويلية والقلقية) تكون من النوع السلبي ، حيث باستقصاء تاريخ حياة المريض قد يستدل على سابقة تعرضه في عهد الطفولة بدور المجني عليه ، ولهذا كانت الهستريا التسلطية أكثر شيوعاً بين الذكور ، والهستريا التحويلية أكثر شيوعاً بين النساء .

أما فيما يختص بالإجراءات العقلية الباطنية التي بمقتضاها تتم عملية الاستبدال ، وتتكون الظواهر المرضية في الهستريا التسلطية ، فهي بعينها نفس الإجراءات التي مر بنا ذكرها عند الكلام على الهستريا التحويلية والهستريا القلقية ، أعني أن هذه الظواهر نتيجة النضال والصدام الواقع بين القوتين المتعارضتين من قوى النفس ،

غير أنه بسبب ما اعترى القوة الرادعة ، وهي قوة الكبت ، من وهن أو ضعف تتحول التأثرات أو الانفعالات الخاصة بالرغبات المكظومة إلى أعراض مرضية في صورة عقائد أو أفكار أو سلوك أو حالات متسلطة ، وبذلك يقضى تفادى ظهور تلك الرغبات في الشعور بشكلها الصريح .

فهي وسيلة من وسائل الدفاع ضد القوة المحتبسة لما يكنه المريض في أعماق نفسه من نزعات أو مشتهيات يرى في تحقيقها خطراً على نفسه ، أو بعبارة أصح خطراً على ذاته الشعورية وهي الأنا (The Ego) التي مر ذكرها عند التكلم على مظاهر النفس الثلاثة .

أما طبيعة الأفكار والهواجس المتسلطة التي تلازم المريض بهذا النوع من الأمراض النفسية فإنها متعددة الصور ولا حصر لها ، فقد تكون فكرة معينة تساور المريض في كل وقت ولحظة ، أو حالة تقوم بنفسه لأقل مناسبة بكيفية قد تقلق باله وتزعج خاطره ، ومع يقينه بأنها عارض مرضى ، وفكرة وهمية لا تقوم على أساس من العقل أو المنطق ، فإنه لا يجد من نفسه حولا ولا قوة على طردها من مخيلته ؛ فهي من هذه الناحية مثلها مثل الظاهرة البدنية التي استقلت عن إرادة المريض في الهستيريا التحويلية ، وغلبته على أمره وأصبح لا سلطان له عليها .

ومن رأى « فرويد » أن الهستيريا التسلطية تنطوى بلا استثناء على وجدانات لوم وتأنيب ذاتى ، صحبت ممارسة جنسية في عهد الطفولة تعذر كبتها كبتاً موفقاً فالتمست لها مخرجا في الحياة باستحالتها إلى أعراض تفكير قهرى بصورة نمطية ، أو فكرة ثابتة متسلطة ، فقد تبرز هذه الظاهرة في صورة نزعة مرضية إلى حب الاستطلاع ، حيث تتغلب على المرء فكرة الاستفهام عن كل أمر يقع تحت سمعه أو بمجرد خطوره بباله ، فلا يجد من نفسه قدرة على كبح شهوة الاستطلاع حتى

تجاه أتفه الأمور وأسخفها ، سواء كان مادياً أو معنوياً ، وقد يكون ذلك فى صورة استفهام موجه إلى الغير ، أو منقلب نحو النفس ، فتسود حياة المريض حالة قلق وعدم اطمئنان لعدم اقتناعه بالجواب .

وقد تتخذ هذه الظاهرة صورة تشكك أو تردد دائم ، وهو ما يعبر عنه أحياناً بهوس الشك (Folie du doute) ، فمثل هؤلاء المرضى تسود عقولهم ظاهرة التشكك أو التردد فى كل أمر أو شأن من شؤون الحياة ، فلا تطمئن أفئدتهم أو تستقر آراؤهم على رأى حتى فى أتفه الأمور ، وتلقاء أبسط المواقف ، فيشاهد المريض حائراً فى اختيار الموضع الذى يضع فيه كتاباً داخل المكتبة ، أو المكان الذى يضع فيه كوبة أو آنية على المائدة ، أو اختيار البدلة التى يفضل ارتداءها قبل خروجه لزيارة أو نزهة ، أو يحار فكره تجاه المكان الذى يمضى فيه ساعة فراغه ، أو قد يحار فى تكوين رأيه بأى القدمين يبدأ بلبس جوربه أو حذائه ، أو بأى قدم يخطو عتبة الدار أولا .

كما أن هنالك بعض الناس من يساورهم الشك عند وضع الخطابات فى مظاريفها فيعمدون إلى فتحها للتثبت من عدم وقوع خطأ عند تظريفها باستبدال بعض الخطابات مكان البعض (ولعل هذه الظاهرة وهى كثيرة الشيوع لدى هؤلاء المرضى ، حتى بين الأصحاء ولو بصـــــورة مخففة ، تدل دلالة ضمنية على ظاهرة الاستبدال التى انفصلت توجيها التأثرات الخاصة بالرغبات الجنسية المكظومة عن مركباتها ، ثم اتصلت بغيرها من شؤون الحياة العادية ، بمعنى أن فكرة الاستبدال المادى المتسلطة فى الظاهر تعبر تعبيراً رمزياً عن ظاهرة الاستبدال المعنوى القائمة فى الباطن) .

وقد تتخذ الفكرة المتسلطة صورة مخاوف قد يلتبس أمرها ، ويتعذر تمييزها لأول وهلة من المخاوف الهستيرية التى مر بنا ذكرها فى الهستيريا القلقية ، (ولعل

هذا مما حدا ببعض رجال فن العلاج النفسى إلى اعتبار المخاوف إطلاقاً ضمن الظواهر العصبية القهرية دون تمييز بين النوع القلق منها والنوع التسلطى) ، غير أنه مع التأمل وإمعان النظر نرى أن هناك فروقاً جوهرية بين كلا النوعين ، تتلخص فى الأوجه الآتية :

أولا — أن مخاوف الهستيريا القلقية (أو الفوبيا) تتخذ صورة رعب تجاه شىء معين بالذات ، أو موقف محدد يثير من النفس عوامل الخوف دون سواه ، لسابقة ارتباط الذهن بموقف مماثل بروابط التداعى فى ممارسة ماضيه ، فهى عبارة عن اضطراب نفسى نوعى Specifre neuroses ، بخلاف المخاوف التسلطية فإنها معرضة للتطور والتنقل ، فقد تساور النفس فكرة خوف من ناحية معينة ، أو موقف معين ، ثم يختفى هذا العارض إلى حين ، على أن يظهر فى المستقبل على صورة أخرى ، بمعنى أن المريض قد تتسلط على نفسه انفعالات الخوف من أن يلقى بطفله من النافذة كلما اقترب منها ، ثم تختفى هذه الظاهرة حيناً من الزمن على أن تحل محلها ظاهرة خوف من ناحية الأسلحة والسكاكين ناضية التى تقع عليها يد المريض خشية أن يذبح واحداً من أولاده أو من أهله ، أو قد تحل محلها ظاهرة خوف من أن يلقى بنفسه تحت عجلات القطار ، إذا ما حدث واقترب منه حال مروره ، فتراه يرجع القهقرى بضع خطوات لكى يكون فى مأمن من شر نفسه .

ثانياً — إن المخاوف التسلطية قد تدفع نفسها إلى المخيلة دون أن يكون لها فى الحياة الخارجية محرك ظاهر ، أو ما يدعو إلى إيقاظها ، فهى أقرب إلى التفكير التلقائى ، منها إلى التأثرات السلبية التى توقظها فى النفس المنبهات الخارجية عن طريق التداعى ، كما هى الحال فى الهستيريا القلقية .

فالمريض بالمخاوف المتسلطية قد تساور نفسه فكرة الخوف من الانتحار ، أو فكرة الاعتداء على الغير أينما ذهب وأينما جلس دون أن يكون لإيقاظ هذه الفكرة فى نفسه علاقة صريحة بالمؤثرات الخارجية ، أو ما يجعل تنبيهها متوقفاً على عامل معين فى الخارج .

فهى ظاهرة نفسية متعديه ، بخلاف المخاوف التى من نوع الهستيريا القلقية ، فإنها ظاهرة نفسية لازمة

ثالثاً — أنه فى المخاوف التسلطية إذا حللت ذكريات المريض المكبوتة فإنها تكشف عن ممارسة جنسية اعتدائية ، بخلاف المخاوف العصبية فى الهستيريا القلقية ، فإنها تنطوى على ممارسة جنسية قام فيها المريض بدور المعتدى عليه .

رابعاً — أن المخاوف التسلطية تدور غالباً حول خوف المريض من نفسه أو من نزعة باطنية ذات خطر ، بينما فى المخاوف الهستيرية يكون مصدر الخوف عاملا من عوامل البيئة الخارجية ومؤثراً خارجياً يثير خوف المريض .

* * *

وقد تبرز الأفكار المتسلطة فى صورة أعمال أو تصرفات يقوم بها المريض كلما تهيأت ظروف خاصة ، فلا يجد فى نفسه قدرة على كبح جماحها أو العدول عنها ، ولكن ليس هذا معناه أن الوجدانات المكبوتة تحولت إلى ظواهر بدنية ، وإنما التحول الحاصل لا يزال فى مستوى العقليات ، وأن ما يقوم به المريض أو يأتيه من الأفعال ما هو إلا نتيجة طبيعية لتلك الأفكار والأوهام المتسلطة . فمثلا من ضمن حالات هوس الشك (Folie de doute) التى مر ذكرها حالة تسود فيها عقلية المريض ظاهرة التشكك من ناحية إحكام إغلاق باب المنزل أو باب غرفة النوم ، فإن قيام هذه الحالة بنفس المريض من شأنها أن تدفعه إلى اختبار قفل

الباب مراراً وتكراراً ، كما أن هناك حالة أخرى يسودها التشكك من عدوى المرض (وهذه الحالة خليط بين الشك والخوف) ؛ فإنهما تدفع المرضى بهذه الفكرة إلى تطهير أيديهم أو ملابسهم أو أمتعتهم إذا ما خطر ببالهم أنها تعرضت للعدوى أو التلوث بلمسها من جانب الغير .

وهذه الظاهرة معروفة باسم (Mysophobia) وقد تبرز هذه الفكرة المتسلطة في صورة خيالات بصرية أو هواجس سمعية تشبه الهذيانات (Delusions) التي تساور المرضى بمرض العقائد الوهمية المعروفة باسم بارانويا (Paranoia) أو بالمرض المعروف باسم عته المراهقة (Dementia praecox) ، ولكنها تختلف عنها من حيث كون المريض بالهستيريا التسلطية يكون عادة واقفاً على حقيقة أمر نفسه ، وأن ما يراه أو يسمعه من الصور الحسية ، ما هو إلا مجرد أوهام أو خيالات ، لا ظل لها من الحقيقة ، غير أن ذلك لا يمنع إذا ما استفحلت أعراض العلة أن تنتهي بالمريض إلى هذيانات حقيقية .

وليست الأفكار المتسلطة وقفاً على مرضى النفوس ، بل قد تشاهد أعراض هذه الظاهرة في الحياة الطبيعية لدى الكثيرين من الأصحاء ، إنما بصورة مخففة ، فهناك من الناس من تغلب عليهم فكرة التردد في آرائهم عند الإقدام على أمر من الأمور .

وربما كان رجال القضاء أكثر الناس تعرضاً لهذه الظاهرة من سواهم ، حيث يوجد بينهم عدد غير قليل قد تسود عقليته نزعة التشكك والحيرة عند تكوين رأي قانوني أو إصدار حكم من الأحكام ، ومثل هذا القاضي يعرف في الأوساط القضائية بالقاضي الموسوس أو المتردد .

ويعزى سبب تردده إلى الإفراط في نزاهة الضمير ورقة الوجدان ، في حين أنها

وجدانات دفينة تستعر فى قرارة النفس فتنعكس حرارتها على حياتنا الشعورية وتصبغ تفكيرنا ومظاهر سلوكنا بصبغة الشك والتردد الذى هو رمز الخوف من الوقوع فى الخطيئة والتورط فى المعصية المكظومة فى أعماق اللاشعور .

كما أن هناك بعض الناس من إذا غلبوا على أمرهم فى الحياة ، وتخطاهم الغير فى مضمار التنافس والكفاح ، وتعطشت أنفسهم إلى تذوق لذة النجاح ، كظموا شهوة الغلبة والتفوق على الغير فى ميدان العمل ، ثم أخذوا يلتمسون لها مخرجا فى ميدان الوهم والخيال ، فتلك هؤلاء قد تغلب عليهم فكرة المنافسة حال السير فى الطرقات فتدفعهم إلى مسابقة المارة ، أو إلى بلوغ نقطة معينة قبل أن يبلغها عابر سبيل ، أو قبل أن تصل إليها دابة أو مركبة .

وهناك من الناس من يجد من نفسه دافعاً يدفعه حال مروره فى طريق مرصوف بالبلاط ، أو جسر « كوبرى » ملوح بالأخشاب إلى أن يطأ بقدمه البلاطة أو الخشبة الثانية أو الثالثة .

كما أن البعض قد يجد من نفسه مايدفعه إلى أن يقذف بقدمه كل قطعة من حجر يقع عليها بصره فى الطريق ، أو يدقها بقدمه كل صدفة أو ودعة يمر بها حال سيره على شاطىء البحر ، كما قد تغلب على بعض الناس نزعة عد كل ما يصل إلى أيديهم أو يقع تحت أبصارهم من الأشياء ، وما إلى ذلك من الظواهر التى ملئت بها حياتنا اليومية ، والتى لا سبيل إلى إحصائها أو حصرها .

وكثيراً ما تتكون الظاهرة المرضية للفكرة المتسلطة معقدة التركيب ، تشترك فى تكوينها مجموعة من العناصر أو المركبات النفسية المكظومة كالمركب الوالدى Oedipus Complex ، ومركب الميل لذات الجنس Homosexual complex ، ومركب الشبق الشرجى Anal-erotic complex ، ومركب العرض أو كشف العورة Exhibitionist complex .

وقد أورد الدكتور « باوز فيلد » فى كتابه « مبادىء التحليل النفسى » حالة مريض كان يعالجه من هوس الشك ، دلت إجراءات التحليل على أنه كان فى عهد طفولته مصاباً بأعراض الإمساك ، مما ألجأ والدته إلى إعطائه حقنة شرجية من حين لآخر ، وكان مظهره الخارجى وشكل لباسه يدلان على نزعة قوية إلى المرض وكشف البدن .

وقد اعترف بنزعة جنسية شديدة إلى ذات الجنس كانت غالبة عليه فى سن المراهقة ، حيث لم يكن وقتئذ يشعر بأية عاطفة أو ميل للنساء ، ولكنه استطاع كظمها بعد ذلك الحين ، وقد أصيب أخيراً بالبواسير فكان لها شأن فى إيقاظ مركب الشبق الشرجى من نفسه ، وبالأخص عند فحصه بمعرفة الطبيب ، وهو مما دعاه إلى التهرب من إجراء عملية جراحية ، وأن يفضل عليها المروخات والزيوت والحقن الشرجية ، مما أعاد لنفسه مؤثرات الماضى القديم وذكره بعهد الحقن التى كانت تعطيها له أمه وهو فى سن الرابعة .

وقد دلت حالة الفتى على شدة تعلقه بذكريات الماضى وتركيز نشاطه الغريزى فى أمه تركيزاً ارتبط فى ذهنه بشهوته الشرجية .

ويقول الدكتور باوز فيلد : لعل هذا هو السبب فى كبتة نزعته إلى ذات الجنس ، وفيما كان يبديه من الاحترام الزائد نحو السيدات احتراما يتمثل فى المبالغة فى الانحناء أمامهم ، كما كان يفعل تجاه أمه (ويلاحظ أن الانحناء هنا ليس مجرداً عن المغزى ، اذ له صلة بانحنائه القديم عند اعطائه الحقن) .

وقد تبرز الظواهر العصبية القهرية فى شكل نزعة متسلطة نحو الحريق وهو ما يطلق عليه اسم (Pyromania) ، أو جنون الحريق ، حيث يجد المريض من نفسه دافعاً قهرياً يدفعه إلى اللعب بالنار ، وقد تنتهى محاولاته إلى ارتكاب الحريق فعلا ، والحكم عليه جنائياً ، كما قد تتخذ صورة نزوع الى السرقة ، فلا يجد من نفسه قدرة على كبح جماح شهوة

نفسه نحو اختلاس متاع الغير ، وتسمى هذه الظاهرة Kleptomania أعنى جنون السرقة ، فكلتا الظاهرتين لا تخرجان عن كونهما مظاهر مختلفة من مظاهر الأفكار المتسلطة التي لا اختيار للمريض فيها ، ولا حول ولا قوة على صد تيارها ، فهي حركات نفسية انفصلت عن مركز الإدارة ، واستقلت بقوة ذاتية جامحة لا يملك المريض لها قياداً أو زماماً . ولا فرق في المسئولية بين ما يقوم به المريض بالهستيريا التشنجية Convulsive hysteria من تقلصات أو حركات تشنجية لا إرادية ، وما يقوم به المريض بجنون الحريق أو جنون السرقة من محاولات إجرامية . فإذا عرفنا حقيقة ما يخضع له مثل هؤلاء المرضى من عوامل نفسية قاهرة ، وما لها على نفوسهم السقيمة من قوة بأس وسلطان ، كان الطبيب أولى بهم من القاضي ، وكانت إجراءات التحليل النفسي أجدر بشفائهم من إنزال العقاب بهم وإيداعهم غياهب السجون .

هستيريا العقائد الوهمية Paranoid hysteria

إن هذا النوع من الهستيريا القائم على الأوهام المتسلطة يمكن اتخاذه كمقدمة لمرض العقائد الوهمية المتأصلة ، المعروفة باسم البارانويا الحقيقية True paranoia .

وهذا النوع من الهستيريا مثله مثل بقية أنواع الهستيريا التي تقدم ذكرها ، من حيث منشأ العلة وتكوين الأعراض ، فإنها قائمة على نظرية الكبت المرضى لما يحمله المريض في جعبة عقله الباطن من أفكار ومؤثرات يجدها فوق حد الطاقة والاحتمال ، فتتحول إلى أعراض مرضية في صورة معتقدات وهمية متسلطة ؛ غير أنها تمتاز على جميع الأمراض المتقدمة الذكر بتوفر الظاهرة المعروفة بالانعكاس Projection ، وهي ظاهرة من مقتضاها أن يلقي المريض ما يجده في

نفسه من نزعات أو رغبات مكبوتة على سواه ، فالمريض بهذا النوع من الهستيريا لا يرى في نفسه عيباً ، كما أنه قد لا يشعر من نفسه بوطأة الأوهام المتسلطة على عقله أو بأى عارض جثمانى ، فكل ما يحس أو يشعر به عيوب وهمية يراها فى الغير ، وبعبارة أخرى فإن الأفكار المتسلطة فى هذه الحالة تكون منعكسة على مرآة الغير ، فعوضاً عن أن يحس المريض بها من نفسه (كما فى هستيريا الأفكار المتسلطة) فإنه يحس بها فى سواه ، ويعتقد أنها من بضاعة الغير .

وكثيراً ما يشكو هؤلاء المرضى من مرئيات وهمية أو هواجس سمعية كما قد يحصل فى الهستيريا المتسلطة ، ولكن المريض بالأوهام الهستيرية paranoid hysteria يعتقد عادة فى صدق ما يرى أو يسمع ، فهى بالنسبة له حقائق لا أوهام ، كما أن الأوهام فى هذا النوع من الهستيريا تغلب فيها السمعيات أكثر من المرئيات ، وإن أظهر الأعراض وضوحاً فى الأوهام الهستيرية هى أوهام المريض وهواجسه المتعلقة بغيره من الناس ، فقد تتسلط عليه فكرة اضطهاده من جانب الغير ، أو تسود حياته العقلية هذيانات عشقية ، أو نزعة شديدة إلى الغيرة والحقد والحسد ، أو إلى الخيلاء والعظمة وفرط الاعتداد بالذات ، فإذا ما استفحلت هذه الأعراض فإنها قد تنقلب إلى « بارانويا » حقيقية فيصبح المريض فريسة نزعات إجرامية موجهة نحو الشخصيات التى لها شأن يذكر فى تخيلاته ، فيضمر لها فى نفسه حفيظة قد تؤدى به إلى ارتكاب القتل[(١)] .

---

(١) وقد تسنى لمحكمة جنايات أسيوط (مذ كنت مستشاراً بها) أن كشفت عن حالة بارانويا اضطهادية فى قضية الجناية رقم ١٢٥٨ بندر أسيوط سنة ١٩٤١ التى كان متهماً فيها شخص يدعى عطا الله عمر أحمد بياع سريح من أهالى ناحية درنكة بقتل زميل له يدعى حسن بخيت وقد ضبط المتهم متلبساً بجريمته واعترف أنه قتل المجنى عليه لأنه اتصل بعلمه أن القتيل حرض عليه شخصاً آخر لقتله . وعلى الرغم من أن الطبيب الشرعى قام باختبار المتهم من الناحية العقلية وقرر أنه سليم العقل حتى

ويقول رجال التحليل النفسى : إن معظم حالات هستيريا العقائد الوهمية (إن لم تكن جميعها) تنطوى على نزعة جنسية شديدة من الميل إلى ذات الجنس Homosexuality ، ولو أن المريض قد يجهلها فى نفسه كل الجهل .

وقد حاول « ستودارت Stoddart » من رجال التحليل النفسى أن يصور الاجراءات الباطنية لظاهرة الانعكاس لدى المصابين بهستيريا العقائد الوهمية على اختلاف مظاهرها ، فوضع لها الصور الآتية :

إن المريض بالبرانويا تبدأ لديه الاجراءات الباطنية (بفرض أنه رجل) بأن تقوم أولا بنفسه الصيغة الآتية « أنا أحب الرجل » وتظهر أنها نزعة ميل إلى ذات الجنس .

فهذه الصيغة تتحول إلى واحد من الفروض الآتية حسب نوع البرانويا أو النزعة التى تغلب عليها :

أولا — فى البرانويا الاضطهادية Persecuted-paranoia : « أنا أحب الرجل » وهو أول خاطر يرد على البال ، ولكن نظراً لأنه فوق حد الاحتمال فإنه ينقلب فى الذهن إلى الضد ، أعنى « أنا لا أحب الرجل ، أى أنا أكرهه » ، غير أن هذه الصيغة لا تلبث عن طريق ظاهرة الانعكاس أن تنقلب إلى الصيغة الآتية : « هو يكرهنى ، إذاً أنا مضطهد من جانبه » ، ومن ثم تنشأ العقيدة الاضطهادية الوهمية .

= ومسؤول عن عمله فقد اشتبهت محكمة الجنايات فى أمره وقررت إرساله لمستشفى الأمراض العقلية لفحصه بمعرفتها ، وقد ظهر من نتيجة مراقبته بالمستشفى أنه مصاب بمرض العقائد الوهمية من النوع الاضطهادى ، وأنه غير مسئول عن عمله وقت ارتكاب الجريمة ، فقضت محكمة الجنايات ببراءته وإيداعه مستشفى الأمراض العقلية ، وقد وضع مدير المستشفى تقريراً مفصلا بحالة المتهم يصح أن يكون موضوع دراسة ، ولكن يؤسفنى أن يضيق المقام لإيراده هنا بنصه .

ثانياً — فى برانويا الخيلاء Exalted paranoia : « أنا أحب الرجل » غير أنه نظراً لكون الشعور لا يهضمها فإنها تنقلب إلى الصيغة الآتية : « أنا لا أحب الرجل ، أنا أحب نفسى » ، ولكنها لا تلبث عن طريق ظاهرة الانعكاس أن تنقلب إلى ما يأتى : « كل إنسان يحبنى إذاً أنا رجل عظيم » .

ثالثاً — فى برانويا التدين Religious paranoia : « أنا أحب الرجل» أو بعبارة أخرى « أنا أحبه (هو) » ، والضمير هنا عائد على الخالق أعنى « أنا أحب الله » وهذه العبارة عن طريق الانعكاس تنقلب إلى « إن الله يحبنى » ، وبناء على هذا « إن الله اصطفانى » .

رابعاً — فى البرانويا العشقية Amorous paranoia : « أنا أحبه » تنقلب إلى « أنا لا أحبه بل أحبها » ، وهذه عن طريق الانعكاس تنقلب إلى « هى تحبنى أو تعشقنى » .

خامساً — فى برانويا الغيرة Jealous paranoia : « أنا أحبه » تنقلب كالمعتاد الى « أنا لا أحبه » ، ثم الى « هى تحبه » .

سادساً — فى برانويا المرض Hypochondrical paranoia : يبدأ الإجراء العقلى كما فى برانويا الخيلاء « أنا أحبه » ثم تتحول الى « أنا لا أحبه — أنا أحب نفسى — تجب العناية بنفسى » .

ومما تقدم يرى أن البرانويا الهستيرية على تعدد صورها وأشكالها قائمة على ظاهرة الانعكاس ، وأن هذه الظاهرة تعد من أقوى مميزات هذه العلة عن سواها من مجموعة الأمراض العصبية التى مر بنا ذكرها ، كما تمتاز بها عن المرض المعروف بعته المراهقة[١] Dementia praecox الذى تسوده ظاهرة تسمى : (ظاهرة الاندماج Identification) ، والتى من مقتضاها يندمج المريض كل ما يحيط به

(١) والمصطلح عليه حاليا بالفصام أو الاسكيزوفرينيا Schizophrenia .

من الموجودات فى نفسه ، ثم يقطع صلته بعالم الحقيقة ليعيش حالما فى عالم من الأوهام والخيالات كما يعيش الشخص السوى فى عالم الاحلام أثناء النوم .

* * *

وقبل أن نختتم الكلام على الأمراض العصبية النفسية يجدر بنا الإشارة إلى وسائل علاج هذه الأمراض . وهذه الوسائل تتلخص إجمالا فى أمور ثلاثة ، تعد بحق الوسائل الرئيسية لعلاج الأمراض النفسية بصفة عامة ، وهى : التحليل النفسى ، والإيحاء ، والتنويم .

أما من حيث التحليل ، فإن رجال العلم مجمعون على أنه أنجع وسيلة لمعالجة الأمراض العصبية النفسية على الإطلاق . والعلامة فرويد (وهو رب التحليل كما يقولون) يرى أنه العلاج الوحيد الناجع فى شفاء هذه المجموعة من الأمراض لا يفضله أى علاج آخر ، اذ من شأنه أن يستأصل شأفة العلة من منبتها وجذورها وهو أشبه شىء بعملية فتح البطن لشخص مصاب بخراج باطنى أو بعلة أو مرض عضال فى الداخل ، ولا يعتبر العلاج بالتنويم المغناطيسى أو بالإيحاء إلا كمجرد وسيلة وقتية لتسكين الأعراض تسكينا سطحياً دون تناول أصل العلة من أساسها ، فمثل كل منهما مثل المخدر الذى يسكن آلام الداء الدفين ولكن إلى حين . غير أن هنالك من جهابذة العلم وأبطال التحليل من خالفوا رأى ذلك الأستاذ العظيم ، وقالوا بإمكان شفاء طائفة من الأمراض النفسية عن طريق التنويم شفاء ناجعاً ، وبصفة خاصة الهستيريا التحويلية مستندين فى ذلك على ما أيدته تجاربهم واختباراتهم الشخصية . وإنى بهذه المناسبة أذكر إنى وفقت مرة إلى شفاء مريضة بنوبات هستيرية تشنجية ثقيلة الأعراض عن طريق التنويم فى بضع جلسات لم تزد على ثلاث أو أربع (ولعل هذا من قبيل المصادفات) ، وكان ذلك فى عام ١٩٢٥ ، ولحسن الحظ لم تعاودها الأمراض حتى الآن من ذلك الحين .

ونظراً لأن لعلاج هذا النوع من الأمراض النفسية من شأن قد يهم القارىء فقد أفردنا له بابا خاصا فى نهاية هذا الكتاب .

أما وقد فرغنا من الكلام عن مجموعة الأمراض العصبية النفسية ، فلم يبق أمامنا سوى التكلم عن الشق الثانى من الأمراض العصبية الفعلية The actual neuroses ، طبقاً للنظرية الفرويدية . وقد عرفنا مما سبق أن هذه الأمراض تشمل نوعين من الأمراض العصبية : الأول القلق العصبي Anxiety neurosea ، والثانى الضعف العصبي Neurasthenia ، وأن لكل منهما أسباباً وأعراضاً ومميزات خاصة ، ولذا يحسن التكلم عن كل منهما منفرداً ، ولنبدأ بالكلام أولا عن النوع الأول منها .

القلق العصبي The Anxiety Neurosis

لقد سبق لنا القول عند الكلام عن النظرية الفرويدية بوجه عام أن الأمراض العصبية الفعلية (وهى القلق العصبي والنوراستانيا) لها صلة وثيقة بالحياة الجنسية العملية للمريض وبأسلوب ممارسته العملية الجنسية وسلوكه تجاهها ، وأن بذور العلة وعناصر الداء يجب البحث عنها فى هذا الميدان ، بخلاف الأمراض العصبية النفسية التى منشؤها ذكريات الماضى وما يصحبها من وجدانات مكظومة ، فالأمراض النفسية فى الواقع أمراض مشاعر ووجدانات ، أو بعبارة أصح هى أمراض تفكير ، بينما الأمراض العصبية الفعلية هى أمراض ممارسة وعمل ، سواء أكانت قلقاً عصبياً أم نوراستانيا ، غير أن لكل نوع منهما أسباباً تناقض أسباب النوع الآخر : فإن القلق العصبي مرجعه وجدانات القلق المترتبة على عدم إرواء ظمأ العاطفة الجنسية من ناحية من نواحيها المتعددة وتراكم هذه الوجدانات وتجمعها فى المجموع العصبي على مر الأيام ، بينما النوراستانيا ترجع فى معظم الحالات إلى الإفراط فى الممارسة الجنسية إفراطاً من شأنه إجهاد المجموع العصبي وإنهاكه . فأحد المرضين نتيجة التحرق أو الجوع الجنسى ، بينما الثانى نتيجة الإفراط أو التخمة الجنسية .

أما التعطش الجنسي الذي يورث ظواهر القلق فقد يكون سببه إما التمادي في العفة إلى حد إنكار المرء ما للغريزة الجنسية من واجبات طبيعية وحقوق ، وإما ممارسة جنسية بأسلوب من شأنه عدم إرواء العاطفة الجنسية إرواء كاملا ، وكلا الأمرين مما يؤدي بالنفس إلى كظم الشهوة الجنسية أو قسط منها ، مع ما يصحب ذلك من وجدانات قلق وعدم طمأنينة ، فلا يلبث الإحساس بالقلق أن يتراكم في المجموع العصبي على مر الأيام حتى يطفح به الإناء ويبلغ السيل الزبى ، فتفيض وجدانات القلق المتجمعة خلف حواجز الكبت المقامة في مجرى الغريزة الجنسية ، وتطغى على ما عداها من شؤون الحياة العملية في مختلف الميادين ، فتسود حياة الإنسان وجدانات القلق الحائرة التي انفصلت عن سببها الأصلي لكي تتصل بأمور أو خواطر بعيدة عن النزعة الجنسية كل البعد ، فيتصل وجدان القلق اليوم بشأن من شؤون الحياة ، ثم يتخلى عنه في غده ليتصل بسواه ، وهكذا يصبح وجداً هائماً بالنفس لا يستقر على حال .

فالمريض بالقلق العصبي سريع الانزعاج لأقل طارىء أو عارض ، فيسود حياته جو من القلق على حياة نفسه ، أو حياة الغير من أقرب الناس إليه ، فإن أحس مثلا بألم فيما يقابل القلب من عضلات الصدر ، أوجست نفسه خيفة من السكتة القلبية ، وإن اعتراه مغص في الخاصرة اليمنى توهم نفسه مصابا بالتهاب في الزائدة الدودية ، وإن شعر ببعض الألم في المعدة ظنه سرطاناً ، وإن سمع بموت شخص موتاً فجائياً تولته نوبة جزع على حياة نفسه .

وقد يدفعه القلق إلى الفضول في استطلاع أسباب كل حالة وفاة تتصل بعلمه ، ثم يأخذ في تطبيق الأعراض على نفسه ، وإذا مرض له قريب أو عزيز بالغ في القلق على حياته ، وغشيته هزة من الرعب ، وساورت نفسه أسوأ الظنون ، وغلبت على أفكاره أخطر النتائج ، فيرتسم لناظريه نعش المريض أو جدثه ،

ويدوى فى أذنيه عويل الثكالى ، وصراخ النائحين من الأهل والأقربين .

وقد يسود حياة المريض نوع من القلق المبهم الذى لا يعرف له مصدراً أو سبباً ، فتعترى النفس حالة رعب تحاكى رعب الخائف من الظلام يوجس الشر ، ويتوقع الخطر كل لحظة ولا يدرى من أية ناحية يأتيه .

أما العوامل التى تسبب حالة القلق العصبى فكثيرة متنوعة ، ويمكن تقسيمها إلى عوامل سلبية وعوامل إيجابية .

أما العوامل السلبية فإنها تقوم على أساس توالى كبت الشهوة الغريزية للميول الجنسى ، إما اختياراً كما فى الرهبنة ، وإما جبراً بحكم الظروف القاهرة ، وإما رضوخاً لأحكام البيئة والتقاليد .

فالإفراط فى العفة من أهم عوامل القلق العصبى ، وبالأخص إذا كانت العفة مقترنة بمخالطة بريئة بين الجنسين ؛ فالكثير من الأعراض العصبية التى يتعرض لها بعض الناس ، وفى الغالب من الطبقات الراقية أو من عظماء الرجال ، قد يكون سببها كظم الشهوة الجنسية وكبح جماح الميول الغريزية بشىء من القسوة ، « فالقابض على دينه كالقابض على الجمر » كما يقول الحديث الشريف . فمثل هذه الأعراض لا تعيب صاحبها ، فهى فى هذه الحالة رمز للعفة والفضيلة .

وأيضاً من ضمن العوامل السلبية للقلق العصبى كبت النزعات التى تتألف منها الغريزة الجنسية فى حياة الزوجين ، وبالأخص إذا كانت النزعة المكبوتة مما تتعلق بمركب الشهوة الجثمانية ، ففقدان التوازن بين الزوجين فى الميل ، واختلاف الطبيعة والمزاج ، وانعدام التناسب بينهما ، وتباين الاستعدادات ، وكذا الجهل بدخائل النزعات الجنسية الدفينة فى النفس وما تتطلبه من أساليب خاصة وترضيات معينة ، كلها من الأمور التى تهيىء فى النفس ظواهر القلق .

أما العوامل الإيجابية التي تسبب القلق العصبي فيمكن اجمالها في قاعدة واحدة وهي الإدمان على ممارسة غير طبيعية أو بكيفية يتبقى عليها عدم إرواء ظمأ النزعات الجنسية بأي وجه من الوجوه .

وبناء على ذلك يقع تحت هذه القاعدة مزاولة العملية الجنسية والتماس الشهوة الجثمانية بأساليب غير طبيعية لا تعطي الغريزة الجنسية الترضية الكافية .

فقد يضطر بعض الشبان تحت تأثير اعتبارات خاصة الى مزاولة العملية الجنسية مع خليلاتهم مزاولة بتراء ، كما أن بعض الأزواج قد يلجأ الى اختزال العملية الجنسية قرب نهايتها تفاديا من الحمل ، وهو ما يسمى اصطلاحاً Coitus Abruptus أعني « العزل » أو الجماع المقتضب أو الأبتر .

وهناك من يلجأ الى التحايل على حبس الشهوة تعمداً ، والاستعانة على ذلك بقوة الإرادة ، أو بتخيل أمور مقبضة أو محزنة كلما قاربت الشهوة الإنزال بقصد اطالة مدة الجماع Coitus delibratus ، أو بقصد تعويق الإنزال ، أو ارجائه الى فرصة أخرى Coitus reservatus .

ولعل من بين العوامل التي تورث القلق العصبي تكرار ممارسة العملية الجنسية ممارسة غير شرعية ، وفي ظروف محرجة لا تطمئن النفس اليها . حتى ولو كانت إجراءات العملية في ذاتها طبيعية لا انحراف فيها ، وذلك بسبب ما يسود النفس من الشعور بالخطيئة ، وتجمع انفعالات الخوف والقلق التي تشحن بها الأعصاب خلال تلك الفترات ذات الموقف الخطر ، خصوصاً إذا روعي أن الإنسان أثناء العملية الجنسية ، أو في الفترة التي تليها مباشرة ، تكون نفسه شديدة الحساسية سريعة التأثر بالإيحاء الذاتي ، تستطيع فيها المؤثرات التوهمية ، وتترك العوامل النفسية فيها أثراً بليغاً ، كما لو كان المرء في شبه غفوة أو سنة من التنويم .

وبجانب العوامل الجنسية قد توجد عوامل أخرى من شأنها أن تثير في النفس مظاهر من القلق لا تختلف عن مظاهر القلق العصبي الناشيء عن العوامل الجنسية .

فقد دلت الحرب العظمى على أن تكرار تعرض الجنود في ميدان القتال للخطر قد يورث مثل هذه الأعراض ، غير أن العلامة فرويد لا يبرىء حتى مثل هذه الأعراض من العامل الجنسي ؛ ويقول الدكتور بوزفيلد : إنه أتيحت له فرصة تحليل مجموعة وافرة من حالات القلق العصبي الخاصة بالحرب ، فاستطاع أن يكشف في الكثير منها عن نزعة حب لذات الجنس مكظومة .

كما أن أعراض القلق قد تصيب بعض الناس على أثر اهتمامهم وفرط عنايتهم بشخص مريض عزيز عليهم تكون حياته في خطر .

وقد تشاهد أعراض القلق ولو بصورة مخففة في الحياة العادية عند تعرض الإنسان لظروف أو مواقف تثير في نفسه وجدانات الخوف أو القلق ، كما يلاحظ على الطلبة أو التلاميذ أثناء الامتحانات العامة ، وربما كان لبعض مواقف الامتحانات أثر قد يدوم في النفس مدى الحياة ، كما يستدل على ذلك من الأحلام الخاصة بها التي تعاود الإنسان في مستقبل حياته من حين لآخر ، حتى ولو بعد عشرات السنين .

وربما كان بعض أعضاء النيابة عرضة لنوع من القلق العصبي ، قد يتعرضون له حال اشتغالهم في مراكز تكثر فيها الحوادث الإجرامية بسبب كثرة إزعاجهم ليلا بالبلاغات الجنائية ، فتصبح أعصابهم شديدة التأثر والانفعال ؛ ويمسي نومهم مضطربا قلقاً ، تزعجهم رنة جرس التليفون ، أو وقع خطى رجل البوليس ، أو طرقة أي طارق على الباب إزعاجا شديداً .

أعراض القلق العصبي :

إن هذه الأعراض يمكن تقسيمها إلى قسمين : أعراض نفسية ، وأعراض بدنية .

أما الأعراض النفسية فهي إحساس بفزع أو مخاوف عامة مبهمة ، أو قلق على النفس من خطر داهم مفاجيء ، أو من مرض مميت من أي نوع كان ، أو من سكتة قلبية — قلق دائم أو متقطع ، وعدم القدرة على النوم العميق مع اضطراب في الأحلام ، وتغلب الأحلام المزعجة — الاهتمام الزائد بصغائر الأمور وأتفه الشؤون — عدم المقدرة على حصر الفكر ، مع ضعف في الذاكرة ، وعدم الثقة بالنفس — تعترى المريض نوبات انحطاط وهبوط ، كما تعتريه نوبات تهيج في الطباع مع تنبيه زائد في الأعصاب والحواس ، وبالأخص حاسة السمع ، فيزعجه حفيف النسيم أو تردد قطعة من الورق أو القماش في الهواء ، وإذا فتح شخص جريدة بالقرب منه أو طواها كان لها في أذنه صوت كأنه الرعد القاصف — اعتقال اللسان أو عدم طلاقته ، وبالأخص عند مقابلة الأغراب (إنما إذا كانت هذه الظاهرة غير مقترنة بعسر في التنفس كان ذلك قرينة على أنها مسترها أكثر منها قلق عصبي) — تكون عواطف المريض غزيرة فياضة سريعة التأثر ، يبكي لأتفه الأمور .

أما الأعراض البدنية فتتلخص فيما يلي : اضطراب في ضربات القلب مع سرعة في النبض[1] ، وضيق في التنفس مع قصر فترات التنفس ، وتوتر في عضلة الحجاب الحاجز ، مما يجعل التنفس سطحياً وغير عميق ، يغلب عليه كونه بقمتي

(١) مما يحمل المريض أحياناً إلى جس نبضه مراراً وتكراراً .

الرئتين دون القاعدتين — احتقان الأطراف بالدم الوريدى مع برودتها — ارتفاع فى ضغط الدم — توتر فى العضلات وفى المجموع العصبى — اختلال فى وظائف الغدد الباطنية (أو الصماء) — فقد الشهية للطعام — دوار فى الرأس وصداع — هزة أو رعشة عصبية مع زيادة التنبيه فى الأفعال المنعكسة أو ردود الفعل — عنة مع فقد الشهية للجماع — نوبات تهوع وغثيان مع زيادة فى إفراز العرق أو نوبات دوار وقىء .

وإن اجتزاء كلمة عن علاج القلق العصبى قد لا يعد خروجا عن الموضوع أما وسائل العلاج فيمكن جمعها شطرين ، علاج نفسى وعلاج دوائى أو جثمانى .

أما العلاج النفسى فإن أهميته تتوقف على مبلغ ما يصحب حالة القلق من مركبات نفسية مكبوتة ، مما يجعل الحالة خليطاً بين الهستيريا والقلق العصبى ، حيث فى هذه الحالة يصبح التحليل النفسى إجراء لا بد عنه لحل هذه المركبات وتطهير نفس المريض منها ، وفى الواقع قل أن توجد حالة قلق عصبى دون أن تكون مختلطة إلى حد ما بأعراض نفسية أخرى ، غير أنه إذا كانت المركبات المكظومة غير متعلقة بالغريزة الجنسية بل بغريزتى الذات والاجتماع أو بإحداها ، كوجدانات الخوف الخاصة بحوادث القتال وأخطار الحرب المكظومة ، فإن لشفاء النفس منها إجراء آخر قد يغنى عن التحليل ، وهو معروف فنياً باسم التطهير أو التفريغ Abreaction ، والتى من مقتضاها أن يُحمل المريض على التحدث بمتاعبه الداخلية وذكرياته المؤلمة التى تنفر نفسه من التحدث بها أو من مجرد التفكير فيها .

فقد دل الاختبار على أن الجنود والضباط الذين يتظاهرون بالشجاعة وعدم الاكتراث بويلات الحرب وأخطار القتال التى كابدوها أو تعرضوا لها فى الميادين هم أكثر تعرضاً للإصابة بالاضطرابات العصبية ، وبالأخص ظاهرة

القلق العصبي ، أو الظاهرة المعبر عنها بصدمة القنابل Shell Shock(١)، وما ذلك إلا بسبب كبتهم انفعالات الخوف والرعب في أعماق نفوسهم أو كظمها دون الإفصاح عنها بالشكوى أو الكلام ، فتبقى هذه الانفعالات المكنونة في صدورهم مصدراً مستمراً للقلق والاضطراب ، كما أن كثيراً من الناس لا يقوون على مواجهة متاعبهم وآلامهم النفسية الماضية ، فإذا ما سئلوا عن علة إحجامهم عن التفكير فيها أو التحدث بها عللوا ذلك بما قد تثيره ذكريات الماضي في نفوسهم من أوجاع وآلام ، وما دروا أن في الإفصاح عما تكنه صدورهم من الأدواء خير وسيلة للشفاء منها ، في مثل هذه الحالات يشير الطبيب عادة على المريض بأن يحدثه بمتاعبه وآلامه دون خوف أو وجل نحو ساعة أو نصف ساعة في كل يوم ، ويواجه ذكريات الماضي الرهيب بشجاعة ، فقد يلاحظ عند بدء العلاج سيلا من الانفعالات والتأثرات النفسية يتدفق إلى مخيلة المريض ، فتتولاه نوبة اضطراب وفزع ، ولكن لا يلبث أن تنقشع عن سويداء فؤاده وجدانات القلق والانزعاج التي طالما استأثرت بلبه واستوطنت قلبه ، ويحسن لفت نظر المريض إلى ما ستكون عليه حالته النفسية عند بدء العلاج ، وتفهيمه بأنه كلما اشتد به التأثر والانفعال كلما قوى الأمل في الشفاء من تلك الوجدانات المكظومة التي اندفعت إلى ميدان الشعور تلتمس لها مخرجا .

وبمجرد بدء هؤلاء المرضى في التحدث عن ذكريات القتال وأخطار الجهاد يلاحظ أن أحلامهم المزعجة يشأنها تأخذ في التناقص والاختفاء ، وتخف وطأتها تدريجيا حتى تتلاشى نهائيا في أسبوعين أو ثلاثة .

وقد يشاهد في بعض حالات القلق العصبي الناشيء عن المرض خطرات

---

(١) وقد استعيض عن هذا الاصطلاح أخيراً بصدمات الميدان War Neurosis

الميدان أن تكون ممتزجة بظواهر قلق أخرى عن طريق الصفة الجنسية ، أو انحراف في الممارسة التناسلية ، أو تختلط بأعراض بعض الظواهر العصبية الأخرى كالهستيريا أو الأفكار التسلطية ، وهو مما يجعل الحالة أكثر دقة وللعلاج أكثر تعقيداً .

وبجانب إجراءات التفريغ أو عملية التطهير قد يدفع المريض قيامه ببعض التمارين العقلية لتقوية الانتباه وقوة حصر الفكر ، وكذلك بعض التمارين البدنية التي ترمي إلى بسط العضلات وإزالة حالة التوتر العصبي والانقباض العضلي ، وبالأخص عضلات البطن والحجاب لتقوية التنفس وجعله عميقاً إلى أبعد حد ممكن .

كما أن الإيحاء سواء كان شعوريا (أي أثناء اليقظة) ، أو لاشعوريا (عن طريق التنويم أو أثناء النوم) قد يكون له شأن يذكر في معاونة الشفاء وإزالة بعض الأعراض الثقيلة ، أو التخفيف من حدتها ، مثل الأرق وأوجاع الرأس .

أما العلاج الدوائي فيرمى إلى تخفيض الأعراض والتلطيف من حدتها ، ولما كان من أهم هذه الأعراض المرضية ارتفاع ضغط الدم ، فإن تناول جرعات من النتروجلسرين قبل النوم قد تكون له فائدة محسوسة في تخفيف الضغط ، وبالتالي إزالة ألم الرأس وزيادة قابلية المريض للنوم ، وإذا كان المريض مصاباً بالإمساك ، فيعمل على إزالته بالتمارين البدنية ، أو باستعمال بعض الملينات كالسنا الحجازي (سنامكي) والفحم النباتي .

ولعلاج إفراز العرق يعطى المريض جرعات خفيفة من صبغـة ست الحسن (البلادونا) .

الضعف العصبي أو النوراستنيا

Neurasthenia

إن مرض الضعف العصبي أو النوراستنيا بالمعنى الصحيح ، ليس من الأمراض الشائعة ، أو الكثيرة الانتشار كغيره من الأمراض العصبية ، كما يظن لأول وهلة ، ولو أن الكثير من الناس يخلط بينه وبين غيره من الأمراض العصبية ، وبالأخص القلق العصبي الذى كثيراً ما يطلق عليه اسم نوراستنيا خطأ .

ومن رأى العلامة فرويد (وقد شايعه الكثيرون من أعوانه) أن هذا المرض منشؤه الإفراط فى العملية الجنسية إلى حد إنهاك المجموع العصبي وإجهاده ، حتى يحل به السقم والضعف .

وربما كان الإفراط فى العادة السرية ، المعروفة بجلد عميرة ، من أهم العوامل التى تسبب لدى الشباب أعراض هذا المرض لسهولة تناولها والإفراط فى مزاولتها ، بل ربما كان الإفراط فى بعض الأحيان من عوامل حالات النوراستنيا الممتزجة بالقلق العصبي ، لما تنطوى عليه ممارستها من شعور بالخطيئة والاعتقاد بالضرر الجثمانى على حد ما هو شائع بين الناس .

غير أن بعض العلماء قد خالف « فرويد » الرأى فى جعل سبب النوراستنيا مقصوراً على الإفراط فى الممارسة الجنسية ، فقد أرجعها البعض إلى نوع من التسمم الذاتى الناشىء عن فساد فى الجهاز الهضمى ، أو خلل تطرق إلى وظائف الغدد الصماء ، ويرى البعض أن النوراستنيا قد ترجع إلى مجموعة من العوامل والأسباب التى من شأنها إجهاد المجموع العصبي بأية كيفية كانت .

أما الأعراض الفكرية — فهى ضعف فى القوى المعنوية وشعور بالإعياء والتعب لأقل مجهود عقلى أو جثمانى ، وفى كثير من الأحيان قد يستنفد مجرد تفكير المريض فى أمر كل ما لديه من جهد مقدماً قبل القيام به ، وكثيراً ما يشعر المريض بآلام فى الرأس تكون عادة فى المؤخرة ، كما يشعر بضغط على المخ ، وبالأخص فى القمة أو التاج ، وقد يشكو بآلام فى العمود الفقرى أو ضعف فى النخاع ، وفى بعض الأحيان قد يعترى المريض أرق ، ولكن ليس الأمر كذلك فى غالب الأحيان . وفى الحالات المستفحلة يفقد المريض كل قدرة على حصر التفكير مع ضعف متناه فى الذاكرة ، وقد يفقد المريض كل ثقة له بنفسه .

أما الأعراض الجثمانية — فهى ارتخاء فى العضلات مع بطء فى الأفعال المنعكسة ، أو ردود الفعل وانخفاض فى ضغط الدم عن الحد الطبيعى بالنسبة لسن المريض وحالته الجثمانية . ومن أظهر علامات هذا المرض ضعف جثمانى عام وهزال مع تمدد محسوس فى حجم المعدة ، كما يشكو المريض من انتفاخ فى الأمعاء ، وقد تساور المريض بسبب ذلك بعض أوهام مرضية Hypochondriacal ideas ؛ ولكن تكون مجردة عن المخاوف العصبية Phobias أو الأفكار المتسلطة Obsessions .

العلاج — حتى الآن لم تفد وسائل التحليل النفسى فائدة تستحق الذكر فى علاج النوراستنيا ، وربما كان ذلك سبباً فى تشكك بعض علماء النفس فى اعتبار هذا المرض ضمن الأمراض العصبية الوظيفية بالمعنى الأخص ، وترجيح اعتباره مرضاً عضوياً من أمراض الجهاز العصبى ، غير أنه لما كانت حالات النوراستنيا قل أن توجد مجردة ، بل غالباً ما تكون ممتزجة ببعض الأعراض الهستيرية ، فإن العلاج النفسى قد يكون له فى هذه الحالة شأن لا يستهان به ،

فضلا عن أن التحليل النفسي قد يكون عظيم الفائدة في درس عقلية المريض ، والوقوف على طبيعة استعداده ومزاجه ، وتوجيه حياته العملية إلى الناحية الأكثر ملاءمة لهذا الاستعداد ، كما أن للتحليل النفسي أثراً بليغاً في تهذيب النزعات الباطنية للمريض ، وتنظيم قواه الفكرية ونشاطه النفساني واستغلاله هذا النشاط عمليا خير استغلال .

وأهم وسائل العلاج في النوراستنيا هي الراحة والهدوء ، وتغيير البيئة ، وممارسة بعض التمرينات البدنية الخفيفة التي لا تتطلب من الإنسان مجهوداً كبيراً ، على أن تكون ممارستها في الهواء الطلق ، وتحت أشعة الشمس الطبيعية ، وعلى فترات وجيزة تجنباً للاجهاد ، وقد يستغرق العلاج مدة لا تقل عن ستة شهور ، وبعض الأطباء لا ينصح المريض بتبديل الهواء على شاطيء البحر ، ويفضل عليه هواء الريف .

نظرية فرويد فى تفسير الأحلام

ربما كان عنوان الموضوع داعياً إلى التساؤل : ما بال رجل القانون والمحقق المفروض فيه أنه رجل حقائق ووقائع ، مهمته كشف الحوادث المادية ، وإثباتها بالدليل المحسوس والبرهان الملموس ، يخوض غمار بحث هو إلى الأوهام والخيالات أقرب منه إلى الحقائق والمشاهدات ؟ فإنه معروف عن تفسير الأحلام منذ القدم أنه ضرب من ضروب التكهن بالغيب والإنباء بالمستقبل ، وقد وصفه العلماء بأنه نوع من أنواع الشعوذة والتدجيل ، ولكن حاشا أن يكون هذا مقصدنا من تفسير الأحلام ؛ فإننا لا نزال رجال حقائق ومشاهدات لا رجال أوهام وخزعبلات ، فما قصدنا أن نتكلم عن نبوءة الأحلام أو علاقتها بكشف الغيب والمستقبل ، بل قصدنا الوقوف على ما وصلت إليه بحوث العلماء فى العهد الأخير عن علاقة الأحلام بحاضر الإنسان وماضيه ، وربما بمستقبله القريب ، لا عن طريق التكهن بالغيب ، بل عن طريق ارتباط المقدمات بالنتائج ؛ فقد أثبت العلم أخيراً أن للأحلام معانى ومرامى لا تقل فى غرابتها عن الإنباء بالغيب ، فهى وإن كانت تدل على أمور حاصلة بالفعل ، أو حصلت فى الماضى ، إلا أنها مجهولة لنا فى أكثر الأحيان تمام الجهل ، وإن صح أن يسمى المجهول من أمورنا مما يستعصى علينا كشفه غيباً ، جاز لنا القول إن الأحلام تكشف لنا الغيب من هذه الناحية .

فإلى عهد غير بعيد كانت زمرة العلماء ترمى الأحلام بالسخف والازدراء لاعتقادهم أنها إن هى إلا مجموعة من مختلف الصور الفكرية المتناقضة والتى لا رابطة بينها ، تجتمع فى المخيلة عند النوم على غير هدى كما تتجمع

قصاصات الورق فى سلال النفايات ، ولذلك فهى لا تستحق فى نظرهم اهتماما أو درساً أو بحثاً ، ولم تتجه أنظار العلماء إلى بحث الأحلام من الوجهة العلمية وتحليلها نفسياً إلا من عهد قريب ، حيث أظهر الاختبار ودلت التجربة على أن للأحلام معانى باطنية ، ومرامى خفية تدل على ما يكنه الإنسان فى أعماق نفسه ، ويحفظه فى سويداء قلبه ومستودع عقله الباطن من الحوادث والمؤثرات النفسية التى قد يتعذر عليه الوقوف عليها أو كشفها فى اليقظة ، فتظهر فى الرؤيا ، ولكنها لا تظهر غالباً بحقيقتها ، بل فى شكل رموز أو طلاسم ، فمن استطاع حلها أمكنه فهم معانيها وإدراك مراميها .

فالأحلام « ترجمان النفس » أو بعبارة أخرى هى « لغة العقل الباطن » ولكنها ليست لغة كلامية أو لفظية ، بل لغة رمزية قواعد التعبير فيها قائمة على الصور الرمزية المنبعثة من ملكة الخيال ، وهى فى تعابيرها الرمزية قريبة الشبه بالهيروغليفية ، أعنى كلماتها وعباراتها مؤلفة من مجموعة من الصور والرموز ، ولهذه اللغة نحو وقواعد ، فمن درس نحوها وقواعدها استطاع قراءتها ، وأن جهود العلماء ترمى الآن إلى حل رموز هذه اللغة الأثرية فى تاريخ العقل البشرى ، ودرس قوانينها وقواعدها ، وتدل المقدمات على أنهم بإذن الله واصلون .

وأول من لفت نظر العالم نحو تفسير الأحلام تفسيراً علمياً هو ذلك الطبيب النمساوى الذائع الصيت العلامة « زجمند فرويد » ، ولعل الفضل فى هذا المكتشف الخطير يرجع إلى التجارب التى كان يجريها أثناء معالجته مرضاه بطريقة التحليل النفسى ، فإنه أدرك بالاختبار المتكرر أن بين الأحلام والحالات النفسية التى يشكو منها هؤلاء المرضى ارتباطاً وثيقاً وتشابهاً ، فوجه ذلك الارتباط نظره إلى دراسة الأحلام وحل رموزها ، وبعد أن درس الموضوع درساً علمياً منظماً مؤسساً على التجربة والاختبار لا على مجرد الحدس والتخمين ، أبرز

في سنة ١٩٠٠ كتابه المشهور المعروف باسم « Traumdeutung » : أعنى تفسير الأحلام ، وقد ترجم إلى الإنجليزية تحت عنوان Interpretation of Dreams وإلى الفرنسية تحت عنوان Les rêves et leur interprétation .

وهو أول كتاب فريد في بابه ، ويعتبر بحق أنه الحجر الأساسي لهذا البحث الخطير ، وقد ضمنه نظريته المشهورة والتي أثارت أعظم ضجة في عالم البحوث النفسية ، وهي « أن الأحلام ترمى إلى تحقيق رغبة أو تعبر عن أمنية دفينة في النفس ، وأن هذه الرغبة في أغلب الأحيان جنسية ، أي مرتبطة بالغريزة التناسلية » .

فقام العلماء في وجه فرويد ، ورماه البعض بالتدجيل والشعوذة ، وليس هذا بغريب في تاريخ العلم ، بل هو شأن كثير من النظريات العلمية الخطيرة عند إبرازها لأول مرة إلى العالم ، وما زالت الضجة التي قامت حول نظرية كارلوس داروين في نشوء الأنواع ماثلة أمام الأعين .

فالعلامة سجمند فرويد يعتقد ان للأحلام فائدة عظمى للعقل البشرى لأنها ترمى إلى تحقيق كثير من الرغبات التي تشتهيها النفس وتتعطش إليها ، ولكن لم يستطع المرء أن يروى غلتها ويطفىء حرارتها في الحياة العملية ، وبالأخص ما كان منها يرجع الى عهد الطفولة أو مبدأ حياة الإنسان على وجه العموم ، ومعظمها من الرغبات والمشتهيات الجنسية التي اضطر الإنسان تحت ضغط التقاليد الاجتماعية والتعاليم الدينية والآداب القومية أن يكبتها في قرارة نفسه ، ويكظمها في أعماق قلبه . فارتدت من ساحة الشعور إلى جوف « اللاشعور » حيث ربضت في مكمنها لتكون مصدراً للقلق ، وينبوعاً مستتراً يهدد المرء في مستقبل العمر بالثورات النفسية والاضطرابات العصبية ، وهي تغلى كالبركان أو المرجل تحت ضغط الإرادة أو

القوة الكابتة للذكريات المؤلمة ، والتي أطلق عليها فرويد اسم الكبت واسماها أحياناً بالرقيب .

ولكن لما كانت شدة الضغط قد تولد الانفجار (والانفجار هنا معناه ظهور نوبات عصبية أو اضطرابات نفسية) فلابد اذن للشهوات المضغوطة من منفذ تفلت منه بعض قواها المحتبسة ليخف الضغط عن القوى الكامنة وبذلك يتفادى الانفجار ، فالأحلام من هذه الناحية أشبه شيء بصمام الأمان لمرجل الانفعالات المضغوطة في جوف العقل الباطن أو اللاشعور .

ووجهة نظر فرويد في أن معظم الأحلام ترمي الى تحقيق رغبة جنسية ، قائمة على اعتبار أن الغريزة التناسلية مع أنها من أقوى الغرائز البشرية إن لم تكن أقواها جميعاً ، فهي الغريزة التي تلاقي من المجتمع أكبر ضغط ، ومن التقاليد أكبر قوة كابحة ، لهذا كانت أحلامنا معظمها تعبر عن تلك الرغبات ، كما أن الكثير من هذه المشتهيات يرجع إلى عهد الطفولة ، وهي في الغالب تكون موجهة نحو المحارم من الأهل والأقارب كالوالدين والأخوة ، وقد يدوم أثرها في النفس طول العمر ويلازم الإنسان مدى الحياة وهو لا يدري ، وكل ما يشعر به اضطراب وقلق لا يعرف شيئاً عن مصادره ، فتتحقق هذه المشتهيات في الرؤيا وتعاودنا في شكل أحلام في جميع أدوار الحياة ، ولا تفتر تتردد علينا من حين إلى حين حتى سن الكهولة ، ولكن لما كانت هذه المشتهيات ضد الآداب والتقاليد وتعاليم الدين ، فإنها عادة لا تظهر بمظهرها الحقيق ، لأن ذلك مؤلم لوجدان النائم ، بوقع الغريزة الجنسية في نضال حاد مع ضمير الإنسان الذي هو وريث التقاليد الاجتماعية نضالا تضطرب له أعصابه ، وترتج له أركان عقله ووجدانه فينتبه من رقاده مذعوراً ، فلأجل التوفيق بين هاتين النزعتين المتعارضتين تظهر المشتهيات مقنعة ، فتتخذ لنفسها صوراً تقشها ريشة الخيال ،

وتماثيل تحت من لغة الرموز الأثرية ، فإذا بها كمن يلبس ثوباً مزيفاً أو يستتر تحت رداء مستعار لكي يخادع الرقيب ويفلت من قبضته .

ولهذا كانت مهمة الباحث النفسي نحو حل هذه الرموز شاقة معقدة ، إذ قد لا يتسنى حل طلاسمها أحياناً إلا بتحليل نفسي مطول دقيق يتطلب منه إلماماً بماضي المرء وظروفه الخاصة والعامة والبيئة التي عاش فيها ، بل وربما السلالة التي نشأ منها .

فنظرية فرويد في تفسير الأحلام يمكن تلخيصها فيما يلي :

إن الرؤيا لها معان ظاهرة سماها فرويد بالمحتويات الصريحة[1] للرؤيا ، ومعان خفية سماها بالمحتويات الكامنة[2] ، وهي المستترة تحت رداء الرموز ، وأن المعنى المستتر يعبر عن تحقيق رغبة[3] لم يحققها الإنسان في حياته اليومية ، وأن هذه الرغبة جنسية أو تدور حول الميل الجنسي غالباً ، حتى ولو كانت وقائع الرؤيا في ظاهرها بريئة من الميل الجنسي ، ولا تنم عن الرغبة الخفيـــة المستترة خلف رموزها .

وقد ذكر فرويد على سبيل المثال أن سيدة كان يعالجها ، رأت في منامها أن ابن أختها الوحيد توفي ، فقامت من نومها مذعورة جزعة ، ولما ذهبت إلى فرويد طلبت منه في لهجة التهكم المستهتر أن ينبئها عن أي مغزى جنسي تنطوي عليه مثل هذه الرؤيا ، وأي رغبة دفينة أو مشتهى نفسي ترمي إليه .

---

(١) The manifest contents

(٢) The latent contents

(٣) A wish fulfilment

فوضعها فرويد تحت إجراءات التحليل ، ولما حلل ذكرياتها الكامنة وخواطرها الدفينة فى أعماق اللاشعور ، ظهر أن شقيقة الفتاة كان لها ولد آخر توفى فى عام سابق ، وقد حضر المأتم شاب وسيم الطلعة على جانب من الظرف والأدب لتقديم فروض العزاء لأفراد العائلة ، فآنست الفتاة منه عطفاً نحوها ترك فى نفسها أبلغ أثر ، وقد تمنت وهى عذراء لو مد إليها يد الخطوبه ، ولكنها كظمت ما وجدته فى نفسها من لوعة ، ثم أنستها تصاريف الأيام عن ذكراه الدفينة فى قرارة النفس إلى حين أن تناولت فى ليلة الرؤيا جريدة قرأت فيها خبر عزمه على إلقاء محاضرة فى ناد معين ، فأسرت فى نفسها على الذهاب إلى سماع المحاضرة فى الموعد المضروب ، وفى تلك الليلة رأت فى منامها الرؤية المشئومة الخاصة بموت ابن شقيقتها الثانى ، فبين لها طبيبها فرويد ما انطوت عليه هذه الرؤيا ، وأنه بالرغم مما اتصفت به من سمو الأخلاق ورقة الشعور ، كيف اشتهت فى الباطن موت ابن أختها الثانى لكى تتاح لها فرصة اجتماعها بذلك الشاب عند حضوره معزياً أسوة بالمرة الأولى .

انتشرت النظرية الفرويدية فى الدوائر العلمية ، فالبعض قبلها برمتها وانضم فى الرأى إلى فرويد وأيده بأبحاث وتجارب جديدة ، والبعض خالف فرويد فيها من بعض الوجوه ، والبعض الآخر وقف تجاهها موقفاً عدائياً ورماها بالنقد المر ، وأشهر على فرويد وأعوانه حرباً عوانا من جرائها ، ولكن هذا الفريق الأخير بدأ يتضاءل ويتلاشى فى بضع السنين الأخيرة .

وبهذه المناسبة تجدر الإشارة إلى وجهة نظر طبيب سويسرى جليل القدر لا يقل فضلا عن العلامة فرويد ، وهو الأستاذ يونج بزيوريخ ، فإنه وإن كان قد نسج على منوال فرويد فى تفسير الأحلام من حيث اعتبارها لغة العقل الباطن وأنها لغة رمزية ، إلا أنه خالف فرويد فى ثلاثة أمور وهى :

١ — فى قصر الأحلام على الميل الجنسى

٢ — فى علة ظهورها بشكل رمزى .

٣ — فى مرمى الأحلام وعلاقاتها بالماضى والحاضر والمستقبل .

(عن الوجه الأول) — بينما فرويد يقول إن الأحلام معظمها إن لم تكن كلها تعبر عن تحقيق رغبة جنسية ، يقول يونج إن الأحلام تعبر عن كثير من الرغبات غير الجنسية ، وأن القاعدة التى بنى عليها فرويد نظريته وهى تفوق الغريزة الجنسية على باقى الغرائز البشرية الأخرى وانفرادها بعلاقة أعظم قوة كاذبة مخالفة للواقع ، لأنه بذلك تجاهل غريزة هى فى نظر يونج أعظم شأناً من غريزة الميل الجنسى ، ألا وهى غريزة حب التسلط The instinct of wolt to power ، فهى الغريزة التى لها المقام الأعلى بين مجموعة الغرائز البشرية بما فيها الغريزة الجنسية ، وهى تشمل حب الزعامة والقيادة وحكم الشعوب والقيام بالأعمال المجيدة وحب المجد والعظمة والشهرة وما إليها من النزعات التى قد تدفع الإنسان إلى المخاطرة بحياته واقتحام الصعاب وتضحية النفس وما إلى ذلك من عظائم الأمور ، وأن هذه الغريزة كثيراً ما تلاقى فى الحياة من الصدمات ومعاكسات الدهر ما يدعو إلى كبتها وكظمها فتظهر فى أحلامنا عند النوم ، فكأن أحلام اليقظة إذا لم تحقق فى عالم الحياة الشعوريه ارتدت إلى عقلنا الباطن لتتحقق فى فى عالم الأحلام .

ولكن فرويد يرد على ذلك الاعتراض بأن غريزة حب التسلط منشؤها فى الأصل يرجع إلى الغريزة الجنسية ، وهى تسلط الذكر على الأنثى واستخدام القوة فى الوصول إلى إخضاعها لتحقيق الأغراض الجنسية ، ثم تطورت هذه النزعة إلى الزعامة العائلية وتسلط رب العائلة على أفرادها ، ثم تحولها إلى زعامة الشعوب وحكمها والتى لم تخرج عن كونها مثلا مكبراً من الزعامة العائلية ،

ولكن الأستاذ يونج يرد على ذلك بقوله : إن غريزة حب التسلط هى الأصل والغاية ، وإن غريزة الميل الجنسى أو الغريزة التناسلية هى مجرد وسيلة للوصول إلى هذه الغاية ، إذ المقصود بها الإكثار من النسل وانتشاره ، ومعناه تقوية النوع وتسلطه على باقى الأنواع الأخرى ، فهى مظهر من مظاهر التنافس النوعى أو حب التسلط الجماعى .

(عن الوجه الثانى) — لما كان يونج يرى أن الأحلام غير مقصورة على المشتهيات الجنسية ، وأن الكثير منها متعلق بتحقيق كثير من الرغبات الأخرى التى لا مخالفة فيها للآداب والتقاليد والمعتقدات ، فإن العلة التى ذهب إليها فرويد لتعليل ظهور الأحلام بشكل رمزى لا تتفق مع وجهة نظر يونج ، وإذاً لا بد له من البحث عن نظرية جديدة تستقيم مع وجهة نظره ، فوضع تعليلا على جانب من الوجاهة ، وهو أن اللغة الرمزية هى لغة البشر قبل التاريخ ؛ والتى كان التفاهم قائماً عليها فى القرون الأولى ، فهى تراث الآباء والأجداد القدماء ، فهى إذاً بضاعة العقل الباطن .

أما اللغة الكلامية فمن بضاعة المدنية الحديثة ، ومن متعلقات العقل الظاهر .

ولما كان العقل الظاهر عند النوم فى حالة ركود وسكون ، وأن ظواهر التفكير مصدرها العقل الباطن ، فمن الطبيعى أن يكون تعبير المرء فى الرؤيا بلغة هذا العقل القديم وهى الرموز .

(عن الوجه الثالث) — الأمر الثالث الذى خالف فيه يونج فرويد هو عدم قصر الأحلام فى دلالتها على الماضى ، فهو يقول : إن هناك من الأحلام ما يعبر

عن الوجدانات القائمة فعلا بالنفس ، فيعبر عنها في الرؤيا بصورة رمزية ، كما أن بعض الأحلام قد تكون ذات دلالة على ما ترمى إليه النفس من المقاصد ، أو ما تتوقع حصوله في المستقبل ، مسترشدة في استنتاجاتها بما توفر لديها من مقدمات وتجارب ماضيه .

فبينما « فرويد » يقصر وجهة نظره على النظرية السببية ، أي يعتبر الأحلام مجرد نتيجة لمقدمات ، يرى « يونج » تعميم القاعدة ، بحيث تشمل أيضاً النظرية القصدية ، التي تعتبر بعض الأحلام مقدمات لنتائج مقصوده .

وفوق ذلك قد رأى « يونج » أن الأحلام لا تدل على ماضي الفرد فحسب ، بل وعلى ماضي السلالة البشرية والنوع بأسره ، فالنفس البشرية للفرد تحمل في طياتها خبرة الجدود في العصور الغابرة ، وما كابده النوع من خبرة وما مارسه من تقاليد وعادات ، وقال يونج إنه قد تسنى له أن يحلل أحلام بعض الناس ، واستدل بذلك على السلالة التي انحدروا منها ، أو الجنس البشري الذي ينتمون إليه .

* * *

وإن أبسط مظاهر الأحلام وأقلها تعقيداً هي الأحلام التي ترمي إلى تحقيق رغبة صريحة لا غبار عليها ، كأحلام الجائع والعطشان ، فقد يرى الجائع أنه جالس على مائدة طعام فيها من مختلف المآكل أشكالا وألوانا ، وليس فينا من يجهل المثل العامي المعروف « حلم الجوعان عيش » ، كذلك الظمآن قد يحلم أنه يشرب ماء فيرتوي ظمؤه نوعا في الرؤيا ، وبذلك يخف عنه ألم العطش ، فلا يضطرب رقاده ويتهجد نومه .

ولهذا لقب العلامة فرويد الحلم بأنه « حارس النوم The Guardian of sleep »

ومعظم أحلام الأطفال من هذا النوع الصريح ، فإن الطفل إذا رأى لعبة في

دكان ، أو فاكهة على مائدة طعام ، وتاقت نفسه إليها ، ولكنه حرم منها ، فإنه قد يحلم فى نومه أنه حصل على اللعبة أو أكل الفاكهة ، كذلك إذا كان رضيعاً وجاع فقد يحلم بالرضاعة ، وكثيراً ما يحلم الأطفال بالرضاع بعد الفطام .

وكثير من الرغبات التى ادخرها الإنسان أو كظمها منذ عهد الطفولة قد تظهر فى أحلامه وهو يافع أو شاب أو كهل ، فإن حب الأطفال للنقود مشهور ، وكثيراً ما يضن الأهل عليهم بها حتى لا يسيئوا استعمالها فى مشتريات قد تضر بهم ، فيضطر الطفل إلى كظم هذه الرغبة ، ولكنها لا تمحى بل تلازمه طول حياته ، ومن أجل ذلك قد نحلم ونحن كبار أننا نجمع نقوداً من الأرض بكثرة ، وبالأخص النقود البيضاء ، لأن الأطفال عادة لا يعرفون للذهب أو العملة من الورق قيمة[1] .

إن أحلام الأطفال ، وإن كانت فى أول عهد الطفولة تكون غالباً بسيطة صريحة ، غير أنهم كلما تقدموا فى السن ازدادت أحلامهم إبهاماً وتعقيداً ، وأصبحت تعبيراتهم الباطنية أقرب إلى الرموز الغامضة منها إلى الصراحة ، وهو ما يستدعى لتفسيرها إجراءات تحليل أكثر تعمقاً ودقة ، وعلى سبيل المثل أذكر الرؤيا الآتية ، فهى لواحدة من بناتى ، إذ هى وسط بين الصراحة والرموز ، وصاحبة الرؤيا تلميذة فى السنة الثانية الابتدائية ، وملخص الرؤيا : « أنها رأت والدتها واقفة فى شرفة المنزل (البلكونة) وحولها لفيف من بنات المدرسة ، ومن بينهن شقيقتها (أى ابنتى) الصغرى ، ثم رأت والدتها تلقى بالبنات واحدة إثر واحدة من الشرفة إلى الشارع ، حتى جاء دور شقيقتها الصغرى ، فحاولت أن تنقذها من يد أمها فلم تفلح ، وألقتها أمها أيضاً أسوة بباقى التلميذات من الشرفة ،

---

(١) وكثيرا ما كان يراودنى هذا الحلم فى الكبر حيث كنت أرانى فى المنام أجمع نقودا فضية من الأرض من ذات الخمسة قروش أو ذات القرشين صاغ .

أما هي (أي ابنتي صاحبة الرؤيا) ، فإن أمها لم تمسها بسوء بالرغم من تطوعها لافتداء أختها » .

وقد أظهر التحليل وتسلسل خواطر ابنتي بشأن وقائع هذه الرؤيا أن صورة الأم كانت لديها رمزاً للمعلمة أو ناظرة المدرسة ، وأن شرفة المنزل كانت رمزاً للفصل ، والمنزل الذي اجتمع فيه التلميذات رمزاً للمدرسة ، وإذا عرفنا ما كانت عليه ابنتي في ذلك الحين من ضعف في مادتين من مواد الدراسة ، وهما الحساب واللغة الإنجليزية ، وأنها كانت كثيرة الرسوب فيهما في الامتحانات الدورية في بحر السنة ، وتخشى الرسوب في الامتحان النهائي بسببهما ، سهل علينا أن ندرك المعنى الرمزي لإسقاط التلميذات من شرفة المنزل ، وما ينطوي عليه من رغبة مكظومة ترمي إلى السقوط المعنوي في الامتحان ، فهي كانت تشتهي في الباطن لو أن ناظرة المدرسة أو المعلمة التي رمزت لها في الرؤيا بالأم أسقطت جميع تلميذات فصلها في الامتحان حتى لا تعير بالسقوط ، إذا ما انفردت هي به ، أما تمنيها سقوط أختها الصغيرة ، فقد جمع بين أمنيتين ، إحداهما حديثة تتعلق بسقوطها في الامتحان أيضاً (بسبب ما كانت عليه أختها المذكورة من التفوق في فصلها ، ولو أنها كانت في فصل أدنى) ، والأمنية الثانية تتعلق بما كانت تسكنه من قديم من وجدانات الغيرة والحقد منذ كانت أختها حديثة الولادة ، بسبب ما ترتب على مجيئها في الحياة من مزاحمتها فيما كانت قد اختصت به من العناية الوالدية والاهتمام حيث كانت البكر وبدون مزاحم .

أما تطوعها لإنقاذ أختها في الرؤى فهو نوع من الرياء لإرضاء ضميرها وعدم إثارته بدليل فشلها في إنقاذها مع أن الرؤى برمتها من بضاعة عقلها الباطن .

ويقول فرويد إن رغبات الأطفال قد لا تخلو من الميول الجنسية في كثير من الحالات ، فالطفل يلج باب هذا العالم وهو يحمل في حقيبة عقله الباطن ذخيرة

وافرة من النشاط الجنسي ، ولكن هذا النشاط يتخذ فى تلك المرحلة صوراً وأوضاعاً تلائم حياة الطفل ، واستعداده الجثمانى .

ومع هذا ، قد نشاهد فى سلوك الطفل أموراً تدل على توفر النزعة الجنسية فى نفسه ، كالغيرة التى تشاهد فى الطفل على أمه من أبيه ، أو على الطفلة من أمها على أبيها ، حتى قيل إن الطفل إن كان ذكراً كثيراً ما يشتهى موت أبيه ، وإن كانت بنتاً تشتهى موت أمها ، (والموت فى نظر الطفل معناه أية وسيلة لإبعاد الطرف المزاحم) ، وذلك لكى يخلو له الجو بمن يحبه ويهواه ، ولكن كلما اشتد ساعد الصغير قويت إرادته على إخماد هذه الميول المحرمة ، وكبتها فى العقل الباطن ، ولكنها لا تلبث أن تظهر فى أحلامه وهو كبير بشكل رمزى ، لأن ضمير الإنسان ووجدانه المكتسب بالتربية والآداب القومية يجعل من أشق الأمور عليه أن يرى نفسه أن يمارس عملية القران الجنسى مع المحارم من الأهل وذوى القربى أو موت أحدهم .

ومع أن معظم الأحلام ترمى إلى تحقيق رغبة أو شهوة ، فإن هناك من الأحلام ما يمكن اعتباره وصفاً لانفعالات أو تأثرات نفسية قائمة ، أو وجدانات هائمة بالنفس ، دون أن ترمى إلى تحقيق رغبة معينة .

وعلى سبيل المثال أذكر وقائع الرؤيا الآتية ، مع بيان تفسيرها نقلا عن مذكراتى الخاصة . أما وقائع الرؤيا والظروف التى تقدمتها ، فهى كما يأتى :

بتاريخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٢٧ ، توفيت المرحومة والدتى بنزيف مخى ، وكان قد أصابها هذا النزيف للمرة الثالثة ، أما الدفعتين الأوليين فكانت إحداها فى سنة ١٩١٩ ، والأخرى فى سنة ١٩٢٣ ، ومن ذلك الحين كنت أشعر بقلق حائم على حياتها ، موجساً خيفة من النكسة الثالثة لخطورتها ، وقد لازمنى حالة القلق إلى حين وفاتها ، وبعد الوفاة بأسبوعين تقريباً رأيت الرؤيا الآتية :

وجدتنى موجوداً فى ميدان فسيح ، يشبه ميدان الجمهورية فى القاهرة ، وأن جندياً حكم عليه بالإعدام قد جىء به إلى ساحة الميدان لتنفيذ الحكم فيه رمياً بالرصاص ، وأما إجراءات التنفيذ التى اتبعت معه ، فهى أنه وضع فى وسط جماعة من رفاقه الجنود يبلغ عددهم نحو سبعة ، وكان الجندى المحكوم عليه من دونهم معصوب العينين ، والإجراءات تقضى بأن يسير هؤلاء فى شبه دائرة منقسمة حول رحبة الميدان ، ويتبعهم الجندى المذكور ، وفى وسط الميدان اجتمع عدد قليل من الجنود المكلفين بتنفيذ حكم الإعدام وبأيديهم بنادقهم ، فبعد أن يدور جماعة الجنود الثمانية عدة دورات ، تعطى لهم إشارة من الضابط المترأس القوة المنوط بها التنفيذ من مقتضاها أن ينفصل باقى الجنود السائرين عن زميلهم المعصوب العينين ، ودون أن يشعر حتى يمكن إطلاق النار عليه حال إنفراده ، فى أثناء قيام الجنود الثمانية بدوراتهم ألفيت الجنود السبعة قد انفصلوا عن رفيقهم المحكوم عليه بحيث أصبح منفرداً ، فأدركت فى الحال أن لحظة التنفيذ قد دنت ، فحولت وجهى عنه حتى لا أراه عند إصابته برصاص البنادق ، وعلى الفور أطلق الجنود بنادقهم ، ولكن بالرغم من شدة تأثرى دفعنى الفضول إلى النظر إلى الجندى عقب إطلاق النار ، فوجدته واقعاً على الأرض وهو منكفىء على وجهه يعالج سكرات الموت ، فهالنى المنظر ، وحولت وجهى عنه ثانية .

بعد ذلك انتقلت فى الرؤيا من الساحة فجأة إلى المنزل ، حيث وجدتنى فيه مع شقيقتى الصغيرتين ، ثم وجدت بيد إحداها بندقية تبغى إطلاقها على رأس الجندى المحكوم عليه وهو يحتضر بقصد أن تضع حداً لآلامه Coup de Grâce ولكنها بعد أن صوبت البندقية نحو رأسه أدارت وجهها عنه وهى فى حالة اشمئزاز وتأفف ، وأذكر أنى لمتها وقتئذ لتصديها للقيام بمأمورية كريهة كهذه ، فاعتذرت بعدم وجود من يقوم بها نيابة عنها ، بعد ذلك وجدت شقيقتها

الأكبر سناً تناولنى كوبة فيها سائل مصفر اللون مدمم ، فهمت وقتئذ أنه مخ الجندى الذى أعدم ، فأفهمت شقيقى الصغرى أن مأموريتها بذلك قد انتهت حيث قد فارق الجندى الحياة بدليل وجود مخه فى الكوبة ، وقد شرب كل منا جرعة منها ، ولكن دون أن يشعر أحدنا بأية غضاضة ، ثم تيقظت من نومى وأنا فى شدة التأثر والانفعال .

أما الرؤيا فقد فسرتها على الوجه الآتى :

الجندى المحكوم عليه بالإعدام ، هو رمز للوالدة حيث كنت مدة مرضها إذا مررت بغرفتها أدرت عنها وجهى محزوناً ، وكثيراً ما كانت تحدثنى نفسى بأن هذه غرفة شخص محكوم عليه بالإعدام فى انتظار ساعة التنفيذ . وتعصيب العينين فى الرؤيا رمز لجهلها بموعد الأجل . وأما الجنود السبعة فرمز لأولادها (إذ عددنا سبعة) ، وحكم الإعدام رمز لقضاء الله وحكم القدر ، وخصوصاً أننى كنت رأيت قبل وفاتها بشهرين فى المنام أنها توفيت ، وحضرت من الخارج ووجدت بعض معدات المأتم ، فأخذت أردد فى الرؤيا قولى : « هذا قضاء الله » ، ولعل قضاء الله ، وهو فى ذهنى رمز للموت ، هو الذى نبه من نفسى حكم الإعدام ، نظراً لما بين كلمتى قضاء وحكم من ارتباط ، وما بين عبارة (قضاء) ، وما بين (الإعدام) من الارتباط فى المعنى ، أما الميدان الفسيح ، فهو رمز لميدان الحياة ، وربما كانت الدورات التى كان يدورها الجنود حول الميدان تعبر عن الدورات الحولية أو السنين التى قضتها الوالدة فى المرض انتظاراً لحكم القضاء المحتوم ، وانفصال الجنود أو الرفاق عن الجندى زميلهم المحكوم عليه رمز للفراق بسبب دنو الأجل ، والإعدام بواسطة إطلاق الرصاص رمز لإهدار الدم ، وفيه معنى النزيف الخفى ، وتحويل وجهى عن الجندى يمثل تماماً الموقف الذى كنت فيه ، عندما استدعانى الطبيب إلى رؤية الوالدة وهى فى نهاية دور

الاحتضار ، إذ بمجرد أن وصلت إلى باب مخدعها ، حولت وجهى عنها ، ولم أقو على رؤيتها ، إنما لمحتها وهى راقدة فى سريرها ، وكان شعورى وقتئذ يماثل تماماً شعورى عند رؤية الجندى ، وهو واقع على الأرض عقب رميه بالرصاص .

أما البندقية التى كانت بيد شقيقتى الصغرى ، فكانت رمزاً لقوة الإرادة التى اتصفت بها شقيقتى المذكورة ، ولاجترائها على دخول مخدع والدتها ساعة احتضارها ومواجهتها الموقف ، مما كان له من أثر شديد فى نفسى ، أما السكوية التى شربنا منها ، فرمز لتجرع كأس النائحة وتحمل غضاضتها بصبر .

أما مخ الجندى فرمز للصبر والتقوى ، وهما صفتان كانت متحلية بهما الوالدة ، وقد كنت عقب وفاتها ، أردد فى نفسى دائماً قولى : « اللهم ألهمنى صبرها وتقواها » .

ولما كان مصدر هاتين الخلتين هو العقل ، وأن المخ هو موطن العقل والتفكير ، فشرب المخ كان رمزاً يعبر عن الرغبة فى التهام ما كانت متحلية به من فضائل ضنا بها على الثرى ، أو لكن يريد أن يسوغها كما يساغ الشراب بغير جهد أو عناء ، وهو ما فيه معنى الإلهام المطلوب ، وذلك فضلا عما بين كلمتى إلهام والتهام من تشابه لفظى ، وربما كان لذلك التصرف نظير من بين عادات وطقوس بعض القبائل فى العصور الأولى ، وأن للرؤيا من هذه الناحية ، معنى أثرى يمت بصلة لتلك العصور عن طريق الوراثة تطبيقاً لنظرية يونج .

* * *

وقد رأيت أن أجتزىء شطراً من إجراءات التداعى التى لجأت إليها فى

التحليل لتكون بمثابة نموذج مصغر يدل على كيفية تسلسل الخواطر التي انتهى إليها التحليل ، وهي نقلا عن مذكراتي :

(جندي) نبهت جهاد وهذه نبهت حياة ثم موت ثم أم .

(ورفاق) ، عشيرة . زمرة . أهل . أولاد .

(مخ) عقل . دين . إيمان . تقوى

(كوبة) كأس . شراب . حلو . مر . صبر

} اللهم ألهمني صبرها وتقواها

(ميدان) فسيح . فضاء . كون . عالم .

(بندقية) قتل . إعدام . حكم . قضاء . قدر .

إن تحليل الرؤيا المتقدمة ، قد يدل دلالة صريحة على أن هناك من الأحلام ما يعبر عن وجدانات قائمة بالنفس فعلا ، دون اشتمالها على رغبات جنسية مكبوتة ، ولكن هل لنا أن نقول إن ذلك فيه برهان كاف على خطأ النظرية الفرويدية في تحليل الأحلام ، وهي النظرية التي من مؤداها أن معظم الأحلام إن لم تكن جميعها تعبر عن تلك الأماني ؟ لقد يحق لأصحاب هذا المذهب الاعتراض علينا بأن إجراءات التحليل التي اتبعت في سبيل تحليل الرؤيا المتقدمة وما قد يماثلها هي إلى مجرد التفسير أقرب منها إلى التحليل ، لأن التأمل الذاتي الذي يقوم به الإنسان في سبيل تحليل خواطره الشخصية مهما بلغ من الدقة وبعد النظر يتعذر أن يبلغ من العمق درجة تكفي لكشف المركبات الدفينة في أعماق النفس وقرارة اللاشعور ، إذ أن التحليل العميق أشبه شيء بعملية فتح البطن ، وهو ما يتعذر على الإنسان أن يجريه بيده في نفسه ، بخلاف التحليل الذاتي البسيط الذي يقوم به الإنسان ، إذ مثله مثل عملية فتح دمل صغير أو خراج سطحي .

أفلا يحق بعد ذلك لفرويد وأصحابه القول بأن إجراءات التحليل لو سارت إلى مدى أبعد غوراً في النفس مما وصلت إليه لكشفت عن المركب الجنسى المكظوم من عهد الطفولة ؟! ألا يجدر بهم لفت النظر إلى ما تتضمنه وقائع أمثال الرؤيا المتقدمة من تعلق شديد بحب الأم ، تعلقاً قد يشف من طرف خفي عن ذلك المركب المكظوم ، وهو المركب الوالدى المعروف فنياً بمركب « أديب Oedipus Complex » .

* * *

لقد تكلمنا عن علاقة الأحلام بالماضى والحاضر ، ولم يبق أمامنا سوى كلمة موجزة عن علاقتها بالمستقبل ، فإن كثيراً من الناس من يعتقد فى نبوءة الأحلام وما لها من دلالة على المستقبل ، مستندين فى ذلك على بعض الحوادث الواقعية والمشاهدات .

غير أنى فى حيرة بشأن تعليل صلة بعض الأحلام بالمستقبل اللهم إلا عن طريق ارتباط المقدمات بالنتائج ، وأن كل رؤيا تدل على أمر يتحقق فى المستقبل القريب أو البعيد لابد أن تكون لها مقدمات تدل على هذه النتيجة ، وكل ما فى الأمر أن المقدمات قد أصبحت مجهولة منا بعد أن كانت معلومة لنا ، ثم اختفت فى غياهب اللاشعور وظلت هنالك عاملا دفيناً من العوامل التى ساعدت على الاستنتاج الباطن ، فإن غفل العقل الظاهر عن كثير من شؤون الحياة التى كابدناها أو مرت بنا فى الماضى فإن ذكرياتها لاتزال محتفظاً بها فى جوف اللاشعور ، تمد العقل الباطن بكل ما يلزمه من عناصر الاستنتاج ، ولهذا كان العقل الباطن أصدق فى الحكم على الأمور وأبعد نظراً فى استطلاع المستقبل من العقل الظاهر .

وزيادة فى الإيضاح نضرب لذلك بعض الأمثال :

المثال الأول — رأيت ذات ليلة فى منامى أن صديقاً من أصدقائى حضر من الخارج فى تاريخ معين ، ونظراً لاشتغالى فى ذلك الحين بدراسة الأحلام واهتمامى بتدوينها فقد دونت الحلم المذكور فى مذكراتى ، ثم ترقبت الجرائد فإذا بى أقرأ بعد يومين نبأ قدومه من الخارج فى نفس التاريخ الذى رأيته فيه فى الرؤيا ، فاستفزتنى هذه المطابقة إلى استطلاع سببها ، فدلنى الاستقصاء إلى أن صديقى المذكور كان قد أخبرنى مقدماً فى يوم سفره بالذات عن موعد عودته ، وكان ذلك يوم ٢٦ من شهر يوليو ، وأنه سيغيب شهرين كاملين ، ولكنى نسيت ما كان أخبرنى به ، غير أن ما بلغت تمام الشهرين وهو يوم ٢٦ سبتمبر رأيته فى منامى .

فهذه الرؤيا لا تدل على شىء من التنبؤ بالمستقبل أو كشف الغيب ، بل كل ما فيها أنها تدل على يقظة العقل الباطن وصبره على فكرة ماثلة فى اللاشعور .

المثال الثانى — أبلغتنى سيدة من أفراد العائلة على أثر ظهور طفح جدرى الماء (الجديرى) فى وجهها أنها قبل ظهور أعراض المرض بخمسة أيام رأت فى منامها أن شخصاً لوث وجهها بفرشة بعد أن كان غمسها فى جردل فيه سائل ملوث بالجراثيم ، وفى اليوم التالى لهذه الرؤيا رأت فى منام آخر أن امرأة عجوزاً ناولتها وهى على حافة بئر علبة صغيرة بها حبوب فتذوقت حبة منها بلسانها ، ثم ألقت بها مع العلبة فى البئر ، فخاطبتها العجوز وقتئذ بعبارة تتضمن أن دمها « قد تسمم » وقضى الأمر ، وقد طلبت إلىّ هذه السيدة أن أبين لها وجه الصلة بين هاتين الرؤيتين وظهور العلة والعلاقة السببية بين المقدمة والنتيجة :

فكان جوابى لها أن لمرض الجديرى دور تفريخ يتراوح ما بين عشرة أيام أو أسبوعين عدة ، وأنها فى التاريخ الذى رأت فيه المنامين المتتاليين كان قد مضى على تعرضها للعدوى زمن كاف لأن يترك فى نفسها أثراً ينم على دبيب المرض فى جسمها والشعور به عن طريق الإحساس الباطن ، أو بعبارة أخرى عن طريق العقل الباطن ، ولهذا جاء المنامان معبرين عن حالة المرض القائمة بالجسم تعبيراً رمزيا ، فتلوث الوجه بالماء الملوث بالمكروب يدل دلالة ضمنية على جدرى الماء الذى أكثر ما يهم السيدة فيه وجهها ، والحبوب المسمومة التى تناولتها على حافة البئر رمز للبثور الجدرية .

المثال الثالث — رأى أحد أصدقائى مرة فى منامه أنه أصيب بطلق نارى فى إحدى خاصرتيه (ولا أذكر أيهما لمضى الزمن) ، وبعد ثلاثة أيام أصيب بمغص كلوى حاد ، بلغ من شدته أن يئس من الحياة ، وأرسل تلغرافاً لأهله بالحضور .

وظاهر من هذه الحالة أن مقدمات المرض كانت موجودة وهى تحرك الحصاة قبل احتدام الألم بثلاثة أيام الأمر الذى أيقظ الرؤيا ونبه المريض إلى قيام أسباب المرض قبل ظهور أعراضه الثقيلة ببضعة أيام .

المثال الرابع — رأت فتاة فى منامها أنها تزدرد رصاصاً مذاباً ، وبعد يومين من هذه الرؤيا أصيبت باحتقان لوزى حاد .

المثال الخامس — حلمت سيدة أنها تحمل حجر طاحون على رأسها ، وبعد ثلاثة أيام أصيبت بالتهاب سحائى .

مما تقدم من الأمثلة يتضح أن هناك كثيراً من الأحلام ما قد يظن لأول وهلة أنها من قبيل الإنباء بالمستقبل ، فى حين أنها لا تخرج عن

كونها نتائج حتمية لمقدمات توفر للعقل الباطن العلم بها ، فبنى عليها أسباب استنتاجه .

وقد عرفنا مما مر بنا عند التكلم على العقل الباطن مبلغ ما يتمتع به من قوة تفكير ودقة استنتاج قد تفوق ما للعقل الظاهر بمراحل ، ولا غرابة في ذلك ، فالعقل الباطن مستودع الذكريات والخبرة الخاصة بالنوع والفرد معا ، وهو مجمع الثروات الفكرية الموروثة عن جميع السلالات من أول ظهور الحياة على وجه البسيطة حتى الآن ، فهو أدنى اتصالا بقوانين الله عز وجل ونواميس الطبيعة من العقل الظاهر .

تداعي المعاني

Association of Ideas

ليس فينا من يجهل ما للمشاعر والمحسوسات من الارتباط بالأفكار والذكريات ، فإنه ليس بغريب على فؤاد شاب كلف بحب فتاة أن يخفق قلبه كلما ذكر اسمها أمامه ، أو كلما وقع بصره على شيء من آثارها ، كذلك إذا انقطعت صلاته بها زمانا ، فإنه إذا شم مصادفة رائحة طيب كانت تتعطر به ، بعثت هذه الرائحة من نفسه ذكراها مهما طال عليها العهد ، وتمثل طيفها لناظريه ، وأحس في الحال بلوعة غرامه الغابر ، أو إذا سمع لحناً كان قد ألف سماعه منها ، فإن شجن اللحن قد يوقظ في نفسه شجو الغرام مهما تعاقبت على حبه السنون والأعوام ، وتذكر على الفور ذلك المحبوب القديم ، وارتسمت في المخيلة صورته وبيده عوده أو قيثارته يستنطق أوتارها وهو مستو على أريكته ، وشعر كأن نبرات صوته الرخيم ترن في أذنه رنات طرب وحنين .

كذلك إذا نكب المرء بفقد عزيز له ، تحاشى جهده أن يقع بصره على شيء من مخلفاته وآثاره ، وبالغ في إخفاء أمتعته وملابسه ومقتنياته وأقصاها عن حواسه حتى لا تصطدم بمشاعره فتنبه ذكرى صاحبها ، فتذكي في نفسه نار الحزن والشجن .

وقد نرى بعض الناس يهجرون مضاجعهم أو منازلهم ، بل قد يهجرون مدينة بأسرها فراراً من الآلام النفسية التي تبعثها ذكرى الفراق .

والشواهد في حياتنا اليومية على ما بين المشاعر والأفكار من الارتباط

كثيرة : فنقيق الضفادع قد يذكرنا بسكنى الريف ، وصياح الديك فى الليل البهيم قد يذكرنا بانبلاج الفجر وبزوغ النهار ، وطبلة المسحر فى خلال العام قد تذكرنا بأيام الصيام ، وقد يذكرنا وجه صديق باسمه ، أو قد يذكرنا اسمه بمدينة أو بناحية أو بمكان ، وقد تذكرنا رؤية مكان بعهد الطفولة ، أو بأيام الدراسة أو بمواقف الامتحان .

كذلك قد تذكرنا رائحة بعض العقاقير ، كاليودوفورم ، أو الأثير ، أو الكلوروفورم بعملية جراحية ، أو بأيام الإقامة بإحدى المستشفيات ، مع ما يتبع ذلك من استحضار الذهن صور الأطباء والممرضات ، وغيرها من مختلف الذكريات .

فهذه الظواهر الفكرية المختلفة قد لفتت نظر المفكرين من عهد أرسطاطاليس حتى الآن وقد أطلق عليها علماء النفس من الإفرنج «Association of Ideas» ومعناها حرفيا « ترافق الأفكار » ، ولكن لم تدرس قوانينها وأسبابها درساً محكماً منظماً مبنياً على قواعد علمية صحيحة إلا من عهد قريب .

فمن مجموعة هذه الظواهر المشتركة نشأ علم كامل منظم ، حتى قام جماعة من كبار العلماء ينادون بتعليل الظواهر الفكرية كافة فى أدوار الحياة العقلية بأنها نتيجة ظاهرة ترافق الأفكار .

وقد عرفوا بالتداعيين أو أصحاب مذهب التداعى « School of Associationists » وفى مقدمة هؤلاء : « لوك Locke » و « هيوم Hume » و « هارتلى Hartley » و « جيمس مل James Mill » و « بين Bain » و « ريبو Ribot » وغيرهم من فطاحل الفلسفة وجهابذة العلم .

فظاهرة « تداعى المعانى » أو بعبارة أخرى « ارتباط الأفكار أو ترافق

الخواطر النفسية » تمثل ما بين خواطر العقل وذكرياته المختلفة من روابط ؛ بمعنى أنه إذا تنبهت فى العقل فكرة أو ذكرى معينة أو إحساس خاص أيقظ ذلك فى الحال فكرة أخرى أو مجموعة أفكار وذكريات تجمعها بها روابط عقلية قديمة . فإذا كان العقل قد ألف أن يدرك شيئين مختلفين شكلا ، ولكنهما متلازمان وجوداً ، فإن إدراكه أحدهما أو تذكره إياه فيما بعد من شأنه أن ينبه ذكرى الشيء الآخر بجانبه .

مثال ذلك : إذا كنت اعتدت أن أرى زيداً وعمراً متلازمين ، فإنى إذا اتفق لى ورأيت أحدهما منفرداً ، فإنى أتذكر زميله فى الحال ، وإذا كنت تعرفت بصديق فى بلد معين فى أثناء سفرى أو سياحتى ، فإن رؤية الصديق أو ذكراه قد تذكرنى بذلك البلد ، كما أن رؤية البلد أو ذكراه تذكرنى بالصديق ؛ كذلك إذا حصل للإنسان حادث أليم أو حلت به فاجعة فى وقت معين كوقت الغروب مثلا ، فقد ينبه الغروب عند مجيئه ذكرى الحادث أو الفاجعة ، وإذا رأى الإنسان فى عرض الطريق وجه شخص يشبه وجه صديق قد يذكر فى الحال ذلك الصديق وإذا حفظ الإنسان أرقاماً بترتيب خاص أو كلمات قد لا تجمعها أية رابطة معنوية فإن ذكرى إحداها قد يدعو إلى تذكر ما يليها من الأرقام أو الكلمات ، وقد يذكرنا الأبيض بالأسود أو البارد بالحار ، أو الطويل بالقصير ، وهلم جرّا .

فبالتأمل فى هذه الأمثال المختلفة يتبين أن العلة فى إيقاظ فكرة بأخرى ترجع إلى وجود صلة فكرية تؤلف فيما بينها وتجمعها فى المخيلة فى آن واحد ، فالصلة فى المثل الأول هى صلة تلازم أو تجاور ، وفى المثل الثانى صلة مكان ، وفى الثالث صلة زمان ، وفى الرابع صلة تماثل ، وفى الخامس صلة تعاقب ، وفى السادس صلة تضاد ، وهناك صلات أخرى تجمع الأفكار المختلفة بعضها ببعض ، وتؤلف فيما بينها ، وسيأتى ذكرها .

فما تقدم يمكننا أن نستخلص التعريف الآتي لظاهرة تداعي المعاني فهي خاصية تنبيه الأفكار أو الخواطر بعضها بعضاً بسبب سابقة ارتباطها في العقل برابطة فكرية مشتركة ؛ أو بعبارة أوجز هي « تنبيه فكرة بأخرى تجمعهما ممارسة عقلية سابقة » .

ومما يجب لفت النظر إليه أن هذه الظاهرة في مجموعها تشمل دورين من أدوار الإجراءات العقلية مختلفين ومستقلين بعضهما عن بعض — أحدهما سابق ، والآخر لاحق — فالسابق هو الارتباط الذي يجريه العقل ليصل بين فكرتين أو أكثر ويؤلف بينهما ، وهذا يأتي عن طريق الخبرة أو الممارسة العقلية ، وبعد أن يتم تكوين الرابطة الفكرية بين الخواطر المختلفة ينتهي الدور الأول وهو دور التكوين ، ثم تبقى الأفكار الموصولة كامنة في العقل إلى أن يجيء الدور الثاني وهو دور العمل أو التنبيه ، وذلك عندما تتنبه إحدى الفكرتين في العقل بفعل أي مؤثر من المؤثرات سواء أكان ذاتياً أو خارجياً ، فإن الفكرة التي تنبهت توقظ معها الأفكار الأخرى الكامنة السابق ارتباطها معها .

والفرق بين العمليتين جوهري من حيث أن العملية الأولى خاصة بربط الأفكار أو الخواطر ببعضها كما تقدم ، أما الثانية فخاصة بتنبيه الأفكار المرتبطة بعضها ببعض ، فلا بد إذاً من توافر الرابطة العقلية مقدماً حتى تتولد خاصية التنبيه مؤخراً ، إذ لولا الارتباط السابق لما وجد التنبيه اللاحق ، والعملية الأولى إنشائية بخلاف الثانية فهي وظيفية أو عملية ، حيث تكون فيها الأفكار الكامنة في العقل قابلة للتفاعل بمؤثرات أو منبهات خاصة ، فهي ظاهرة تنبيه عقلية ، فكما أن رائحة الطعام أو طعمه أو مضغه قد تنبه إفراز اللعاب أو العصارة المعدية ، كذلك سماع بعض الكلمات أو الأصوات ، أو لمس بعض الأشياء ، أو شمها

أو رؤيتها أو مذاقها قد يذبه فى العقل الصارة الفكرية ، والعملية الأولى فيها معنى التركيب والبناء ، أما الثانية ففيها معنى التحليل ، لأنها لا تولد فكرة جديدة ، بل من شأنها تحليل الأفكار التى ارتبطت فى العقل قديماً ، والدلالة على ما تتألف منه من عناصر وجزئيات .

لهذا كانت عبارة « Association of Ideas » التى اصطلح عليها الإفرنج للتعبير عن هذه الظاهرة المزدوجة التركيب ليست دقيقة المعنى ، لأن مدلولها قاصر على عملية الترافق أو الارتباط ، وليس فيها معنى التنبيه مع وضوح الفرق بين الظاهرتين كما تقدم ، ولذلك سأطلق على العملية الأولى « القران العقلى »[١] أو « الارتباط العقلى » تمييزاً لها عن عملية التنبيه نفسها التى أسميها «بالتفاعل العقلى» أو « التداعى » ولما كانت عملية التفاعل أو التداعى هذه تستلزم وجود خاطرين: أحدهما يؤثر فى الثانى وينبهه ، فسأطلق على أولهما « المنبِّه » بالكسر ، وعلى ثانيهما «المنبَّه» بالفتح، وعلى التأثير الصادر من أولها « بالتنبيه » أما الأثر المترتب عليه وهو تنبيه الخاطر الثانى وإيقاظه فى الذاكرة فسأطلق عليه « رد الفعل » أو « التلبية » .

ولأجل إيضاح ما تقدم أضرب لذلك مثلا ، وهو أن كلمة « جمل » التى تدل على ذلك الحيوان المعروف لنا جميعاً بهذا الاسم قد تبعث عند ذكرها صورته فى المخيلة ، غير أن معرفتنا لمدلول كلمة « جمل » تقتضى سابقة ممارسة العقل سماع كلمة « جمل » عند رؤيته منذ عهد الطفولة ، وذلك هو دور التكوين ، فمن ذلك الحين ارتبطت كلمة « جمل » فى العقل

---

(١) القران فى اللغة هو الجمع بين شيئين ، فيقال:قرن الشىء بالشىء أى وصله به، وقرنت الأسرى فى الحبال ، أى ربطت بالحبال،والقرن الحبل إذا قرن به بعيران،وهو مأخوذ من قولهم قرن الشخص للسائل إذا جمع له بعيرين فى قرن واحد أى حبل واحد.

بصورته وشكله وصوته ، وظلت هذه الصلة كامنة فى العقل ، حتى إذا رأيناه فيما بعد تذكرنا اسمه ، أو إذا سمعنا اسمه تذكرنا شكله أو صوته ، وهذا هو دور التنبيه ، والذى دعانى إلى اختيار التمثيل بالجمل ، هو أنى وقت كتابة هذه السطور كنت أسمع رغاء جمل فى خارج المنزل ، فذلك الصوت أيقظ فى ذهنى صورة الجمل ، وصورة الجمل أيقظت اسمه ، لأن كلا منهما ارتبطت فى ذهنى قديماً بالآخر ، فالخبرة القديمة تمثل عملية « القران أو الارتباط العقلى » ، أما تنبيه ذكرى الجمل فى ذهنى عند سماعى صوته فتمثل « التفاعل العقلى » الناشىء عن صوت الجمل ، والوظيفة التى قام بها ذلك الصوت من حيث تذكيرى بالجمل ، هى « التنبيه » ، والأثر المترتب عليها وهو ظهور الجمل فى مخيلتى ، ثم تنبيه اسمه هو « رد الفعل » أو « التلبية » .

ومما تقدم يتضح صعوبة إيجاد كلمة واحدة أو عبارة واحدة تشمل عمليتى القران والتفاعل معا ، وبما أنه جرى العرف والاصطلاح قديماً على التعبير عنها « بارتباط الأفكار أو تداعى المعانى Association of Ideas » لتمثل كلتا الظاهرتين بصفة عامة ، فلست أرى موجباً للعدول هنا عن المألوف ، وسأستخدمها كلما أردت التعميم بما أن مدلولها سيكون مفهوماً بالقرينة ، وإذا اقتضى الحال التخصيص فى بعض المواضع ، أشير إلى ذلك فى سياق الكلام بما يدل عليه بأحد الاصطلاحات الخاصة المتقدمة الذكر .

أسباب ظاهرة ارتباط الأفكار وتعليلها

لقد حار العلماء في كيفية تولد ظاهرة ارتباط الأفكار وفي علة وجودها ، فبعضهم شبهها بالجاذبية ، ومن بين هؤلاء العالمان « ريبو وهيوم » ، وبعضهم كالعلامة « وليم جيمس » أرجعها إلى قانون « الاعتياد العصبي Law of Neural Habit » ، أي أن المرجع فيها إلى العادة التي ألفها العقل عن طريق الممارسة والخبرة ، وقد وضع لها القاعدة الآتية :

when two elementary brain-processes have been active together or in immediate succession, one of them, on recouring, tends to propagate its excitement into the other.

وتعريف ذلك :

« إذا مارس العقل فكرتين في وقت واحد أو على التواتر ، فإن تنبيه إحداهما في العقل ثانيا يؤدي إلى تنبيه الأخرى معها » .

والعادة من شأنها أن تجعل انتقال التيار العصبي بين مركزين سهلا ، وأن تجعل الطريق بينهما ممهداً ، فتنبيه أحد المركزين في المستقبل من شأنه نقل أثر التنبيه منه إلى الآخر ، أو دفعه إلى السير في نفس الطريق ، أو الممر العصبي الذي كان قد سلكه من قبل .

وقد حاول بعض العلماء رد هذه الظاهرة إلى وظيفة عضوية أو أسباب « فسيولوجية » ترجع إلى كيفية تكوين الخلايا العصبية في المخ ، مستندين في ذلك على ما أظهره أخيراً علم التشريح الدقيق من وجود ألياف عصبية تصل ما بين المراكز العصبية المختلفة بعضها ببعض ، سميت « ألياف الاتصال »

« Association fibres » ؛ وقالوا إن التيارات العصبية تنتقل من مركز إلى مركز عن طريقها ، وبأن الخبرة أو الممارسة من شأنها أن تمهد ذلك الطريق وتجعله أكثر صلاحية وأعظم قابلية لنقل التيارات . ومما يزيد هذا التعليل وجاهة كشف مراكز عصبية تصل بينها ألياف من هذا القبيل من المنطقة الصامتة من « اللحاء » Cortex « (وهى الطبقة العليا السنجابية للمخ) » ومجالسها الجزء المقدم للفص الجبهى للمخ بعد الشق المعروف باسم شق رولاندو — « Fissur of Rolundo » ؛ وقد سميت بالصامتة لخلوها من مراكز الحس والحركة ، وفى مقدمة القائلين بهذا الرأى العلامة « فلشسج Fleshisg » أول مستكشف عن تلك المراكز التى سماها « مراكز الاتصال Association Centers » ، وكان يظن فى بادىء الأمر أن هذه ليست لها وظيفة حيوية ، مع أن نسبة مساحتها فى مخ الإنسان أكبر منها فى القردة والحيوانات التى تكون أقل مرتبة من الإنسان ، وذلك نظراً لأن تلف جزء منها ، أو إصابته لا يترتب عليه إحداث أعراض ظاهرة فى وظائف الحس أو الحركة ، ولكن ظهر بالتجربة العلمية أن الإنسان مع ذلك يفقد مجموعة من مواهبه الفكرية الراقية ومعلوماته المكتسبة بالخبرة والمران تختلف باختلاف موضع الإصابة ، فقد روى العلامة هليبرتون « Hullburton » فى كتابه علم وظائف الأعضاء صفحة ٧٣٢ ، أنه حدث مرة انفجار فى منجم فأصيب أحد العمال بكشط جزء فى المنطقة الصامتة من اللحاء ، ولما شفى من إصابته لم تظهر عليه أى أعراض تستحق الذكر وعاد إلى عمله ، ولكنه لم يلبث طويلا حتى اتضحت عدم صلاحيته له ، إذ تبين أن الوظائف العليا للمخ والمواهب الفكرية الراقية ، قد تأثرت بسبب الإصابة .

وعدا المنطقة الصامتة فإنه لوحظ أن بعض المعلومات الاكتسابية قد اتخذت لها مواطن أخرى مجاورة لمراكز الحس فى الطبقة السنجابية ، بحيث أن إتلاف جزء من تلك الطبقة فى المساحة المجاورة لمركز السمع (ومجلسه القسم الخلفى للتلفيف

الصدغى الأعلى) يترتب عليه فقدان الإنسان معلوماته السماعية ، وإتلاف الجزء المجاور لمنطقة البصر (ومجالسها الفص المؤخرى للمخ) يترتب عليه فقدان المعلومات البصرية ، مع بقاء حاستى السمع والبصر سليمتين ، لأن مراكز كل منهما نفسها لم تمس ، وإن أصحاب الرأى المتقدم يستندون فوق ذلك فى تأييد حجتهم بإسناد ظاهرة تداعى المعانى إلى أسباب طبيعية فى المخ ، بما يشاهد من نمو ألياف الاتصال وتقويتها ، وازدياد تشعب أطرافها وتعاشقها بتفرعات المراكز العصبية الأخرى المقابلة لها ، وذلك بالتمرين والممارسة وبما يشاهد من ضمورها وتقلصها ، فتتباعد عن التفرعات المقابلة لها بالترك وهجر التمرين ، كما أنه وجد أن للمران العقلى أثراً محسوساً فى نمو نفس الخلايا التى تتألف منها المراكز العصبية ، فإتلاف شبكية العين أو العصب البصرى فى الصغر من شأنه أن يؤثر فى نمو الطبقة السنجابية للفص المؤخرى عند مركز الإبصار ، وأن خلاياه العصبية تبقى ضامرة ضعيفة ، وأن الألياف المتفرعة منها والتى وظيفتها نقل التيارات العصبية من مركز لآخر تكون دقيقة قليلة التشعب ، وما ذلك إلا لإهمالها وحرمانها من المران على العمل .

فكما أن المران الجثمانى يقوى العضلات وباقى أنسجة البدن ، كذلك المران العقلى يقوى المراكز العصبية الخاصة بكل نوع من أنواع الخبرة والتربية العقلية ، وينمى خلايا تلك المراكز ويقوى أليافها العصبية ، أنظر الشكل الآتى نقلا عن كتاب علم النفس للأستاذ وودورث « R.S. woodwarth » فهو يمثل خليتين عصبيتين لمركزين من مراكز الخبرة بأليافها العصبية قبل التمرين وبعده : أنظر الرسم البيانى ص ٢٣١ .

والذى يهمنا من كل ما تقدم هو إثبات أن الخبرة التى يمارسها الإنسان فى جميع أدوار حياته تترك أثراً محسوساً فى خلايا المجموع العصبى وأنسجته ،

وأنها تبقى فيه كامنة ومستعدة للظهور كلما سنحت الفرصة بتنبيهها ، ويمكن التدليل على ذلك عمليا بالتجارب البايولجية (الحيوية) أيضاً ، وذلك أننا

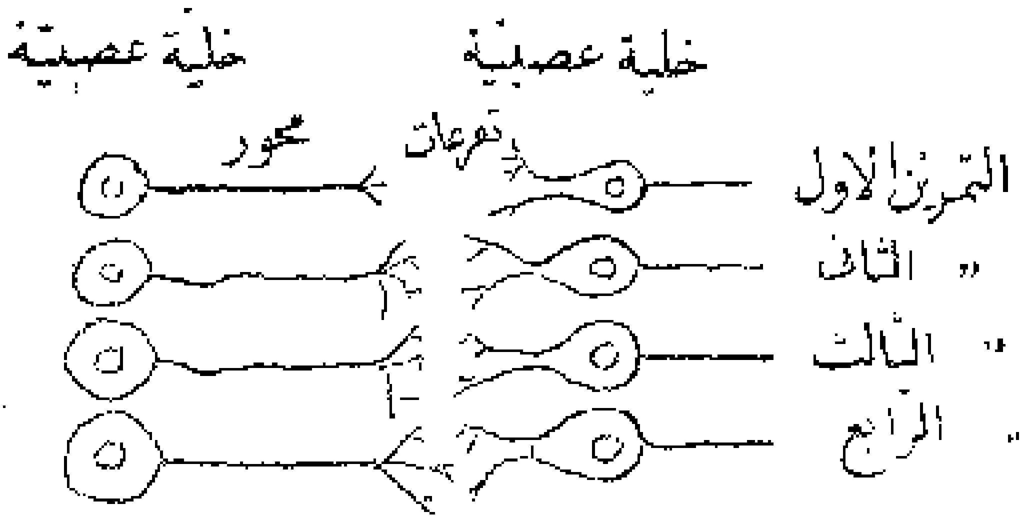

إذا جئنا بضفدعة وقطعنا رأسها ، وبعد قطع الرأس غمرنا إحدى ساقيها في محلول قوى من الحامض الكبريتي ، شاهدنا أن الساق تنكمش كما لو كانت تقصد أن تنفر الحامض عن الجلد أو تتجنبه ، فالتنبيه يبدأ من أطراف الأصابع متجهاً نحو مركز الحس من النخاع الشوكي ، ثم ينتقل منه إلى مركز الحركة ، فأعضاء الحركة المخصصة للدفاع بواسطة العصب المحرك ، فإذا استخدمنا بدل الحامض المركز حامضاً مخففاً عشرين ضعفاً وغمرنا الساق فيه ألفيناها في بادىء الأمر لا تنكمش وما ذلك إلا لكون التنبيه الواقع على مركز الحس في هذه المرة كان ضعيفاً ، بحيث لم يكف لإيقاظ مركز الحركة ودفع الأعضاء إلى العمل ، ولكن بتكرار غمر الساق عدة مرات متواليات في السائل المخفف المذكور يبدأ أثر التنبيه في الظهور في المرة العاشرة أو الحادية عشرة ، ثم يقوى تدريجيا ، حتى إذا ما وصلنا إلى المرة الخامسة عشرة أو المتممة

العشرين مثلا وجدنا الساق تتقلص تقلصا محسوسا ، وتمثلت فيها نفس الحركة التي شوهدت أولا عند وضعها في السائل المركز في التجربة الأولى ، فإذا راعينا أن السائل المخفف لم تتغير قوته طول مدة التجربة الأخيرة ، وأن غمر ساق الضفدعة فيه عند آخر دفعة لا يختلف عنه في أول دفعة ، أمكننا أن ندرك أن الأثر المحسوس الذي وصلنا إليه في النهاية هو نتيجة تراكم التأثر الحسي في مركز الحس ، إذ بتكرار عملية غمر الساق عشرين مرة تجمعت في هذا المركز كمية من الإحساس في الدفعة الأخيرة تزيد عشرين ضعفاً عليها في الدفعة الأولى ، وبذلك أصبحت كمية الإحساس كافية لتنبيه مركز الحركة ودفع العضلات إلى العمل .

هذه الخبرة الحسية المتكررة لم تضع سدى ، بل ظلت محفوظة في المركز العصبي المخصص لها فترة من الزمن ، وبناء على هذا يمكننا أن نعتبر أن الخلايا العصبية للنخاع الشوكي للضفدعة لها ذاكرة من نوع ما ، ولا شك في أن هذه الخاصية تكون في المراكز العصبية لمخ الإنسان أكثر وضوحاً وأرقى درجة منها في نخاع الضفدعة المقصومة الرأس ، فالمراكز العصبية تبقى متأثرة بهذه الخبرة طويلا ، ولكن لا يؤخذ من هذا أن التأثر يبقى محسوسا باستمرار ، بل ينقطع الشعور به بانقطاع المنبه أو المؤثر ، إذ لولا ذلك لأصبحت حياة المخلوق وبالأخص الإنسان عبئاً ثقيلا لا يطاق ، فمن منا يستطيع أن يسمع ويرى باستمرار كل ما اتفق له سماعه من الأصوات ورآه من المناظر بدون انقطاع ؟ كذلك إذا حل بالإنسان حادث محزن ، فإنه يترتب على عدم انقطاع الشعور به ملازمة تأثيره السيء له طول الحياة .

فالخبرة الماضية — وإن كان الإحساس بها يكون معدوماً في معظم الأحيان — موجودة بالفعل ، ولكنها كامنة في باطن العقل راكدة فيه ،

وما ذلك إلا لنفع الإنسان وخيره ؛ لهذا كانت مقدرة الكائنات الحية على الاحتفاظ بمعلوماتها الماضية بنسبة رقيها ، ففي الأحياء الأولية ، أو الدنيئة ، يشاهد أن جميع الأفعال تكون خاضعة لتنبيه المؤثرات الخارجية مباشرة ، سواء كانت طبيعية أو كيماوية ، أما الأحياء الراقية فإنها لا تستطيع أن تعيش مقتصرة على ما تحدثه بها التنبيهات الخارجية من الأثر الوقتي والذي يزول بزوال المؤثر ، بل هي في أشد الحاجة إلى الاحتفاظ بما مر بها من خبرة وتجارب للرجوع إليها عندالحاجة وحتى يمكنها بذلك أن تربط ما بين الماضي والحاضر ، وتهيء لنفسها العدة للمستقبل .

وفي حياة الإنسان نرى أن مشاعره الوقتية لا تكون إلا جزءاً يسيراً من مجموعة حياته العقلية وأفكاره ؛ وأن جل اعتماده على ما خبره من الحوادث ، وكابده في ماضي حياته ، أو حصل عليه من المعلومات على مر الأيام والأعوام .

تقسيم تداعي المعاني

من حيث الروابط الفكرية أو أنواع القران العقلي

لقد ذهب علماء النفس إلى تقسيم تداعي المعاني من حيث نوع الروابط الفكرية أو القران العقلي إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، وهي :

١ — ارتباط بسبب التلازم أو القران

Assoc. by Contiguity or Simultaneity

٢ — ارتباط بسبب التواتر أو التعاقب Assoc. by Succession

٣ — ارتباط بسبب التماثل أو المشابهة Assoc. by Similarity

أولا — الارتباط بسبب التلازم أو الاقتران :

وهو يتولد بسبب اعتياد الفكر إدراك شيئين مقترنين بعضهما ببعض ،

أو متلازمين وجوداً ، كما لو كنا اعتدنا أن نرى شخصين مترافقين دائماً ، أو نرى شخصاً اعتاد أن يلبس ثوبا خاصاً ، أو ألفنا أن نسمع منه نشيداً معيناً ، أو نشم منه رائحة عطر خاصة ، فإن رؤية أحد الصديقين منفرداً قد تذكرنا بقرينه ، ورؤية الثوب ، أو سماع اللحن ، أو شم رائحة الطيب ، قد تذكرنا بصاحبه ، ولو بعد حين

ولهذا السبب نشاهد أن بعض الناس تعاف نفوسهم نوعا من الشراب كان مألوفا لديهم من قبل على أثر مرض اعتراهم ، وما ذلك إلا لأنه كان غذاءهم أو شرابهم الوحيد فى مدة المرض ، أو كانوا يتعاطونه ممزوجا بدواء كريه الطعم ، فتعاطيهم إياه بعد شفائهم ينبه ذكرى المرض أو غضاضة الدواء ، وإنى أنا نفسى إذا شربت الأنيسون تجزع منه معدتى لأنى كنت أتعاطى زيت الخروع ممزوجاً به فى أيام طفولتى .

كما أنى لبثت زمناً طويلا إذا شممت عطر الأوكاليبتوس شممت معه رائحة جثث الموتى ، وما ذلك إلا لأنى فى عام ١٩١٩ كنت حضرت بصفتى وكيل النيابة المحقق تشريح ١٩ جثة استخرجت دفعة من إحدى المقابر بعد دفنها بأسبوع فى حادث قتال وقع بين أشراف قنا وقبيلة الحميدات ، وكنت خلال مدة التشريح واضعاً فى أنفى قطعة قطن مبللة بزيت الاوكاليبتوس .

وكثير من الناس قد يحضرهم طعم الاشربة والعقاقير بمجرد النظر إليها ، أو بمجرد ذكرها أمامهم ، وقد يشعر بعضهم بتهوع وغثيان ؛ وما ذلك إلا بسبب ربط فكرتين أو أكثر بعضهما ببعض ، بحيث إذا تنبهت إحداها تنبهت الأخرى معها ، ومن ذلك يمكننا أن نستخلص القانون الآتى وهو :

إن الأشياء التى يتفق للعقل ممارستها فى آن واحد ، إذا تنبهت فى المخيلة

صورة أحدها فيما بعد لسبب من الأسباب ، فمن شأن ذلك أن يؤدى إلى تنبيه صورة باقى الأشياء الأخرى التى اقترنت معها .

وهذه العلاقة ليست مقيدة بنوع من أنواع الحس الواحد ، بمعنى أن المرئيات لا تنبه غير المرئيات أو المحسوسات السماعية لاتنبه إلا السماعيات وهكذا ، بل قد تتم الروابط الفكرية بين خبرة بصرية وأخرى سماعية أو شمية أو ذوقية أو لمسية وهلم جرا ، إنما كل ما يشترط لتكوين الصلة أو الرابطة أن تقع الخبرتان فى آن وتحد ، حيث بذلك يتم ركن التلازم ، فإن شكل « الكمنجة » قد يوقظ فى الذهن صوتها ، ورائحة البرتقالة قد تذكرنا بطعمها ، ولمسها فى الظلام قد يذكرنا بلونها ، ورؤيتها عن بعد قد تبعث فى الفم طعمها ، وفى الأنف رائحتها ، وهكذا .

ثانياً — الارتباط بسبب التواتر أو التعاقب أو « القران التواترى » :

والمقصود بذلك الأشياء التى ألف العقل أن يدركها أو يشعر بها متواترة بعضها إثر بعض ، حتى ولو لم تكن بينها أدنى رابطة معنوية ، مثل الأعداد المتوالية ، فإن رقم ١ قد يذكرنا برقم ٢ ورقم ٢ يذكرنا برقم ٣ وهلم جرا . وهناك ألفاظ لا معنى لها يحفظها الأطفال مرصوصة بترتيب خاص ، فيسردونها أثناء لعبهم محافظين على ذلك الترتيب بدقة[1] .

ومن نوع الارتباط بسبب التعاقب المحفوظات على العموم من شعرية ونثرية ، وحفظ الأطفال الآيات والسور القرآنية وتلاوتها بسرعة وإتقان ، وهم لا يفقهون معناها ، وكذلك حفظ الأنغام والألحان الموسيقية التى ليست لفظاً ولا لها معنى معروف ، فإنها تعد خير مثال للارتباط بطريق التواتر ، إذ أنه بمجرد تنبيه الذهن

---

(١) ومن هذا القبيل العبارة المعروفة لكل منا فى عهد الطفولة وهى « حادى بادى سيدى محمد البغدادى شالوا وحطوا كله على دى » ويقابلها عند أبناء الافرنج .
« Anna mana mona mike Barcelona bone stike

بمبدأ النغم يوقظ فيه ذكرى النغمة التالية لها فى الحال ، وهذه تبعث ما بعدها وهكذا حتى يأتى الإنسان على آخر القطعة ، سواء أكانت توقيعاً أم ترنماً بغير كلفة أو عناء ، وهذا ما يجرى الأطفال عند مبدأ تعلمهم الكلام واللغة ، فإنه قد يستعصى عليهم تذكر بعض المسميات التى تعلموها حديثاً ، ولكن بمجرد تذكيرهم بأول حرف للكلمة يذكرونها بأكملها على الفور ، وكثيراً ما كنت أجرى هذه التجربة التافهة مع ابنتى الصغيرة ، (وهى فى منتصف الحول الرابع من عمرها) ، أسألها عن أسماء المحطات الواقعة بين حلوان والقاهرة ، فما كانت تستطيع تذكرها من تلقاء نفسها ، وفى معظم الأحيان تطلب منى أن أذكرها بأول حرف من اسم المحطة ، وعندما أذكره لها تنطلق على الفور باسم المحطة كاملا ، أما إذا أخذتها معى فى القطار ، وأريتها شكل المحطة بالذات ، فإنها فى الغالب تتذكرها من تلقاء نفسها ، فالتداعى فى الحالة الأولى (أى عند تذكيرها بأول حرف فى الكلمة) مبنى على رابطة التواتر ، وفى الحالة الثانية (أى عند رؤيتها المحطة) ، مبنى على رابطة التلازم ، كذلك ذكر الكلمة الأولى من بيت الشعر قد يذكرنا بباقى البيت ، وذكر البيت الأول من القصيدة أو مطلعها قد يذكرنا بالقصيدة بأكملها وهكذا ، وكثيراً ما يستعين الإنسان على التذكر باستعادة بعض الأبيات السابقة مباشرة للبيت المنسى .

. . . .

وقد رأى كثير من علماء النفس أن رابطة التواتر هذه فى الواقع مندمجة فى القسم الأول الخاص بالتلازم أو الاقتران ، لأن التعاقب معناه التجاور أو التلاصق الزمنى ، وهو لا يختلف فى جوهره عن التجاور المحلى أو المكانى ، وأيدوا رأيهم هذا بقولهم إن حالة التلازم والتلاصق هى فى الواقع حالة تواتر وتعاقب للملكة الانتباه ، لأنه من المتعذر على الإنسان أن يسلط أشعة انتباهه إلى شيئين فى آن واحد ، ويجمعها فى بؤرة واحدة ، حتى ولو كانا

متلازمين أو مقترنين بعضهما ببعض ، وفي مقدمة القائلين بهذا الرأي العلامة « وارد — Ward » .

ولكن هذا الرأي على ما فيه من وجاهة ، يرد عليه بأنه ليس من المتعذر على الإنسان أن يسمع عدة ألحان موسيقية ممزوجة بعضها ببعض أو ممزوجة بألحان غنائية ، أو يدرك الطعم الخاص لمزيج شرابين مختلفين ، ومع ذلك فإن تعاطى أحدهما منفرداً كثيراً ما ينبه طعم الشراب الآخر ، وهذا ما يحصل عند تعاطى دواء كريه ممتزجا بشراب مقبول الطعم ، فمن المتعذر أن يتصور الإنسان أن التداعي هنا يرجع إلى توجيه ملكة الانتباه إلى طعم كل من الشرابين على التعاقب حال تعاطيهما ممزوجين .

فالرابطة العقلية ، ليست في هذه الحالة رابطة تواتر وتعاقب ، كما ذهب إلى ذلك العلامة وارد ، بل رابطة تلازم بحت ، أضف إلى هذا أن ملكة الانتباه ربما لا يكون لها أقل دخل في عملية القران أو الارتباط العقلي ، إذ قد يتم ذلك بين خاطرين من غير أن تتجه ملكة الانتباه إلى أحدهما ، كما لو سقط بناء على من فيه من السكان ، وأصيب بعضهم بإصابات جسيمة ، فإنه إذا اتفق لمن أصيب منهم ، ولو بعد حين ، أن شم عرضاً رائحة غبار بناء منهدم قد حملته إليه الريح من أي مكان تنبه في الحال رائحة الغبار ذكرى الحادث القديم ، وتثير في النفس وجدان الهلع والرعب الذي كان مستحوذاً عليها وقت الحادث ، مع أن جل انتباه الشخص كان وقتئذ محصوراً في خطورة الموقف ، وكل مشاعره وحواسه مستغرقة فيما كان محدقا به من خطر ، ومن هذا القبيل رائحة الحريق لدى من نكبوا به وهذا نوع من أنواع « القران اللاشعوري » وسيأتي الكلام فيه تفصيلا .

أما القول بأن التواتر يستلزم التجاور الزمني فمردود عليه بأن العقل قد يربط

عدة وقائع مختلفة بعضها ببعض لمجرد حصولها بترتيب ونظام خاص ، ولو مع وجود فترات زمنية طالت أو قصرت بين كل واقعة وأخرى ؛ حتى ولو عكر سكون تلك الفترات وقائع ثانوية غير متكررة في كل دفعة ، مثال ذلك إذا اعتاد الإنسان في وقت الظهر أن يسمع صوت المؤذن ثم طلقة المدفع ثم ناقوس الكنيسة على التعاقب ، فإنه قد تتألف في العقل رابطة فكرية بين هذه الوقائع الثلاثة لمجرد تكرار حدوثها متواترة بنظام ثابت يومياً من غير مراعاة لما بينها من فترات زمنية وسواء تخللها حركة أم سكون مطلق ، فعلة الارتباط هنا ليست التجاور الزمني ، بل مجرد تكرار الوقائع المختلفة بترتيب ثابت ، بمعنى أنه إذا نبهت إحداها في الذهن تنبهت باقي الوقائع الأخرى التالية لها بترتيبها السابق الذي ألفه العقل ، فكان الفكر أشبه بشريط « السينما » يستعرض صور الحوادث مرتبة بنفس الترتيب الذي التقطها به من قبل .

ومن قبيل الارتباط بسبب التعاقب ارتباط النتيجة بالسبب ، فإن العقل إذا ألف نتائج ثابتة لحوادث معينة ، فإنه يربط المقدمات أو الأسباب بالنتائج ولو لم يوجد بينها تجاور زمني أو تعاقب سريع ، فإن كلمة قتل مثلا قد تذكرنا بكلمة إعدام ، لأننا اعتدنا أن نرى القتل يعقبه عادة الحكم بالإعدام ، ولو استلزم ذلك إجراءات محاكمة كثيراً ما تكون مطولة ، ولكن الصلة ناشئة عن مجرد التعاقب ، إذ أن النتيجة دائماً تعقب السبب ومتأخرة عليه في الترتيب ، وكثيراً ما تفصلهما وقائع جزئية تستغرق وقتاً يتعذر معه تصور التلاصق أو التجاور الزمني المفروض .

فمن كل ما تقدم نرى أن هناك اختلافاً بين « القران بالتلازم » و « القران بالتواتر » حتى ولو كانت الخواطر في الحالة الأخيرة بينها تجاور وتلاصق زمني ، وذلك فضلا عن الفرق العملي بين الحالتين من حيث الأثر المرتب عليهما ، فإنه

إذا جاء دور التنبيه أو التداعى فإن الخواطر التى ارتبطت بعضها ببعض عن طريق التلازم من شأنها أن تنبه بعضها بعضاً بغير تمييز أو ترتيب خاص عادة ، أما الخواطر التى ارتبطت عن طريق التعاقب ، فإنها تنبه بعضها على الترتيب الذى ألفه العقل من قبل بمعنى أن الخاطر السابق ينبه اللاحق وليس بالعكس ، وإلا أمكن الإنسان أن يقرأ الأشعار والمحفوظات المختلفة بطريقة عكسية بنفس السهولة التى يقرؤها بها بالطريقة الاعتيادية ، فيذكر المحفوظات أو القصائد مبتدئاً من آخر كلمة أو آخر حرف فيها ، راجعاً من أسفل إلى أعلى حتى يأتى على أولها ، ولكن كلنا يعلم بالخبرة أن ذلك متعذر . ما لم يلجأ الإنسان إلى مران جديد على هذه الطريقة العكسية ليكون ارتباطاً تواترياً جديداً ، ويمكن إجمالا تشبيه الأشياء التى ارتبطت فى الذهن بسبب التلازم ، كما لو كانت مجتمعة فى شبه سطح مشدود قابل للتذبذب مثل الرق أو الطبلة ، بحيث إذا قرع أحد أجزائها تذبذبت معه باقى الأجزاء ، أما الأشياء التى ارتبطت عن طريق التواتر فإنها تكون أشبه شىء بسلسلة من عدة حلقات مدلاة ، بحيث إذا قرعت إحدى حلقاتها تذبذبت الحلقات السفلى التالية لها دون سابقتها العليا .

ثالثاً — الارتباط بسبب التماثل أو التشابه :

ومعناه أن ترتبط الخواطر فى العقل بسبب ما بينها من تماثل أو تشابه ، فيوقظ المثيل فى الذاكرة مثيله ، أو الشبيه المشبه به ، كما لو كان بين شخصين شبه من بعض الوجوه فإن رؤية أحدهما قد تذكرنا بالآخر ، ولا يشترط أن يكون التماثل تاما والشبه متطابقا ، بل يكفى أن يكون هناك شبه ولو جزئيا ، كما لو كان التشابه فى العينين دون باقى أجزاء الوجه ، أو فى الأنف أو الفم أو الحاجبين والجبهة دون غيرها ، ولكن هذا النوع من « القران » هو فى الواقع « قران تلازم » ناشىء عن ارتباط الجزء بالكل ، لأن هذا التشابه الجزئى هو الذى ينبه فى الذاكرة الصورة الماضية كاملة ، ولما كان الجزء والكل متلازمين فإن كلامنهما

من شأنه أن يبعث ذكرى الآخر ، كما إذا كنت دعيت إلى وليمة كان فيها جمع من الناس ، ثم قابلت أحدهم بعد ذلك ، فإن رؤيته قد توقظ في ذهنى صورة الوليمة بمشتملاتها وبأوجه باقى من دعوا إليها ، فالرابطة هنا رابطة الجزء بالكل ، ومن خواص الجزء أن يذكرنا بالكل بسبب ما بينهما من التلازم الوجودى ؛ فإذا ذكرتنا عيناً عابر طريق بوجه الصديق فما ذلك إلا لأننا اعتدنا أن نرى صورة هاتين العينين تحيط بهما باقى أعضاء وجه الصديق التى ألفناها فيه من قبل ، بل ربما تخيلناها فى وجه عابر الطريق ، فبدا لنا الشبه بينهما متطابقاً .

ولقد ذهب بعضهم إلى أن الارتباط بالتشابه هو الأصل وأن الارتباط بالتلازم هو الفرع ، مستندين فى ذلك إلى أن العقل إذا اعتاد أن يرى شيئين أو أكثر متلازمين فإنهما يكوّنان فى هذه الحالة مجموعة واحدة فى المخيلة ، أو وحدة مؤلفة من جزئيات ، حتى ولو كانا مختلفين من حيث المصدر الحسى ، مثال ذلك : إذا التفتنا إلى البرتقالة ولونها ورائحتها وملمسها وطعمها ، فإنها تكوّن فى الذهن مجموعة من المحسوسات خاصة بالبرتقالة ، فإذا اتفق للإنسان أن رأى بعد ذلك جسما يشبه البرتقالة ، إما فى الاستدارة وإما فى اللون وإما فى الملمس وإما فى الطعم وإما فى الرائحة ، فإن كلا منها من شأنه أن يوقظ فى الذهن ذكرى البرتقالة ، بما يتبعها من مجموعة أوصافها المختلفة ، نظراً لما بينه وبين إحدى صفات البرتقالة من التشابه .

وإنى أذكر على سبيل المثال أن ابنتى الصغيرة كانت تلعب مرة « ببالون » أحمر اللون وقد تسرب منه معظم هوائه حتى صغر حجمه وتكرمش جلده قليلا ودكن لونه ، وكانت فوهته مربوطة بخيط ، فلاحظت أن ابنتى جذبت طرفه المربوط بإحدى يديها وهى ممسكة مؤخره باليد الأخرى ، ثم صاحت بغتة بقولها : « نحلة أراصيا » ، فلما التفت للبالون ألفيته قد أخذ بين يديها شكل النحلة من جهة استدارته ، وشكل حبة القراصيا من حيث تجعد جلده ودكانة لونه .

واتفق لى مرة حال تناول الغذاء أن وجدتنى أفكر بغتة فى حق صغير من العاج كنت رأيته بمحل تجارى وأعجبت بشكله ؛ وذلك بمجرد أن وقع بصرى على قطعة من صدر دجاجة كانت على مائدة الطعام ، نظراً لما بينهما من التشابه فى اللون .

فالأمثلة السابقة ولو أنها صريحة فى الدلالة على ما للارتباط بطريق التشابه من الأهمية فى ذاته غير أنه بالتأمل يتبين أن حالة التشابه هذه فى الواقع رجوع إلى القاعدة الأولى ، وهى قاعدة ارتباط الجزء بالكل برابطة التلازم والجوار ، والتى اعتبرت فى نظر الكثيرين أنها القاعدة الأساسية لجميع الروابط العقلية على اختلاف أنواعها ، لأن التشابه لم ينشأ إلا عن اشتراك فى صفة من الصفات ، والصفة من طبيعتها اللازمة ، وهى مرتبطة بالموصوف ارتباط الجزء بالكل .

تقسيم تداعى المعانى

من حيث التفاعل أو التداعى بالمعنى الأخص

لقد عرفنا مما سلف أن المراد بالتفاعل العقلى أو التداعى هو ظاهرة تنبيه الأفكار الكامنة فى العقل بعضها بعضاً ، واستدعاء الفكرة المنبهة لفكرة أو سلسلة افكار أخرى سبق ارتباطها بها ، وأن هذه العملية تستدعى وجـــود فكرتين أو خاطرين ، أحدهما يقوم بوظيفة التنبيه ، والثانى يلبى نداء الأول فيتنبه ، واصطلحنا على تسمية العملية الاولى بالتنبيه ، والاثر المترتب عليها برد الفعل أو التلبية .

وقد ذهب علماء النفس إلى تقسيم تداعى المعانى من حيث التفاعل العقلى أو

ظاهرة التداعى إلى عدة أقسام ، بعضها متعلق بنوع التنبيه ، وبعضها الآخر متعلق بنوع التلبية ؛ أذكر منها أهمها وهى :

أولا — تداع حسى وتداع غير حسى أو معنوى .

ثانياً — تداع مباشر وتداع غير مباشر .

ثالثاً — تداع ظاهرى وتداع باطنى .

التداعى الحسى والتداعى المعنوى

المراد بالتداعى الحسى هو الذى تكون التلبية فيه إيقاظ صورة حسية فى الذهن ، بمعنى أن التنبيه فى هذه الحالة يبعث ذكرى إحساس قديم ، كما لو وقع بصرى على شراب ذقته من قبل ، فتذكرت طعمه أو رائحته ، أو شممت رائحة الموز فتذكرت طعمه ولونه ، أو سمعت تغريد طائر فتذكرت لونه أو صورته ، أو رأيت القيثارة فتصورت صوتها ، أو قرأت اسم شخص فى جريدة فتخيلت شكله فهذا كله من قبيل التداعى الحسى .

أما المقصود بالتداعى المعنوى فهو الذى لا تكون التلبية فيه صورة حسية ، بل معنوية بحت لا شأن لها بأى نوع من أنواع الحس ، مثال ذلك إذا وقع بصرى على خطاب جاءنى من صديق فتذكرت أمراً كلفنى به ، أو رأيت كتابا فتذكرت أن أعيده لصاحبه ، أو تذكرت نظرية علمية تضمنها الكتاب المذكور ، أو سمعت بمرض شخص فتذكرت النتائج التى قد تترتب على وفاته ، وإذا ذكرتنى فكرة معنية بفكرة أخرى مماثلة لها ، كما لو كنت أكد ذهنى فى حل معضلة قانونية فذكرنى ذلك بحل معضلة نفسية — أو إذا كنت أبحث نظريات التوافق للموسيقى وقواعد انسجام الانغام ، فأثار ذلك فى نفسى فكرة وجود انسجام مماثل له بين الالوان ، كذلك إذا كنت أرفع حملا ثقيلا فذكرنى ذلك

بما تراكم على من واجبات ، أو إذا كنت حال قطعي تذكرة السفر من شباك التذاكر زاحمني شخص كان متأخراً عني في الترتيب ، وتخطاني بغير حق فذكرني ذلك بحرماني من ترقية أعطيت لسواي بغير استحقاق .

فهذا كله من قبيل التداعي المعنوي ، ولكن ذلك لا يمنع أن يصحب هذا النوع من أنواع التداعي في كثير من الاحيان صور حسية ، كما لو كنت أتخيل صديق في المثل الاول عندما يقع بصري على خطابه ، أو أتذكر شبه من أعارني الكتاب في المثل الثاني ، أو إذا كنت أعرف شخص من تخطاني في الترقية في المثل الاخير فتحضرني صورته .

وهناك أحوال قد يكون طريق التداعي فيها حسيا ، وتارة يكون معنويا . ولو اتحدت التلبية في النتيجة .

مثال ذلك : إذا رأيت شخصاً مسناً فتذكرت على الفور أن عليّ للجمعية الخيرية الإسلامية ثمن تذكرة حفلة خيرية ، فالتلبية هنا قد تكون إما ناشئة عن طريق المعنى تبعاً لوجهة نظري الخاصة في تلك اللحظة ، فإن كان سببها أني عندما وقع بصري على الرجل رثيت لحاله وكبر سنه ، وما هو عليه من العجز والفقر . وتذكرت ما يحتاجه أمثاله من المعونة والمساعدة من جانب الهيئة الاجتماعية ، وهذا ذكرني بعمل الجمعيات الخيرية بصفة عامة ، ثم ذكرني بالجمعيـــــة الخيرية الإسلامية بصفة خاصة ، وهذه ذكرتني بما عليّ من ثمن التذكرة ، كانت هذه الحلقات من الخواطر عبارة عن سلسلة من التداعيات المعنوية ، أما إذا كنت عندما وقع نظري على الرجل قدرت عمره بنحو مائة سنة ، ثم كلمة مائة أثارت في ذهني رقم ١٠٠ قرش المكتوب على التذكرة فتذكرتها ، كان ذلك من قبيل التداعي الحسي ، لأنه نشأ عن طريق الصورة البصرية لرقم ١٠٠ لا الفكرة المعنوية .

كذلك كلمة « مطر » إذا أثارت فى الذهن صورة المطر وهو يتدفق من السماء مع ما يصحبه من تكاثف السحب ووميض البرق وقصف الرعد ، فإن التلبية تكون فى هذه الحالة حسية ، أما إذا أثارت فكرة الرخاء والرواج الاقتصادى ، أو بالعكس أثارت فكرة إتلاف محصول القطن ، وما قد يترتب عليه من الخسارة المالية ، والكساد الاقتصادى ، فإن التلبية تكون هنا معنوية .

والتداعى المعنوى يشغل مركزاً هاماً فى حياتنا العقلية ، فإن الرموز الكلامية أو الشكلية ، أو الخيالية ، كلها من قبيل التداعى المعنوى ، نظراً لما بين الرمز والمرموز له من المعنى المشترك الذى يربط فكرتين بعضهما ببعض لما بينهما من التماثل فى المعنى ؛ فالغرض من الرموز إحداث تداع معنوى بطريق التماثل .

فالرموز الكلامية وهى ما تسمى فى عرف اللغويين بالكناية والاستعارة والمجاز والتشبيه التمثيلى من شأنها أن تقرب إلى الذهن الصور المطلوبة ، فتبعث فى النفس أثرها من طريق التداعى المعنوى ، وذلك فضلا عما فيها من مزية الإيجاز فى العبارة ، والاقتصاد فى اللفظ ، والأمثلة على ذلك فى كتب اللغة لا تعد ولا تحصى ، وأحاديث العامة والخاصة ، وأمثالهم وحكمهم طافحة بها ، كما أنها وردت فى القرآن الكريم بكثرة[١] .

---

(١) فمن ذلك قوله تعالى: «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين. مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون . صم بكم عمى فهم لايرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه،وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير » . سورة البقرة الآية ١٦ – ٢٠ .

ومن قبيل الرموز الشكلية صورة « أبى الهول » التى رمز فيها إلى الحكمة برأس الإنسان ، وإلى القوة بجسم الأسد ، نظراً لما اتصف به الانسان من الحكمة واتصف به الأسد من القوة والبطش .

وكثيراً ما يلجأ المصورون والكتّاب إلى الصور الرمزية للتعبير عن آرائهم ولإحداث الأثر المطلوب فى النفس بأبلغ صورة مما يعجز القلم عن تصويره ، وإنما كل هذا يستلزم بطبيعة الحال وجود التشابه أو التماثل بين الصورة الظاهرة والمعنى الباطن الذى تثيره فى النفس ، وتنبهه فى الخاطر .

أما الرمز الخيالى فإنه إذا كان شخص تطمح نفسه إلى العلا أو الوصول إلى مركز اجتماعى سام ، ولكنه أمامه عقبات جمة وصعوبات هائلة ، جعلت نفسه فى حيرة من حيث إيجاد طريق للوصول ، فقد يرى فى منامه أن أمامه جبلا شامخاً وهو عند قاعدته حيران ، يحاول الصعود إليه ويدور حوله ليجد سبيلا لذلك فلا يفلح ، فهذه الرؤيا من قبيل الرمز الخيالى الصادر من العقل الباطن للتعبير عن حالة نفسية خاصة .

ومن قبيل التداعى المعنوى أيضاً الخيال الشعرى والتأليف ، فإنه كثيراً ما يثير معنى يمر بالذهن فى موضوع ما ، معنى مماثلا له فى موضوع آخر ، وأن ملكة التأليف لم تخرج عن كونها كفاية أو طاقة عقلية ترمى إلى استخدام معان قديمة مشتتة وصوغها فى قالب جديد يكسبها رونقاً وقواماً جديداً ذو معنى مستقل عن الجزئيات ، كما يجمع الإنسان الأحجار والأخشاب ومواد البناء المختلفة ، ويشيد بها منزلا أو قصراً فخماً ، فالقصر لم يخرج عن كونه مجموعة أحجار وأخشاب ، صفت وركبت بشكل خاص يدل على معنى تنطوى تحته فائدة أو منفعة معينة .

وبالتأمل فى المثـل المتقدم نفســه يرى أنه بذاته لم يخرج عن كونه تعبيراً رمزياً ، نظراً لمـا بين التأليف والبناء من التشابه فى معنى الإنشاء والتركيب .

التداعى المباشر والتداعى غير المباشر

المقصود بالتداعى المباشر هو الذى يتم فيه التفاعل بين التنبيه والتلبية مباشرة بمعنى أن ذكر الشيء يتبعه قرينه على الفور ، كما لو رأيت شخصاً فتذكرت اسمه ، أو مررت بدار فتخيلت صاحبها ، أو رأيت زهرة فتصورت رائحتها .

أما التداعى غير المباشر ، فهو الذى يتخلله حلقة تداع أو سلسلة تداعيات خفية أو مستترة ، تؤدى فى النهاية إلى تلبية لا تجمعها بالمنبه الأصلى صلة ظاهرة ، وقد يستعصى على المرء كشف هذه الصلة الخفية فتبقى كامنة فى النفس .

مثال ذلك : أنى كنت مرة أزيل بممحاة من المطاط بعض كلمات على قطعة من الورق ، فألفيتنى بغتة أفكر فى محاضرة كانت ألقيت فى نادى الموسيقى العربية من بضعة أشهر مضت ، فوقفت برهة أسائل نفسى عن السبب الذى دعانى إلى تذكرها ، وبحثت فيما هو مكتوب أمامى ، وفى كل ما هو حولى فلم أوفق إليه ، إلى أن قلبت يدى الممحاة وهى على المائدة — عفواً — فلاحت عينى صورة فيل على وجهها المكشوف ، فخلات خواطرى عن طريق صورة الفيل متتبعاً حلقات التفكير ، فظهر لى أننى بعد أن رأيت صورة الفيل أيقظت هذه الصورة فى ذهنى ذكرى حديقة الحيوان ، لأنى كنت زرتها من عهد قريب ، وحديقة الحيوان ذكرتنى بالنسر ، لأنى ما قصدت زيارة الحديقة إلا للبحث عن ريشة نسر ضمن معروضاتها ، لندرته فى السوق وقتئذ ، ولما كان ريش النسر يستعمل للعزف به على أوتار العود ، وكان هذا كل مقصدى من اقتنائه ، فمن الطبيعى أن

يذكرنى بالعود ، والعود ذكرنى بالموسيقى ، وهذه ذكرتنى بنادى الموسيقى ، والنادى ذكرنى بالمحاضرة التى كانت ألقيت به فى آخر زيارة من زياراتى للنادى (والآن المعهد العالى للموسيقى العربية) .

فهذه الخواطر المتتابعة مرت فى الذهن مسرعة ، بحيث لم تحققها ملكة الانتباه ، ولم تستطع تتبعها واقتفاء أثرها ، فتعذر على العقل الظاهر إدراكها لأول وهلة ، ولم أوفق إلى كشف حلقاتها الخفية إلا من طريق التأمل الباطنى والتحليل الذاتى .

ومن هذا القبيل أيضاً أنى دخلت مخدعى ذات ليلة طلباً للنوم ، وبعد برهة وجيزة وجدتنى تذكرت مأمورية كان قد كلفنى بها صديق قابلته فى مدينة « قنا » منذ أربعة شهور ، وقد سهوت تماماً أن أقوم بها ، ولم أتذكر ذلك إلا فى هذه اللحظة ، فأخذتُ فى الحال أبحث فى علة التذكر الفجائى لواقعة مضى عليها زمن غير يسير فى عالم النسيان ، فلم ألبث طويلا حتى وقفت على السبب ، وهو أنى كنت واضعاً فى فراش النوم عند قدمىّ زجاجة ماء ساخن للتدفئة ، وكنت اقتبست هذه الطريقة من أحد أصدقائى حال اجتماعى به فى مدينة « قنا » ، من مضى سبعة أعوام ، فأدركتُ فى الحال أنه عندما لمست قدمى زجاجة الماء الساخن تنبهت ذكرى صديقى القديم ، وذكراه نبهت ذكرى البلد الذى اجتمعتُ به فيها وهى « قنا » و « قنا » ذكرتنى بذلك الصديق الذى اجتمعتُ به فيها أخيراً من بضعة شهور ، ثم بالمأمورية التى كلفنى بها ، ولكن مرّت هذه الخواطر المتتابعة بسرعة البرق ، فلم يدركها العقل ظاهريا ، وظلت مستترة حتى كشف التأمل عنها .

ومن قبيل التداعى غير المباشر أن يرى الإنسان شخصا فيتذكر آخر فى حين أنه لا تجمعهما علاقة شبه أو صلة ظاهرة ، كما لو كان « محمد » يشبه « عليا » من جهة العينين والحواجب ، و « على » يشبه « حسنا » من جهة الأنف والفم ، فإن رؤية « حسن » قد توقظ فى الذهن ذكرى « محمد » ولو لم يكن بينهما أى تشابه أصالة ، وإنما تتم عملية التداعى باستدعاء صورة « على » أولا إذ أنه يشبه « حسنا » وصورة « حسن » تدعو صورة « محمد » لما بينهما من التشابه ، ولكن تتم هذه العملية بحيث لا يستطيع العقل أن يلحظ صورة « على » حال مرورها بمسرح المخيلة الباطنية ، مع أنها كانت حلقة الاتصال بين « حسن » و « محمد » . فعلى هو العامل المستتر المشترك لأنه يشبه أحدهما من جانب ويشبه الثانى من الجانب الآخر . (أنظر الشكل رقم ٢) .

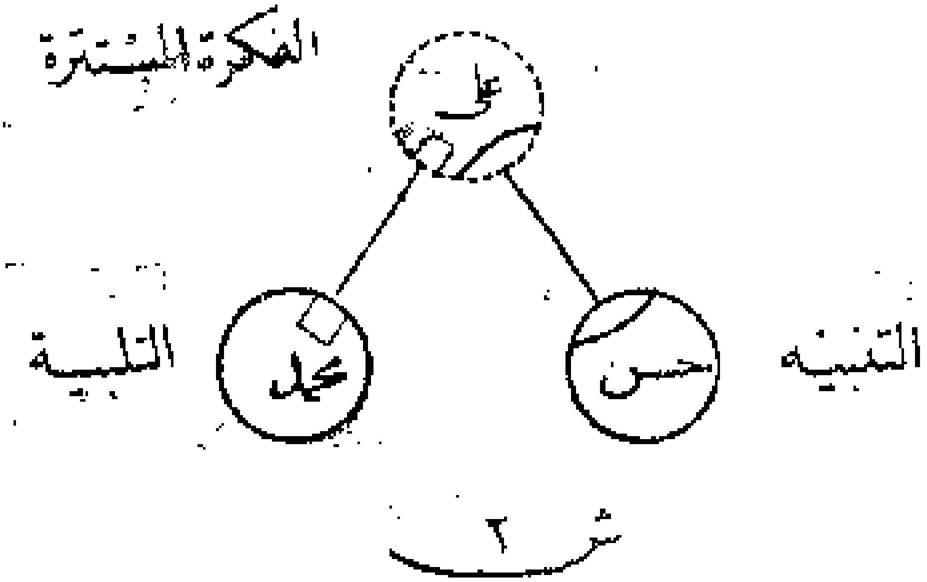

ش ٢

ولعل هذا يفسر ما يشعر به المرء من الانقباض أحياناً عندما يقع بصره على شخص ليست له به أدنى علاقة أو سابقة معرفة ، فقد يكون سبب ذلك راجعاً إلى نوع من أنواع التداعى غير المباشر ، بأن يكون قد وقع للإنسان حادث مؤلم

مع شخص آخر فيه بعض الشبه لذلك الشخص الغريب ، فتجرى عملية التنبيه والتلبية بين الشخصين فى الخفاء ، وبذلك يتنبه انفعال الحزن والانقباض لسبب ما بين الشخصين من علاقة شبه ، وبسبب ما بين أحدهما والحادث المحزن من علاقة اقتران ، بمعنى أن صورة الشخص الأجنبي تنبه ذكرى الشخص المعروف قديماً ، وذكرى هذا تنبه التأثر النفسي السيء الذى اقترنت به ذكراه ، ولو لم تظهر صورة الشخص القديم فى المخيلة .

وإنى أنقل هنا من قبيل المثال حادثاً رواه طبيب من أصدقائى ، وملخصه أنه حال وجوده فى ألمانيا كان يبحث عن أسرة للإقامة معها ، وفى أثناء بحثه اهتدى إلى منزل تحبه موقعه ، ولكن عندما قابلته صاحبة الدار أحس من نفسه بانقباض لم يعلم سببه ، مع أنها كانت على جانب من الجمال ، ومظهرها يدل على الظرف والأدب ، فاعتذر عن الإقامة عندها ، وانصرف وهو فى حيرة لهذا الشعور الغريب الذى لم يفقه له معنى ، ولكنه فى تلك الليلة رأى فى منامه أخاه الذى توفى من زمن ، وعلى الفور تذكر ممرضته التى كانت تقوم بتمريضه فى أواخر أيام حياته ، وكانت تشبه السيدة الألمانية صاحبة الدار بعض الشبه ، فالممرضة هى الحلقة المستترة بين التنبيه والتلبية .

التداعى الخارجى والتداعى الباطنى (١)

التداعى الخارجى هو الذى تنبه فيه الأفكار بمؤثر خارجى ، كما لو اتصل التأثير بالعقل عن طريق حاسة من الحواس ، أما التداعى الباطنى فهو الذى تتنبه

---

(١) قد اصطلح بعض علماء الإفرنج على استعمال كلمتى التداعى الخارجى والتداعى الباطنى للدلالة على التداعى المباشر والتداعى غير المباشر ، ولكن معناها هنا يختلف نوعا ما عن الاصطلاح الأفرنجى .

فيه الأفكار بمؤثر عقلى أو نفسانى بحت ، فالتقسيم فى الواقع راجع هنا إلى نوع المنبه ، فإن كان عن طريق الحس الظاهر سمى التداعى خارجيا ، وإن كان نفسيا أو عقليا بحتا سمى التداعى باطنيا ، فإنى إذا شممت عطر البنفسج فتخيلت شكل زهرة البنفسج ولونها ، أو لمست تفاحة فى الظلام فتذكرت منظرها وطعمها ، أو رأيت وردة فتذكرت رائحتها ، أو ذقت عصير البرتقال فتذكرت شكل البرتقالة ولونها ، أو سمعت صوت شخص يتكلم فتصورت شبهه وهيئته ، فإن هذا كله من قبيل التداعى الخارجى الآتى عن طريق الحس الظاهر لأن المنبه فيه عامل خارجى .

ولا يعزب عن البال أن ليس المراد بالتداعى الخارجى ما يكون التنبيه فيه آتياً عن طريق الحواس أو من خارج البدن فحسب ، بل المراد به كل تنبيه يأتى من خارج العقل بغض النظر عن كون مصدره يعتبر بالنسبة إلى البدن خارجيا أو باطنيا ، فقد يكون للاحساسات الجثمانية الباطنية شأن يستحق الذكر فى تنبيه الخواطر فى العقل ، كوجود اضطراب أو خلل فى بعض أجهزة الجسم أو أعضائه الباطنية ، أو آلام عصبية ناشئة عن مؤثرات مرضية ، أو عن حالة عسر هضم أو غير ذلك ، ومع هذا فإن هذه العوامل إذا كان من شأنها إثارة خواطر معينة فإنها تعد من قبيل التداعى الخارجى لا الباطنى ، فقد تذكرنا حالة ضيق فى الصدر بحادث اختناق بحماد (غاز) الكربون جرت لنا فى الماضى ، وقد تذكرنا حالة خفقان فى القلب بموقف رعب انتابنا من قبل ، وقد تذكرنا حالة مرضية بحالة مرضية أخرى مماثلة ، وقد تتنبه معها مجموعة من الذكريات المرتبطة بالمرض السابق ، فإن حالة مغص معوى مثلا قد تنبه فينا ذكرى مغص كلوى كان قد أصابنا قديماً ، أو ذكرى التهاب فى الزائدة الدودية وهذه قد تنبه ذكرى العملية الجراحية التى كانت قد أجريت على أثر هذا المرض والمستشفى الذى أجريت فيه والجراحين والممرضات والزوار وهلم جرا ، فهذه كلها تعد من

قبل التداعي الخارجي ، لأن مصدرها وإن كان باطن البدن إلا أنه خارج عن منطقة العقل نفسه ، إذ المقصود بالعقل هنا شيء آخر مستقل عن البدن وأجهزته وأعضائه المختلفة بما في ذلك جوهر المخ طبعاً .

أما التداعي الباطني فهو الذي يكون مصدر التنبيه فيه العقل ، بمعنى أن التنبيه ينشأ في العقل أو يبدأ في مركز من المراكز العصبية الخاصة بالتفكير ، أو بظاهرة أخرى من الظواهر العقلية المختلفة ، فإني إذا رأيت شخصاً كنت عرفته في السويس مثلا فإن رؤياه قد تنبه في ذهني ذكرى مدينة السويس ، فهذا نوع من التداعي الخارجي ، أما إذا كانت السويس ذكرتني بحادث اصطدام وقع لي حال قيامي بنزهة بحرية في خليج السويس فإن هذا التداعي الثاني نوع من التداعي الباطني ، فهو تفاعل عقلي مركب من قسمين أحدهما تداع خارجي والثاني تداع باطني (أنظر الشكل رقم ٣) .

(التنبيه) ١ (التلبية) ٢ — ٣ (التنبيه) ٤ (التلبية)

| الصديق | .... | السويس | .... | الحادث |

تداع خارجي — تداع باطني

(شكل رقم ٣)

ولكن هذا التداعي المركب من جهة أخرى نوع من التداعي غير المباشر[1]، ولعل هذا ما دعى بعض علماء الإفرنج بتسميته بالباطني عوضاً عن

(١) ويلاحظ أن هناك فرقاً طفيفاً بين التداعي غير المباشر المتقدم ذكره وبين هذا النوع الأخير من التداعي المركب ، ففي الأول تكون الصلة بين التنبيه والتلبية خفية وفي الثاني تكون مكشوفة ظاهرة .

« المباشر » فإنه فى غالب الحالات يشاهد أن تداعى الخواطر الباطنى مهما تعددت فيه الخواطر الباطنية وتسلسلت ، فإن أول مصدر للتنبيه فيه يكون عادة خارجيا ، أعنى أن أول حلقات التداعى فيه تكون من النوع الخارجى ، ثم تعقبها سلسلة من التداعيات الباطنية بمعنى أن عمليتى التنبيه والتلبية تنتقلان من مركز إلى مركز ، وكل مركز ينبه بدوره الذى يليه ، وهكذا قد تستمر هذه السياحة الفكرية ، ولا تقف عند حد إلا إذا صدها العقل بقوة الإرادة أو اعترضها مؤثر خارجى حول مجراها فى اتجاه آخر .

وإن يندر أن تبدأ عملية التداعى الباطنى من الباطن أولا بحيث تنشأ نشوءاً ذاتياً ، إلا أنه ليس من المتعذر تصور أحوال يبدأ التنبيه فيها من الباطن مباشرة ، كما لو سلط الإنسان إرادته أو استخدم ملكة انتباهه فى إيقاظ فكرة قديمة كامنة فى العقل ، فكما أن للإرادة سلطانا فى إيقاف تيار الأفكار فى بعض الأحيان أو تحويل مجراها ، كذلك لها سلطان فى إيقاظها من سباتها ودفعها إلى الحركة بعد السكون ، فإنه ليس من الصعب على أى فرد أن يوجه انتباهه نحو حوادث الماضى ليستعرضها ، أو يفتش فى ذاكرته عن فكرة تكون كامنة فى نفسه فلا يلبث حتى يبرزها من مكانها فى العقل الباطن ، أو ما يسمى بمنطقة اللاشعور ، ويدفعها إلى العقل الظاهر أو منطقة الشعور ، وقد يصل إلى ذلك بأن ينبه أولا بعض مراكز الخبرة القريبة منها أو التى لها بها صلة من نوع ما ولو غير مباشرة ، والتى تكون فى تلك اللحظة أقرب إلى الشعور من الفكرة المقصودة بالذات ، وهذه طريقة من طرق التذكر المألوفة ، فإذا تنبهت الفكرة المطلوبة وهرعت على الفور إلى منطقة الشعور أيقظت وراءها فكرة أخرى ، أو مجموعة أفكار لها بها صلة قديمة ، وربما تسلسلت الأفكار والخواطر حتى وصلت بالإنسان إلى عهد الطفولة فأيقظت فى الذهن كثيراً من الذكريات القديمة

المنسية التي كان من المتعذر على المرء أن يذكرها لأول وهلة ، وهو مثال للتحليل النفسي عن طريق التداعي المطلق .

كذلك الحال فيما لو أحس الإنسان بقلق أو اضطراب نفساني ، أو خالجته وجدانات خوف أو حزن أو غضب من غير أن يقف لها على علة أو سبب ، فقد يعمد إلى استعراض حوادث يومه ليقف منها على الحادث الذي سبب له انقباضه الحالي ، فيظل يستعرضها حادثاً إثر حادث إلى أن تصل به سلسلة أفكاره إلى الحادث الذي أقلقه أو أحزنه أو أخافه فيطرد أهميته من ذهنه ، وبعد برهة يشعر في نفسه بشيء من الراحة والطمأنينة ، ولولا ذلك لربما لازمته حالة القلق والانقباض زمناً أطول .

وهذا نموذج صغير لعملية التحليل النفسي التي ابتكرها العلامة « زجمند فرويد » والتي معظم إجراءاتها قائمة على التداعي الباطني ، بخلاف طريقة العلامة « يونج » الطبيب الذائع الصيت في التحليل المعروفة بأسلوب التداعي اللفظي « Word association test » ، إذ هي قائمة على استخدام الألفاظ في تنبيه الذكريات والخواطر المكبوتة وكشف مركباتها ، فهي نوع من أنواع التداعي الخارجي ، إذ مصدر التنبيه فيها مجرد سماع اللفظ لا التفكير أو التأمل الباطن ، وسيجيء ذكرها مفصلا عند التكلم على التداعي اللفظي .

ومن قبيل التداعي الباطني طائفة كبيرة من الأحلام ، فقد يرى الإنسان في منامه أشخاصاً أو تعرض له وقائع حوادث مضى عليها عهد طويل ، وقد يرى الإنسان في بعض الأحلام حوادث ترجع إلى زمن الطفولة ويكون مصدر التنبيه فيها العقل الباطن حال النوم .

ويمكن أن يلحق بالأحلام الفترة التي تتقدم النوم مباشرة ، فإن الإنسان إذا ما أوى إلى مضجعه وهدأت نفسه وسكنت حواسه ، قد ترد على

ذهنه الحوادث تباعاً ما بين قديم وجديد ، فتمر بخاطره ذكريات الحوادث وصور الأشخاص من غير أن يكون لإرادته دخل فى تنبيهها ، بل ربما كان ذلك ضد إرادته .

إنما كل هذا لا ينفى أن يكون المحرك لهذه الخواطر المتعددة مؤثرات خارجية صادفها الإنسان فى حياته اليومية نبهت بعض المركبات العقلية الراكدة ، ثم بقى التنبيه محتجباً عن العقل الظاهر لانشغاله وقتئذ بأمور أخرى صرفته عن التفكير فى نفسه ، ولكن أثر التنبيه يبقى مستمراً إلى أن يخلد الإنسان إلى الراحة والسكينة ، ويصفو الجو العقلى ويتفرغ لإدراك نتائج ذلك التأثير ، فتتقدم عندئذ الخواطر المتنبهة إلى المخيلة ، وتظهر هيا كلها المنبعثة من جوف اللاشعور إلى مسرح العقل الظاهر ، وتروح أشباحها وتغدو والإنسان يحاول طردها لينام نوماً هادئاً ، وقد لا يفلح ، ومما يرجح هذا كون أحلام النائم فى كثير من الأحيان تكون عبارة عن مجموعة من الأفكار المتباينة المشتتة ، جمعت أجزاؤها من مستودع اللاشعور لتؤلف الصورة الفكرية التى برزت حال النوم فى الشعور ، بسبب إيقاظها فى الحياة اليومية بمؤثرات وعوامل خارجية بتأثير التداعى الخارجى أثناء النهار .

ومن قبيل التداعى الباطنى شرود الذهن والهواجس النفسية والأوهام والهذيان وكذا الهجر أثناء المرض[1] ، أما التخيل وخدعة الحواس فمن قبيل التداعى الظاهرى لأنها ترجع إلى مؤثرات حسية مصدرها البيئة الخارجية .

---

(١) هجر فى نومه أو مرضه : هذى وهذى يهذى هذياناً تكلم بكلام بغير معقول لمرض أو غيره .

التداعي عن طريق الانفعال المماثل

أو التداعي الوجداني

Association by Similar Emotion

كنت ذات يوم مشتغلا بتعريب نبذة من كتاب أفرنجي ، وعلى أثر فراغي من تعريب عبارة وردت فيه ، وجدتني أفكر في أحد أصدقائي لكي أحدد له موعداً لزيارتي ، حيث كان قد طلب مني ذلك لأطلعه على رأي العلامة « وليم جيمس » في التنويم المغناطيسي ، فوقفت عن الكتابة في الحال ، وأخذت أتأمل في علة ورود هذا الخاطر بذهني فجأة ، في حين أنه لا صلة بينه وبين الموضوع الذي كنت مشتغلا به ، فما لبثت أن كشف لي بالتأمل السبب ، وهو أنني بعد أن أتممت وضع الصيغة العربية للعبارة الأفرنجية خيل لي أنها جاءت أدق في تصوير الحقيقة ، وأبلغ في المعنى من الأصل المنقولة عنه ، كما راق تركيبها من الناحية الأدبية في نظري ، فهذا التقدير — بغض النظر عما إذا كنت مخطئاً فيه أم مصيباً — بعث في نفسي ذكرى حالة وجدان مماثلة كنت أحسست بها في مناسبة سابقة ، حيث كنت منذ بضعة أيام في قطار حلوان مع صديقي المذكور ، فأطلعني على كتاب في التنويم المغناطيسي كان معه ، وطلب مني أن أبدي ملاحظاتي بشأنه ، وحال تصفحي الكتاب كنت أدون ملاحظات النقد على هامشه ، وقد صححت ما وقع تحت نظري مما ورد فيه من أخطاء علمية أو فنية ، فخالجني وقتئذ شعور يشبه ذلك الشعور الذي أحسست به عقب وضع عبارتي المعربة الآنفة الذكر ، فأدركت في الحال أن الحالة النفسية الحاضرة نبهت من ذاكرتي حالة نفسية مماثلة ، وهذه ذكرتني أولا بكتاب التنويم المغناطيسي ، ثم بصديقي الذي ناولني إياه ، ثم بالوعد الذي كان طلبه مني وسهوت عن تحديده له لانشغالنا

بالحديث ونزولي مسرعاً من القطار ، وعلى ذلك انكشف السبب الذي من أجله وجدتني أفكر في تحديد موعد يزورني فيه بمجرد وضع الصيغة المعربة ، وقد أخذت من ذلك الحين أرقب ما للتأثيرات النفسية أو الانفعالات المتشابهة من الأثر في تنبيه الخواطر وإيقاظ التداعي ، فلما أن تبينت بالتجربة المتكررة سلامة القاعدة وضعت لها القانون الآتي : وهو « أن التأثر النفسي المشابه لتأثر نفسي سابق من شأنه أن ينبه الخواطر التي اتصلت بالعقل خلال التأثر السابق » .

فهذا النوع من التداعي هو في الواقع نوع خاص من أنواع التداعي الباطني ، ترجع عوامل التنبيه فيه إلى الانفعالات أو التأثرات النفسية والوجدانات ، بمعنى أن الحالة النفسية الخاصة التي يكون عليها الإنسان في ظرف من الظروف قد تنبه من ذهنه ذكريات ، أو خواطر سبق أن ارتبطت بحالات نفسية مماثلة ، ولذلك لا تنشأ الرابطة بين الخواطر بعضها وبعض عن تلازمها أو تواترها أو تماثلها ، بل تنشأ عن تأثر نفسي خاص مشترك بينها ، إذا تكرر وقوعه استيقظت الخواطر التي كانت قد اتصلت به أو شملها ذلك التأثر حين حصوله أولا .

ولعل ذلك يفسر لنا علة تذكرنا السيئات الماضية لشخص تربطنا به صلة معينة إذا ما أتى أمراً أغاظنا ، فإن إساءته الجديدة ولو كانت تافهة قد تثير كامن حفيظتنا ، وتبعث ذكرى تلك السيئات المطوية فتصبح ماثلة في المخيلة ، وقد نستطيع إحصاءها ؛ لأن حالة الغيظ الجديدة تنبه ذكرى حالات الغيظ السابقة ، وهذه تنبه الحوادث أو الأمور التي صحبتها ، كذلك إذا ما أحسن إلينا إنسان له علينا أياد بيضاء ومآثر ، فإن الشعور بالفضل والامتنان الماثل في الذهن ، قد ينبه الشعور المماثل له الذي انتابنا قديماً بما شمله من طيبات ووقائع إحسان .

ومما تجب ملاحظته أن هذا النوع من التداعي يختلف في نوعه من الحالة التي تقع فيها عدة حوادث ، ويمارس المثال فيها مجموعة من الخواطر خلال فترة انفعال أو تأثر نفسي معين ، فإن تذكر أحدها إذا دعا إلى تذكر الخواطر الأخرى كلها أو بعضها ، فالتداعي هنا إنما يكون من قبيل التداعي بمعنيه الاقتران أو بسبب التواتر (على حسب الأحوال) لا من طريق الانفعال المماثل ؛ وغاية ما في الأمر أن حالة الانفعال تساعد على تقوية ما بين الخواطر بعضها ببعض من روابط الاقتران أو التواتر كما سيجيء الكلام فيه

مثال ذلك لو كنت أثناء غضبي أتيت عملين مختلفين في وقت واحد أو على التعاقب ، بأن طوحت بعصاي مثلا ، فكسرت مرآة وسكبت زجاجة حبر على الأرض ، فإنه إذا وقع بصري في المستقبل على أثر بقعة الحبر ، فقد أتذكر المرآة المكسورة ، وذلك عن طريق الاقتران ، أما إذا فرض أن كسرت المرآة في غضبة مرة ، ثم سكبت الحبر على الأرض في غضبة أخرى ، وبعد ذلك وقع بصري على بقعة الحبر التي علقت بأرضية الغرفة ، فذكرني ذلك بالمرآة المكسورة أو بالعكس ، فإن عملية التداعي هنا تكون مركبة ؛ ومن النوع غير المباشر ، فإن رؤية بقعة الحبر ذكرتني أولا بالغضبة التي سكبت فيها زجاجة الحبر ، وهذه ذكرتني بالغضبة المماثلة ، وهذه ذكرتني بالمرآة المكسورة ، فهذا النوع من التداعي يرجع إلى النوع الأول السابق الذكر ، أعني التداعي بسبب الانفعال المماثل ، ولكن بطريق غير مباشر ، ولذلك يمكننا أن ندعوه بالتداعي الوجداني غير المباشر .

« Indirect association by similar emotion »

وبالتأمل في التداعي الوجداني يرى أن علة التداعي فيه ترجع إلى رابطة الاقتران ، لأن الخواطر التي شملها الانفعال تكون في الواقع هي والانفعال

المذكور مجموعة واحدة مؤلفة من عدة حوادث نفسية تقترن بعضها ببعض والانفعال واحدة منها ، وبذلك تنشأ رابطة الاقتران بين الانفعال والخواطر الأخرى التي صحبته ، فإذا تكرر حدوث الانفعال فيما بعد كان ذلك داعياً إلى تنبيه الخواطر التي اقترنت به من قبل ، حتى لو كان الانفعال أو التأثر النفسانى المتكرر غير متطابق ، بل فيه بعض الشبه ، فإن تنبيه الخواطر يتم عن طريق التماثل : نظراً لما بين الوجدانين من تأثير نفسانى مماثل .

الارتباط الإيحائى أو المعلق على شرط

Suggestive Association or Conditional Association

المقصود بالارتباط الإيحائى هو الارتباط الذى يتم بين فكرتين إحداهما سابقة والثانية لاحقة بطريق الإيحاء من الغير أو الإيحاء الذاتى ، بحيث إذا تنبهت الفكرة اللاحقة فيما بعد أو تحققت تنبهت معها الفكرة السابقة ، فكأنه أشبه بتداع معلق على شرط Conditional association مثال ذلك إذا قلت لشخص مسافر إلى جهة معينة ، « إن قابلت صديقى فلاناً بلغه سلامى » فالمسافر وقت أن قلت له ذلك ربط فى ذهنه واقعة ملاقاته بصديقى مع مأمورية تبليغه السلام ، بحيث إذا اجتمع به فقد ينبه ذلك فى ذهنه فكرة اقرائه السلام ، وفى العادة أن الرسول بعد أن يصل الفكرتين ويربطهما بعضهما ببعض يضمهما فى جعبة عقله الكامن وينساهما مؤقتاً ، حتى إذا التقى بصديقى المقصود بالذات تنبهت لديه فى الحال فكرة إهدائه السلام ، وقد أطلقت على هذا النوع من القران اسم « الارتباط الإيحائى » لأن الرابطة فيه ناشئة عن طريق الإيحاء أو « القران المعجل »[1] ، لأن العقل يربط فكرتين بعضهما ببعض

---

(١) Anticipated Association

مقدماً قبل حلولهما أو حلول إحداهما ، خلافاً لما يحصل فى الارتباطات العادية التى تتم فيها الرابطة خلال الممارسة أو الخبرة العقلية للحوادث حال وقوعها بالفعل .

أما « الارتباط بطريق الإيحاء الذاتى Auto-suggestive Association » فمثاله كما لو ركبت قطار السكة الحديدية ، وكان بيدى كتاب فوضعته على رف الديوان الذى دخلته ، ثم اتخذت لى مجلساً لا تتاح لى فيه رؤية الكتاب ، كأن جلست على مقعد أسفل الرف وأخذت أطالع الصحف أو أتحدث مع صديق لى بحيث لم أعد أفكر فى الكتاب ، وبالرغم من هذا فإنه وقت وقوف القطار عند محطة الوصول ، أجدنى غالباً تذكرت الكتاب ، فأتناوله من موضعه قبل مغادرتى القطار ، فإذا تأملت فى السبب الذى من أجله تذكرت الكتاب عند وقوف القطار ، فى حين أننى قبل ذلك ببرهة وجيزة كنت غافلا عنه تماماً ، تبين لى أننى عند وضعى الكتاب على الرف عقب ركوبى القطار أوحيت إلى نفسى إيحاء ضمنياً بتذكره وتناوله من ذلك الموضع وقت وقوف القطار بمحطة الوصول ، وبذلك ربطت مقدماً هاتين الفكرتين : فكرة تناول الكتاب ، وفكرة وقوف القطار بعضهما ببعض ، ولو أنى أهملتهما مؤقتاً إلى أن وقعت إحداهما فأيقظت الأخرى التى ارتبطت معها .

وقد أجريت أنا بنفسى موازنات عدة بين الحالات التى كنت أضع فيها أشياء فوق رف القطار ، وأنساها فيه والحالات التى كنت لا أنسى فيها ذلك ، فلاحظت أننى إذا كنت وضعت شيئاً على الرف بغير اهتمام وا كتراث بسبب اشتغال ذهنى بأمر آخر كنت غالباً أنسى ذلك الشيء (ما لم أكن تذكرته فى خلال الطريق لسبب عارض) ، أما إذا كنت وقت وضعه على الرف قد فكرت مقدماً فى ألا أنساه وأن أتناوله من مكانه عند وقوف القطار ،

وجدتنى لا أنساه غالباً (ما لم أكن عند مغادرتى القطار قد شغلت بأمر صرف ذهنى عنه) .

وقد لاحظت فى بعض الأحيان أن مجرد تهدئة سرعة القطار عند اقترابه من محطة الوصول كان كافياً لتذكيرى بالشىء الذى وضعته على الرف .

ومن قبيل الارتباط بالإيحاء الذاتى أيضاً أن الإنسان إذا وضع فى جيبه أو فى أى موضع من ملابسه تذكرة القطار وهو شارد الذهن فربما لا يهتدى إليها لأول وهلة إذا مر به عامل القطار وطلبها منه ، وربما بحث عنها فى جيوبه وفى كل مكان مراراً وتكراراً فلا يعثر عليها ، وقد يدفعه القنوط إلى الاعتقاد بفقدها ، ولكن إذا ما انصرف العامل من أمامه ، وهدأت نفسه ، وأعاد البحث عنها بتؤدة واطمئنان ، فإنه يهتدى إلى موضعها ، وبالبحث فى سبب عدم تذكر موضعها يجد نفسه قد غير المكان الذى اعتاد وضعها فيه ، وما ضل عنه عقله إلا لكونه كان وقتئذ شارد الفكر ، أما لو كان وجه التفاته إلى مكان وضع التذكرة ، فإنه قل أن ينساه ، لأن توجيه الالتفات فى هذه الحالة ضرب من ضروب الإيحاء الذاتى ، إذ أن لسان حال ضميره يقول عندئذ « هذا هو مكانها ، فإذا ما احتجت لإبرازها وضعت يدى فى هذا المكان دون سواه » .

وكثيراً ما كنت أجرب مع ابنتى الصغيرة — وهى فى الحول الرابع من عمرها — ظاهرة التداعى الإيحائى ، فأطلب إليها أن تذكرنى بشىء معين إذا ما رأت مكاناً معيناً أو شخصاً معيناً ، وكثيراً ما كانت تفلح التجربة ، فتصيح ابنتى فى وجهى بالحاجة المطلوبة بمجرد رؤيتها المكان أو الشخص الذى عينته لها ، وكنت أستغل هذه الظاهرة البارزة فى ابنتى المذكورة فأستعين بها على

تذكيرى بما كنت أنساه من حاجاتى . ومن قبيل الارتباط السالف الذكر أن يضع الإنسان علامة فى أصبعه ليتذكر أمراً معيناً كلما أبصر العلامة ، والأمثلة على الارتباط الإيحائى فى الحياة العملية كثيرة لا تحصى .

إنما يلاحظ أن هذا النوع من الارتباط لا يخرج عن كونه نوعا من أنواع الارتباط بسبب التلازم أو الاقتران ، لأن الرابطة بين التنبيه والتلبية هى رابطة التلازم والاقتران ولو أنها نشأت فى العقل بطريقة إيحائية أو اصطناعية ، غير أنها لا تختلف عن الطريقة العادية إلا من حيث أن القران هنا إيحائى بحت ، والرابطة الفكرية تقدمت الخبرة ، بخلاف الارتباط العادى فإن الأفكار المرتبطة فيه تتولد عن الخبرة ، وإن وجودها أو كشفها يدل على خبرة وقعت بالفعل ، بخلاف الارتباط الإيحائى فإنه يدل على خبرة منتظرة .

ولما كان ربط فكرتين إحداهما بالأخرى عن طريق الخبرة والممارسة الحسية ، أقوى أثراً فى النفس من ربطهما إيحائياً برابطة معنوية ، فإن التداعى فى الحالة الأولى يكون أشد ظهوراً وأقوى رابطة منه فى الحالة الثانية التى يكون الإنسان فيها أكثر قابلية للنسيان ، ما لم يعمد إلى تقوية الرابطة الإيحائية إما بالتكرار ، وإما بعوامل أخرى تعطى للأفكار المرتبطة أهمية خاصة فتزيد ارتباطها متانة وقوة ولهذا كان التعليم المقرون بالخبرة الحسية والمشاهدات العملية أبلغ أثراً فى النفس وأكثر رسوخاً فى الذهن من التعليم التلقينى أو المعنوى البحت ما لم يقو هذا بالتشويق أو الغرابة أو بعوامل نفسية أخرى .

تقسيم الارتباط الإيحائى

إلى شعورى ولاشعورى

علمنا مما تقدم أن الارتباط الإيحائى ينقسم من حيث مصدر الإيحاء فيه إلى قسمين : ارتباط إيحائى خارجى ، وارتباط إيحائى ذاتى ، ولكن الإيحاء ينقسم

من جهة أخرى تبعاً لحالة الشخص الموحى إليه إلى « إيحاء شعورى Conscious suggestion » و « إيحاء لاشعورى Unconscious suggestion » ، فالإيحاء الشعورى هو الذى يكون شخص الموحى إليه شاعراً به مدركاً إياه ، كما لو أمرته فى اليقظة بفعل شىء فى وقت معين أو عند حصول واقعة معينة ، أو أمرته فى نفسه على فعله من تلقاء نفسه وهو يعى ويدرك تماما ما أمرته ، وأما الإيحاء غير الشعورى فهو الذى يُوحَى فيه بالأفكار إلى العقل الباطن مباشرة من غير وساطة العقل الظاهر وبدون علمه ، فلا يشعر به الشخص ولا يدركه حال اتصاله بنفسه ، بل تنغرس فيها الأفكار وتلج عقله الباطن وهو غافل عن ذلك تماماً ، فتظل كامنة فى النفس إلى أن يحين الوقت الملائم لتنبيهها .

والارتباط الإيحائى ينقسم تبعاً لنوعى الإيحاء السالف الذكر إلى « ارتباط إيحائى شعورى Association by conscious suggestion » ، وارتباط إيحائى لاشعورى Unconscious suggestive association » .

وقد تكلمنا عن النوع الأول فى الفصل السابق بما فيه الكفاية ، ولذلك سيكون كلامنا هنا قاصراً على النوع الثانى .

إن من النظريات العلمية المسلم بها والتى أيدتها التجارب والمشاهدات المتعددة أن النفس تتلقى كثيراً من المعلومات الخارجية عن طريق العقل الباطن مباشرة ، كما تتلقاها عن طريق العقل الظاهر ، حتى لقد ذهب بعضهم إلى الاعتقاد بأنها فى الحالة الأولى تكون أشد رسوخاً فى النفس منها فى الثانية ، مستندين فى ذلك على أن الإيحاء فى خلال « التنويم » يكون أقوى مفعولا منه فى اليقظة ، كما أنه كلما اشتد السبات التنويمى اشتد معه أثر الإيحاء .

وخير مثال للارتباط الإيحائى غير الشعورى ما يقع فى فترة التنويم «المغناطيسى»

فإنى إذا نوّمت شخصاً وأمرته وهو نائم أن يذهب بعد يقظته فى اليوم التالى عقب سماعه آذان الظهر إلى منزل أحد أصدقائه ويقدم له طاقة من الأزهار ، فإنه بعد يقظته من النوم الصناعى قد لا يذكر شيئاً مما لقنته إياه أثناء التنويم أصلاً ويظل خالى الذهن من جهته ، حتى إذا ما حل الوعد المحدد وسمع صوت المؤذن نبه ذلك عنده الفكرة الأخرى المستترة التى ارتبطت فى ذهنه بصوت المؤذن من قبل ، وهى تقديم طاقة الزهر إلى صديقه الذى عينته له حال التنويم ، وأحس من نفسه بدافع ذاتى يدفعه إلى هذا العمل وهو لا يدرى سببه فيقوم به ، وبذلك تتم حلقة التداعى من تنبيه وتلبية والشخص يجهل علة وجودها أو نشوئهما فى نفسه ، وهذه الظاهرة معروفة لدى علماء التنويم باسم « الإيحاء إلى ما بعد اليقظة post hypnotic suggestion » .

وإنى بافتراضى وجود الارتباط الإيحائى غير الشعورى المتقدم ذكره أمكننى أن أحل معضلة طالما شغلت بالى ، وهى علة امتداد أثر الإيحاء التنويمى إلى ما بعد التنويم بزمن قد يمتد أحياناً إلى بضعة أشهر ، فإذا راعينا بجانب ذلك أن حالة التنويم من شأنها أن تقوى الروابط العقلية بسبب خضوع الإرادة وفسحها الطريق للإيحاء ليتصل مباشرة بالعقل الباطن ، أمكننا أن ندرك بسهولة علة الدافع الذى يدفع بعض الأشخاص إلى إتيان أعمال طلب منهم أداؤها وهم فى فترة سبات تنويم عميق ، فيفعلونها بعد اليقظة بغاية الدقة .

وكما أن الارتباط الناشىء عن الإيحاء قد يكون بلا شعور ، كذلك التداعى سواء أكان مترتباً على إيحاء شعورى ، أو غير شعورى ، يمكن وقوعه بلا شعور ، وهو ما يمكن أن نفسر به كثيراً من ظواهر التنويم المغناطيسى الأخرى التى يكون للإيحاء فيها أعظم شأن ، ويمكننا أن نسميه التداعى عن طريق الإيحاء الباطن

« Association by unconscious suggestion » (١) ، فإنى إذا ناولت النائم نوماً مغناطيسياً قطعة ملح ، وأفهمته أنها قطعة سكر ، فإن المركز العقلى الخاص بطعم السكر هو الذى يتنبه فى ذهنه دون سواه ، لاعتقاده أن الملح الذى يتعاطاه إنما هو سكر ، فيفعل به الملح فعل السكر فى تنبيه طعمه المعروف ، وما ذلك إلا لكون الإنسان إنما يحس ويذوق ويشم ويسمع ويبصر بمراكز حسه العقلية ، لا بأعضاء الحس نفسها كما يظن لأول وهلة .

والأحلام أصدق شاهد على هذا ، فكثيراً ما تتنبه مراكز الحس فيها بتأثير التداعى الباطنى ، فيرى العقل صور المرئيات ، ويسمع الأصوات ، ويذوق طعم المأكولات والمشروبات ، ويشم الروائح ، ويدرك المحسوسات كما ألفها حال اليقظة فى الطبيعة .

فسماع النائم مغناطيسياً كلمة « سكر » ينبه فى ذهنه طعم السكر ، ولو كان مافى فمه ملحاً ، لأن المركز الخاص بطعم الملح معطل أسوة بباقى المراكز الحسية الأخرى بفعل التنويم ، فلا يشعر إلا بطعم السكر .

فكلمة « سكر » هى بمثابة التنبيه ، والإحساس بطعمه فى الفم هو التلبية ، أو رد الفعل الصادر من ذلك المركز ، وإذا ناولته ماء قراحاً وأفهمته أنه شراب البنفسج حسبه بنفسجاً ، لأنى عندما أفهمته ذلك نبهت فى عقله المركز الخاص بطعم شراب البنفسج ، وهذا نبه المركز الخاص برائحته .

كذلك الحال إذا سمع صياح الديك ، وأفهمته أنه لحن موسيقى حسبه كذلك ، وإذا أشرت له على كرسى وأفهمته أنه أسد خاله أسداً وذعر منه ... وهلم جرا .

---

(١) المراد بكلمة Association هنا ظاهرة التداعى لا عملية الارتباط أو القران

ويلاحظ أن هناك فرقا بين الارتباط الإيحائى غير الشعورى ، والتداعى الايحائى غير الشعورى ، فالأول يتكون من إنشاء رابطة عقلية بين فكرتين أو أكثر أثناء التنويم أثرها يظهر فى اليقظة ، حيث يحصل التفاعل العقلى من تنبيه وتلبية ، والإنسان فى حالة إدراك وشعور ، والثانى تكون فيه الرابطة الفكرية بين التنبيه والتلبية ، موجودة أصلا ، ثم يظهر أثر التفاعل العقلى بينهما فى حال السبات التنويمى عن طريق الإيحاء غير الشعورى .

تداعى الألفاظ

Word Association

المراد بتداعى الألفاظ هو أن لفظاً ينبه فى الذهن لفظاً آخر ، بمعنى أنى أذكر للشخص كلمة « رجل » مثلا ، وأطلب منه أن يجيبنى بأول كلمة تخطر بباله بعد سماعه هذه الكلمة ، فيجيبنى بقوله « امرأة » ، كذلك إن قلت له « باب » فقد يكون جوابه « شباك » ، أو قلت له « كرسى » فيكون الجواب «مكتب» وكثيراً ما يثير التنبيه اللفظى جواباً أو تلبية لفظية بطريقة آلية بحت من غير أن يكون للفكر أو التأمل أقل دخل فيها .

وينقسم التداعى اللفظى قسمين : تداعيا مقيداً وتداعياً مطلقاً .

فالتداعى المقيد هو الذى يستدعى تلبية خاصة أو جواباً معيناً تلقاء تنبيه معين، كما لو وجهت الشخص سؤالا ليس له إلا جواب واحد ، وطلبت منه الإجابة عنه بأن أذكر له مملكة طالباً منه ذكر عاصمتها ، أو كلمة أجنبية طالباً منه تعريبها ، أو أطلب منه حاصل ضرب عددين معينين ، أو أعرض عليه صورة حيوان طالباً منه ذكر اسمه . . . وهكذا .

وأما التداعى المطلق فهو الذى يُترك فيه للشخص المختبر حرية الإجابة بأول

كلمة تخطر بباله أياً كانت بمجرد سماعه كلمة التنبيه من غير تقييده بجواب خاص فأذكر له مثلا كلمة « شجرة » وأطلب منه أن يجيبني بأول كلمة ترد على ذهنه بعد سماعه إياها ، فقد يكون جوابه مثلا « نخلة » وقد يكون « نبات » ، أو « ثمر » ، أو « فرع » ، أو « بستان » ، أو « أخضر » ، أو « إتلاف » ، وهلم جرا .

والفرق بين التداعي المقيد والتداعي المطلق أن الأول موضوعي Objective في نوعه ، بمعنى أن التلبية فيه تابعة لموضوع التنبيه مرتبطة به ، فهي جواب مقيد بموضوع السؤال ، بخلاف التداعي المطلق فهو شخصي Subjective ، لأن التلبية فيه تتبع أفكار الشخص وحالته النفسية في اللحظة التي صدر فيها التنبيه .

والنوع الأول البحث فيه يرمي غالباً إلى تقدير سرعة الخاطر واختبار ملكة الذكر وقدرتها على استدعاء المحفوظات ومعرفة درجة رسوخها في الذهن ، بخلاف النوع الثاني فإنه قد لا يدل على شيء متعلق بملكة الحفظ وإنما يدل على ما طبع في الذهن ولو عرضاً ، كما أنه يدل على مجرى الأفكار ، واقتفاء أثر العقل في جولاته الباطنية ، وقد يدل على عقلية الشخص ووجهة نظره الخاص تلقاء تنبيه معين .

مثال ذلك : إذا قلت للشخص كلمة « كلب » مثلا فإن كان جوابه « قط » أدركت أنها نبهت في ذهنه فكرة التنظير أو القرين ، وإن كان جوابه «حيوان» دلتني هذه التلبية على تسلط فكرة التعميم ؛ وإن قال « أرمنتي » دل ذلك على « التخصيص » ، وإن قال « أمانة » دلت إجابته على اهتمامه بهذه الصفة من صفات الكلب فإذا كانت أجوبة الشخص في مجموعها يغلب عليها التعميم

دل ذلك على عقلية تختلف عنها فيما لو كانت الأجوبة يغلب عليها التخصيص أو تغلب عليها فكرة القرين أو النظير أو الصفة .

وقد لوحظ بالتجربة أن متوسط سرعة الخواطر فى التداعى المقيد تختلف عنها فى التداعى المطلق ، فهى فى الأول أكثر سرعة منها فى الثانى ، بمعنى أنه إذا كان متوسط سرعة الخاطر لدى شخص معين فى التداعى المقيد نصف ثانية ، فقد يكون متوسط سرعة خاطره فى التداعى المطلق ثلاثة أرباع الثانية أو ثانية كاملة ، ولعل ذلك راجع إلى أن التكرار الذى يتطلبه الحفظ من شأنه تقوية الروابط العقلية ، وتسهيل عليه التداعى .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن تقييد الفكر بجواب خاص قد يسهل عليه مهمته لأنه يساعده على تعيين الجواب بتوجيه تيار الفكر وحصره فى اتجاه معين ، أما فى التداعى المطلق فإن الفكر قد يعترضه شىء من الحيرة والتردد ، خصوصاً إذا كانت الكلمة المنبهة من شأنها أن تثير مجموعة خواطر مرتبطة بها ، فإنها قد تعوق سرعة الجواب بسبب تزاحم الأفكار فى الذاكرة ، وإذا مست كلمة التنبيه مركباً نفسياً مكبوتاً أو مكظوماً [١] ، فإن ذلك قد يؤثر فى النشاط العقلى لعملية التداعى فيؤخرها زمناً يختلف باختلاف قوة الصدمة النفسية ومبلغ التأثر ، وقد تشل العملية تماماً فلا يجد الإنسان جواباً .

---

(١) والمقصود بالمركبات النفسية المكبوتة هى الحوادث التى صحبتها صدمة نفسية اتبع عليها انفصال وقائع الحوادث من الشعور وارتدادها إلى جوف اللاشعور ، فيصبح الإنسان لا يذكر منها شيئاً ، أما المكظوم من المركبات فالمقصود به ما يكنه الإنسان فى نفسه من التأثرات ، فلا يبوح بها مع شعوره بها مستعيناً على كظمها وكتمانها فى نفسه بقوة الإرادة ، إنما ذلك لا يمنع الإنسان أن ينساها مع الزمن ، غير أن النسيان فى حالة الكبت يقع لا شعورياً بينما هو فى حالة الكظم يكون شعوريا وكلمة مكبوت يقابلها بالإنجليزية Repressed ، أما مكظوم فيقابلها Supressed .

تقسيم تداعى الألفاظ المطلق من حيث التنبيه

ذهب أطباء الأمراض النفسية إلى تقسيم تداعى الألفاظ من جهة نوع التلبية والصلة المعنوية التى تربطها بالتنبيه عدة أقسام فرعية بجانب الأقسام الرئيسية الثلاثة التى مر ذكرها عند الكلام عن تداعى المعانى بصفة عامة (وهى روابط الاقتران والتواتر والتشابه)، وسأقتصر هنا على ذكر أهمها متوخياً الإيجاز، بما أن التوسع فيها لا يهم بحثنا الحالى بقدر ما يهم « فن العلاج العقلى « Psychiatry »، وها هو بيانها :

١ — « رابطة مشاطرة « Association by coadjunction »، وهى التى تنشأ عن وجود فكرة شاملة تجمع بين خاطرين فى الذهن، بحيث إذا ذكر أحدهما نبه الخاطر الآخر عن طريق هذه الرابطة، مثال ذلك :

التنبيــــه	التلبيـــة	الجامع أو الفكرة الشاملة
مستنقع	بحيرة	ماء
فهد	نمر	حيوان مفترس
سنبلة	نخلة	نبات
عرض	طول	قياس

٢ — « رابطة تعميم — Association by Super ordinatoin »، وهى التى يكون التنبيه فيها خاصاً والتلبية عامة، كما ينبه الجزء الكل، مثال ذلك :

التنبيــــه	التلبيـــة
كلب	حيوان
تفاحة	فاكهة
عقرب	حشرة
ذهب	معدن

٣ - « رابطة تخصيص — Association by Subordination » ، وهى عكس الرابطة السالفة ، أعنى أن اللفظ العام ينبه الخاص كما ينبه الشكل الجزء ، مثال ذلك :

التابعة	التنبيه
مسدس	سلاح
غراب	طائر (١)
قدح	مكيال
سرقة	جريمة

٤ — «رابطة تضاد — Association by contrast » وهى التى ينبه فيها اللفظ ضده أو نقيضه ، مثال ذلك :

التابعة	التنبيه
أسود	أبيض
ظلام	نور
مر	حلو
قصير	طويل

٥ — « رابطة تعادل وتكافؤ — Association by co-ordination »

---

(١) قال الرشيد لبعض المغاربة متهكما به : « زعموا أن الأرض طائر ذنبه المغرب » ، قال : « صدقوا يا أمير المؤمنين ، ولكنه طاووس » فالتنبيه هنا تدل على التخصيص بأجمل ما فى الطاووس شكلا وهو ذنبه .

كما لو نبه لفظاً لفظ آخر مدلوله بينهما متعادل أو متكافئ ، أو من مرتبة واحدة ، مثال ذلك :

القابلـــة	المنبـــه
رئيس	شيخ
أسد	نسر
خال	عم
صيني	هندي

ويلاحظ أن هذا القسم قريب الشبه جداً من القسم الأول ، حتى رأى بعضهم إدماجه فيه ، إذ أنه في كليهما يلاحظ وجود فكرة عامة شاملة ، فإن « شيخ ورئيس » تجمعهما فكرة « الرياسة » ، و « نسر وأسد » تجمعهما صفة « حيوان مفترس » ، و « عم وخال » تجمعهما فكرة القرابة ، و « هندي وصيني » تجمعهما فكرة « اتحاد الجنس الشرقي » .

ولكن بالتأمل يتضح وجود فرق بين الحالتين : وهو أنه في الأولى قد لا تتوافر فكرة التعادل أو التكافؤ مع توافر الفكرة الشاملة ، كما في « سنبلة — نخلة » ، و « مستنقع — بحيرة » فليس بينهما صلة تكافؤ ، ولو أن بينهما رابطة مشاطرة .

٦ — « رابطة تقدير — Association by Judgement of value » :

وهي التي يترتب عليها تنبيه لفظ لفظ آخر يدل على قيمته أو الحكم عليه مثال ذلك :

التنبيـــه	التلبيـــة
أب	صالح
ولد	بار
ركوب	خطر
كتاب	مفيد

٧ — « عن طريق ما يلزم أو ما لا يلزم — Assoc. by requirement of quality » ، مثال ذلك :

التنبيـــه	التلبيـــة
صالح	يجب أن يكون
خائن	يجب أن لا يكون
مطيع	ما يجب على التلميذ
أمين	ما يجب على الموظف

٨ — « ارتباط عن طريق الأمر الواقع أو رابطة حال Assoc. by Judgement of fact » ، مثال ذلك :

التنبيـــه	التلبيـــة
عطش	شديد
جريمة	تافهة
والد	مسافر
منزل	آيل للسقوط

٩ — « ارتباط عن طريق العلاقة السببية — Assoc. by causal dependence » ، مثال ذلك :

التابعـــة	التنبيـــه
سجن	سرقة
ألم	جرح
دموع	حزن
زرع	مطر

١٠ — « ارتباط عن طريق الاقتباس — Association by adoption »
مثال ذلك :

مصدر الاقتبـــاس	التابعـــة	التنبيـــه
العين بالعين ، والسن بالسن	سن	عين
العلم فى الصغر كالنقر على الحجر	حجر	علم
ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب	ألباب	قصاص
كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محمـــوده عن النسب	نسب	أدب

١١ — « ارتباط عن طريق السجع — Association by consonance »
مثال ذلك :

التابعـــــة	التنبيـــــه
فهيم	حليم
أمير	أسير
حزين	رزين
غابر	صابر

١٢ — « ارتباط عن طريق الوزن الرمني — Assoc. by Similar Rhyme »

مثال ذلك :

الوزن المشترك	التابعـــــة	التنبيـــــه
مستفعل	مستشكل	مستعطف
متفاعل	متعاظم	متباعد
فعيل	خليل	خليط
فعال	سهام	حجاب

١٣ — « ارتباط عن طريق الترادف — Assoc. by Synonymisation »

مثال ذلك :

التابعـــــة	التنبيـــــه
ليث	أسد
سنور	قط
يراع	قلم
إنسان	آدمي

١٤ — « ارتباط عن طريق التكرار — Association by Repetition »

وذلك بتكرار نفس اللفظ .

وهناك أنواع أخرى لا يتسع المجال لذكرها ، وإنما يمكن إجمال القول بأنه فى جميع أنواع التداعى المختلفة لابد من وجود عامل مشترك بين التنبيه والتلبية يكون حلقة الاتصال بينهما ، أو كوصلة يسرى فيها التيار الفكرى وينقل التنبيه من خاطر إلى خاطر ، وبغير وجوده لا يمكن تصور الارتباط ولا يحصل التداعى : وهذا العامل تارة يكون ظاهراً وتارة يكون مستتراً ، وقد يتوقف نجاح الباحث النفسانى فى مهمته على كشف ذلك العامل المستتر ، فيتعين عليه البحث عنه لأجل تشخيص عقلية الشخص وحالته النفسية وقت الاختبار تشخيصاً صحيحاً ، خصوصاً إذا كان التداعى من النوع غير المباشر ، فإن مهمة الباحث عندئذ تكون أكثر مشقة ، لأنه قد يصادف أمامه سلسلة من المسائل المعقدة التى يجب عليه حلها حتى يصل إلى استخراج ما كمن فى النفس من الخواطر والأفكار ، وهتك ما أسدل عليه من كثيف الحجب والأستار .

زمن التداعى أو قياس سرعة ورود الخواطر

إن سرعة الخواطر تختلف باختلاف الأشخاص ، كما تختلف باختلاف الظروف والأحوال النفسية للشخص الواحد ، وتختلف كذلك باختلاف أنواع الروابط العقلية والموضوعات التى يجرى فيها الاختبار .

والمراد بقياس سرعة الخواطر هو معرفة ما يلزم من الزمن لاستحضار الخواطر وإيقاظها فى الذهن بأقصى ما يمكن من السرعة ، وذلك يتم بقياس الزمن الذى يمضى بين التنبيه وورود التلبية فى الذهن .

ولما كان لقياس سرعة الخواطر أهمية كبرى فى البحوث النفسية فقد وضع لهذه الغاية جهاز كهربى دقيق ، أطلق عليه اسم « الكرونسكوب Chronoscope » ومعناه كاشف الزمن ، وهو آلة ذات جهازين كل منهما

له عقرب يلف حول دائرة مقسمة مائة درجة ، وأحدهما يلف عشر لفات فى الثانية ، والعقرب الآخر مهمته تسجيل عدد لفات العقرب الأول فى كل ثانية ، وبذلك يمكن تقدير أو قياس الزمن بجزء من ألف من الثانية ؛ وهذه الآلة تدور بالكهرباء وتستمد التيار اللازم لها من بطارية كهربية ؛ ويتفرع منها سلكان فى طرف كل منهما جهاز صغير ، أحدهما يضعه المختبر فى فمه ، ومن شأنه أن يصل التيار القادم من البطارية بالآلة بمجرد تحريك الشفتين للكلام والثانى يضعه الشخص المختبر فى فمه ، ومن شأنه أن يقطع التيار ، فبمجرد أن يلفظ المختبر كلمة التنبيه يتصل التيار الكهربى بالكرونسكوب فيدور العقرب ، وبمجرد أن يلفظ المختبر كلمة التلبية ينقطع التيار فيقف العقرب ، وبذلك يمكن قراءة الزمن الذى سجلته الآلة بين التنبيه والتلبية بدقة ، غير أن هذا الزمن يشمل بجانب الزمن اللازم لسماع كلمة التنبيه وفهمها وتنبيه مركز الكلام فالنطق وغير ذلك من العمليات العقلية الجزئية ، لكن هذه من الميسور تقدير زمنها بصفة مستقلة عن زمن التداعى وبسهولة ، بأن يقاس الزمن اللازم لمجرد تكرار الكلمة ذاتها بدون تسخير العقل فى إجراء أى تداع ، ثم يطرح الزمن المذكور فى التجربة فى حالة إجراء التداعى ، والناتج هو الزمن الذى استغرقته عملية التداعى مجردة عن باقى الإجراءات العقلية الأخرى ، فإن وجدت مثلا أن التداعى بين « رأس وقدم » استغرق ثانية و ٢٩٧ر. جزء من ألف من الثانية فى حين أن مجرد تكرار كلمة رأس استغرق ٤٥٦ر. من الثانية فإن الفرق بينهما وهو ٨٤١ر. من ألف من الثانية هو الزمن اللازم لاستحضار كلمة « قدم » فى الذهن .

وبتكرار هذه التجربة مع الشخص فى عدة كلمات يمكن استخلاص متوسط سرعة ورود خواطره أو زمن التداعى الخاص به ، وقد لوحظ أن

هنالك مستوى معيناً للعقلية الطبيعية للشخص ، بحيث إذا تجاوزه سرعة أو بطئاً دل على حال غير عادية أو غير طبيعية في العقل ، كوجود اضطراب فكرى أو انفعال نفسانى .

ولقد درست الظواهر العقلية عن طريق قياس سرعة ورود الخواطر درساً متقناً في العهد الأخير ، فأمكن فحص القوى العقلية البشرية بتعمق ، بواسطة مثل هذا الجهاز الدقيق ، وحساب الفوارق الزمنية ورصدها في كل خاطر من الخواطر المتباينة ، ولقد كشف الاختبار أن أقل خاطر يمر بالذهن يستغرق زمناً يمكن رصده بمراعاة حساب مثل هذه الفوارق الطفيفة ، والتي لم يكن في وسع الإنسان ملاحظتها من غير الاستعانة بمقياس زمني دقيق كهذا ، ولقد توصل علماء النفس أخيراً إلى نتائج باهرة بحيث أمكن تطبيق قواعد ارتباط الأفكار وتداعيها في الحياة العملية ، واستخدامها في التعليم والطب والفنون والصناعة والتجارة والقانون ، ولما كان هذا الأخير هو الذي يهمنا أمره في بحثنا الحالى دون سواه فسيكون الكلام قاصراً عليه من الوجهة العملية .

العوامل التي تؤثر في متانة الروابط الفكرية

إننا إذا جهزنا عشر بطاقات كل منها ملونة بلون خاص ، ثم جهزنا عشر بطاقات أخرى صغيرة مكتوب على كل منها عدد معين مؤلف من رقمين ، عدا بطاقة واحدة فإنه كتب عليها عدد ثلاثى الأرقام واستعرضنا مجموعة البطاقات الملونة واحدة إثر واحدة بعد أن أرفقنا بكل منها عدداً من الأعداد السالفة الذكر ، وبعد الفراغ من استعراض عشر البطاقات على هذا النحو كررنا استعراض بطاقة منها مرة ثانية ، وبعد ذلك فصلنا بطاقات الأعداد عن بطاقات الألوان بعد التأشير على كل من البطاقات الأولى بما يدل على اللون الذى كان مرفقاً بها ،

وأخذنا بعد ذلك نستعرض البطاقات الملونة منفصلا عنها أعدادها وحال استعراض كل لون ، كنا ندون مذكرة خاصة العدد الذى ارتبط فى ذهننا به ، فإننا نشاهد ثلاثة أمور جديرة بالملاحظة ، وهى أن العدد الذى استعرضناه فى النهاية والعدد الذى كررنا عرضه ، والعدد المؤلف من ثلاثة أرقام هى أقرب الأعداد ارتباطاً فى الذهن بألوانها من باقى الأعداد الأخرى ، فما الذى يمكننا استنباطه من هذه الملاحظات ؟ إنما مع التأمل يمكننا أن نتبين وجود ثلاثة عوامل مختلفة من شأنها تقوية الروابط الفكرية وهى :

١ — الحداثة أو الجدة Recency .

٢ — التكرار Frequency[1] .

٣ — الغرابة — Surprise .

فالخبرة الحديثة أقرب إلى الذهن من القديمة ، والمتكررة أقرب إليه من المفردة ، وما يكون فيها غرابة أو شذوذ من نوع ما أقرب إليها من العادية .

مثال ذلك : إذا رأيت زيداً سائراً مع عمرو من أسبوع مضى ، ثم قابلته بالأمس سائراً مع خالد ، وفى صباح اليوم قابلت زيداً وحده ، فإن ذكرى خالد تكون فى الظروف العادية أقرب إلى ذهنى من ذكرى عمرو ، وكذا الحال لو كنت قابلت زيداً مع عمرو مرة واحدة ، ولكنى قابلته مع خالد أكثر من مرة ، وإذا اتفق لى أن رأيت زيداً يطعن بكراً بسكين فإنى إذا قابلت أحدهما فيما بعد تذكرت الآخر ولو بعد حين ، نظراً لما فى هذا الحادث من شذوذ

---

(١) فالحداثة مستفادة من العدد الذى عرض أخيراً ، والتكرار مستفاد من العدد الذى تكرر عرضه ، والغرابة مستفادة من العدد الثلاثى الأرقام .

أو غرابة ، وما أثاره فى نفسى من اهتمام أو تأثر ، ومن قبيل ذلك إذا صدمتنى عربة أو سيارة ، وأتيح لى أن قرأت رقمها ، حال فرار السائق بها ، فإنى يندر أن أنسى هذا الرقم ، لما له من الأهمية فى نظرى بسبب الحادث الذى ارتبط به فى ذهنى مع أنى كثيراً ما أقرأ أرقام العربات والسيارات حال مرورها بجانبى فى الطريق ثم أنساها فى الفور لأنها لا تهمنى ، كذلك الحال لو رأى الإنسان لأول مرة فى حياته تنفيذ حكم الإعدام فى شخص شنقاً أو رمياً بالرصاص ، فإنه بمجرد ذكر كلمة إعدام أو قراءتها تتنبه فى ذهنه صورة ذلك الشخص فى الحال ، ويتمثل منظره فى مخيلته وهو مدلى والحبل فى عنقه ، أو وهو مجندل ورصاص البنادق مزق صدره ، وإنى أنا نفسى لبثت زمناً طويلا كلما سمعت أو قرأت كلمة إعدام أذكر المتهمين الذين أعدموا فى حادث السردار ، ولو أنى لم أحضر تنفيذ الحكم فيهم ، نظراً لأهمية الحادث ، ولأنى قرأت خبر إعدامهم فى الصحف وأنا فى حالة تأثر نفسى وانفعال ، فقد ربط هذا الحادث فى ذهنى بكلمة إعدام ربطاً محكماً .

فالانفعال النفسى عامل من أقوى العوامل التى تزيد الروابط العقلية متانة ، وليس فينا من يجهل ما للحوادث المزعجة من الأثر الشديد فى النفس أثراً قد يدوم زمناً طويلا أكثر مما يتصوره الإنسان لأول وهلة ، فإنه قد يصيب الإنسان فى عهد طفولته حادث يملأ نفسه الصغيرة رعباً ، ويبقى الانفعال مكتوماً فيها ، ثم يظهر بعد عشرات الأعوام فى شكل اضطرابات نفسية عندما تتنبه الذكريات القديمة بمؤثرات خارجية قد يتعرض لها الإنسان فى مستقبل حياته على مر الأيام .

وإنى أذكر هنا على سبيل المثال حادثاً رواه الطبيب الألمانى « بول بجير — Paul Bjerr » فى مؤلفه المعروف باسم تاريخ وممارسة فن التحليل النفسى History and practice of psycho-analysis صفحة ١٢٢ وما بعدها ، ملخصه

« أن فتاة تبلغ من العمر ٢٢ ربيعاً حضرت إليه ليعالجها ، وكانت تشكو من نوبات عصبية (هستيريا) مزعجة ، أعراضها ضيق فى الصدر وعسر فى التنفس يقرب من درجة الاختناق مع خفقان فى القلب شديد يحملها على الاعتقاد بأنها سيقضى عليها بسكتة قلبية مفاجئة ، وفى الوقت نفسه كانت تشعر كأن ناراً تلتهب فى جسمها ، فهذه النوبات المزعجة أقلقت بالها وضايقتها أشد مضايقة حتى ساءت صحتها لدرجة أصبحت معها حياتها فى خطر ، وقد أعيت حالها نطس الأطباء ، فلم تنجح معها جميع العلاجات الطبية ، ولم تتقدم صحتها خطوة واحدة ، بل ظلت فى تقهقر مطرد إلى أن توجهت للأستاذ يجير فى النهاية ، فعلم من درس حالتها أن مبدأ ظهور هذه الأعراض عندها كان من مضى عامين على أثر ذهابها إلى دار التمثيل مع ابن عمها حيث حضرت رواية كان من بين مناظرها حريق مَثَّل أمامها على المسرح ، فلما شهدته أحست فى الحال باختناق فى الحنجرة والصدر وخفقان فى القلب وارتخاء فى أعضائها ، حتى كادت يغمى عليها ، وخرجت مسرعة وذهبت تواً لمنزلها ، ومن تلك اللحظة أصابها ما أصابها من النوبات المزعجة التى عاودتها فيما بعد بكثرة ، وكانت تعتريها بشدة ، وبالأخص كلما التقت بأبيها ، وهى فى حيرة من جراء ذلك ، فعمد الطبيب إلى تحليل نفسيتها بالطرق الفنية المعروفة لدى أطباء التحليل النفسى ، فظهر له أخيراً أن الفتاة أصيبت فى عهد الطفولة بحادث كان سبباً لعلة اضطرابها الحالى ، وهو أنها وهى بين الرابعة والخامسة من عمرها كانت تقطن مع أبيها فى الطابق الرابع من المنزل ، وفى يوم ما حصل حريق شديد بالطابق الأول أدى إلى انتشار النيران واندلاع ألسنة اللهب فى كل مكان بسرعة ، فاضطر أبوها لإنقاذها أن يخترق بها منطقة من الدخان الكثيف الحار ، وكان يحملها بين ذراعيه فصادفه فى طريقه باب زجاجى مغلق اضطر إلى كسره ، وكادت الطفلة تختنق بين يديه ولكنها نجت من الخطر بصعوبة .

وبذلك كشف التحليل علة المرض المتأصلة فى نفسها ، حيث ظهر أن النوبات التى تعتريها أخيراً هى صورة طبق الأصل لانفعالات ذلك الحادث القديم وذكرياته المؤلمة التى شحنت بها أعصابها الغضة الرخوة ، وظلت كامنة فيها من ذلك العهد حتى ظهرت فيما بعد أعراض الداء الدفين فى شكل نوبات هستيرية ، وذلك عندما تضعضعت أعصابها وهى فى سن العشرين على أثر خيبة آمالها فى خطيب كان قد تعلق به قلبها ، فلما شهدت الحريق فى دار التمثيل أثار منظره ذكرى الحادث القديم من أعماق فؤادها لما بين الخاطرين من رابطة تماثل ، تلك الرابطة التى توثقت عراها بتأثير الانفعال النفسى الشديد ، وبهذا يمكننا أن نفسر السبب الذى من أجله كانت تنتابه تلك النوبات عندها كلما وقع بصرها على أبيها أو التقت به فى مكان ، نظراً لما كان له من الصلة بالحادث القديم ، فلما أدركت الفتاة سر علتها ومصدر اضطرابها سرى عن نفسها واطمأن بالها وذهبت عنها تلك الأعراض الثقيلة التى كادت تودى بحياتها وعادت إليها صحتها وعافيتها .

فلننظر كيف أنه بفضل البحوث النفسية ازدادت معلومات الإنسان بشأن مرض من أعضل الأمراض النفسية حار فى كنهه الأطباء فى جميع العصور وهو مرض « الهستيريا » ، حيث ظهر أن أصل العلة فيه يرجع إلى مؤثرات كمنت فى النفس ، وأن شفاءها متوقف على إيقاظها من جديد وتنبيهها بتداعى المعانى الذى يشغل مركزاً خطيراً فى فن العلاج النفسى ، فالهستيريا هى انفعالات مختنقة وتأثيرات نفسية محتبسة تتسرب إلى الخارج عندما تنفصل عواملها النفسية بمنطقة الوعى والشعور .

فإن امرأة عصبية كان يعتريها خرس عند كل غروب اتضح عند الفحص أنها من بضع سنين كانت جالسة بجوار سرير أبيها المريض فى وقت الغروب وقد حبست نفسها عن الكلام حتى لا تقلق راحته وتعكر صفاء سكونه ،

ولبثت فترة من الزمن وهى فى صمت ووجوم ، ولكن بمجرد أن أعيد إلى ذهنها ذلك التذكار القديم عاد إليها نطقها وتماثلت مما أصابها ، وأخرى كانت لا تستطيع ازدراد الأطعمة اليابسة واقتصرت فى طعامها على السوائل اتضح من التحليل أنها كانت جلست مرة على مائدة الطعام تجاه شخص مصاب بالجذام ، وكظمت اشمئزازها حتى لا تجرح شعوره ، فلما أن ذكرت بمصدر العلة زالت عنها أعراضها وأصبحت تتناول غذاءها كمثل إنسان ، وثالثة كانت تشكو من هواجس وتخيلات مزعجة كلما شمت رائحة الدخان ، اتضح أنها كانت حضرت اجتماعاً فى مكان مغلق النوافذ تكاثف فيه دخان الطباق (التبغ) وقد تلقت فيه نبأ خيانة خطيبها وغدره بحبها وتعلقه بسواها ، فكظمت وجدان الغيرة فى نفسها بقسوة مما كان سبباً فيما انتابها من الأعراض ، ولكن عندما حللت خواطرها أدركت ما بين رائحة الدخان وانفعال الغيرة من ارتباط فارقها ما كانت تشعر به من أوهام وتخيلات .

فهؤلاء المريضات ليس من بينهن من كانت تعرف سبب علتها ولا أصل مصدرها ، ولكن بفضل الأبحاث النفسية وإجرائها بتأن وتؤدة توصل الأطباء إلى معرفة السبب الدفين ، وكشف العوامل المزعجة التى طويت فى النفس الباطنة طى السجل ، واحتبست فيها بعد أن سدت عليها السبيل والمنافذ من كل مكان بطبقات كثيفة من عوامل الكبت والنسيان فلم تجد لها مخرجاً تفلت منه وأحدثت فى الباطن كوارثها المكتومة

فتلك الأمثال ما ضربتها إلا للتدليل على أن البحث النفسى لا تقف فوائده عند حد خدمة القضاء والقانون ، بل قد يكون منه للطبيب أكبر عون فى كشف الغطاء عما كمن فى نفس العليل من الأفكار . ولقد تحول هذه الطريقة من الاختبار بحل غرفة الاستشارة الطبية ليتسنى للاخصائى فى أمراض النفس أن يصل إلى

تشخيص دقيق ، وقد أيدت الخبرة إمكان كشف الغطاء عن كثير من الأمور التى يجهلها المريض نفسه كل الجهل ، فإن هناك من الأفكار ما يكون مدفوناً فى النفس إلى غور بعيد لدرجة يتعذر معها على المريض أن يتذكرها من تلقاء نفسه مهما بذل من الجهد والعناء ، وإنما يمكن الوصول إليها وكشفها عن طريق تداعى المعانى ، فإنه تحت ضغط الرغبة فى إبراز الخواطر بأقصى ما يمكن من السرعة تخلى الإرادة الطريق لكامن الأفكار فى الظهور ودفعها إلى النشور .

ومع هذا فإن الذى يهمنا من بحثنا الحالى هو الوجهة القانونية ، فإن أسلوب التداعى إذا استخدم بمهارة وعناية — وهو ما يستدعى خبرة فنية واسعة وتدريباً طويلاً فى العمل — يصبح للمحقق الجنائى كما هو للطبيب النفسانى جليل النفع عظيم الفائدة ، ويكون لها بمثابة المجهر فى استجلاء أدق الوظائف العقلية وأصغرها ، أو كأشعة اكس فى قوة نفوذه لباطن العقل واختراق كل ما يحيط به من الحواجز الكثيفة والأستار ، وكشف ما يحويه من الخواطر والأفكار .

أساليب العلاج النفسى

ليس المجال هنا بطبيعة الحال مجال الكلام عن وسائل العلاج النفسى بالتفصيل ، بل هـذا مجاله المؤلفات الموضوعة خصيصاً لفن العلاج النفسى . إنما الغرض هو مجرد إعطاء القارىء فكرة عامة عن ماهية هذا العلاج وطبيعته ، ولهذا سأتوخى الإيجاز بقدر المستطاع فى وصف أساليب العلاج النفسى المختلفة المعترف بها علميا .

إننا عرفنا مما مرّ بنا أن الجهاز النفسى من عنصر غير مادى ، وأن قوامه المعنويات ، وعرفنا كذلك أنه يمرض ، وأن مرضه يرجع إلى عوامل نفسية ومؤثرات معنوية ، فمن المنطق إذاً أن يكون علاجه من جنسه ومن طبيعته ، أعنى قائماً على أساليب معنوية ، لأن العلاج معناه إصلاح ما فسد ، وإعادة الشىء إلى ما كان عليه ، فإذا كان الشىء الذى تطرق إليه العطب أو الفساد مادياً ، كان علاجه ماديا بطبيعة الحال ، وإن كان عنصراً غير مادى ، كان علاجه غير مادى كذلك .

وأشهر وسائل العلاج النفسى الحديثة أربعة : وهى العلاج بالإيحاء ، والعلاج بالتنويم ، والعلاج بتفريغ الانفعالات المكظومة ، والعلاج بالتحليل النفسى ، وهو أخطرها شأناً وأبلغها أثراً فى شفاء الهستيريا ومشتقاتها بصفة خاصة .

وهناك أساليب أخرى للعلاج النفسى أقل ذيوعاً من تلك ، مثل العلاج بالموسيقى ، والعلاج المهنى (Occupational therapy) ، والعلاج بالرياضة البدنية ، والعلاج بالتسلية والترويح عن النفس ، والعلاج بتغيير البيئة ، وما إلى ذلك .

وقبل التكلم عن التحليل النفسي بالذات أرى أن المقام يتطلب كلمة مجزءة عن كل من أنواع العلاج الثلاثة الأولى نظراً لأهميتها وانتشارها ، ولأنها تلى العلاج بالتحليل مباشرة في المرتبة .

العلاج بالإيحاء

Treatment by Suggestion

إن تأثر النفس البشرية بما يلقى إليها عن طريق الخطاب أو بما تتلقاه من مؤثرات الحواس عموماً هو استعداد فطرى موروث ، فحياة الإنسان الفكرية ومميزاته الشخصية ما هي إلا رد فعل لمجموعة تأثراته النفسية التي تلقاها بمرور الزمن عن البيئة المحيطة به ، وما وقع تحت سمعه وبصره من أقوال وأفعال ، من يوم ميلاده إلى حين وفاته ، فتربية الإنسان وتعليمه يقومان على الإيحاء والتلقين من جانب المربين والمعلمين أو من جانب البيئة .

والإيحاء إما أن يكون بالألفاظ الصريحة ، أو قد يكون ضمنيا عن طريق التقليد والمحاكاة أى القدوة ، وعلاج الأمراض النفسية بالإيحاء لا يشذ عن هذه الوسائل الطبيعية ، أعنى أنه يقوم على التأثير في نفس المريض بما يرمى إليه العلاج من نتائج ، والإيحاء قد يكون لفظياً بالكلام الصريح ، أو عملياً بالتأثير الصامت عن طريق المحاكاة ، أو إتيان أعمال تقع تحت حس المريض توحى إليه ضمناً بالتأثير المطلوب .

والإيحاء اللفظى إما أن يكون شعوريا أو لا شعوريا ، فالإيحاء الشعورى يكون بتوجيه الخطاب إلى المريض وهو في اليقظة ، فتتأثر نفسه بمعانى الخطاب عن طريق تخيلها أو الاعتقاد بها ، والإيحاء في اليقظة يجرى عادة والشخص الموحى إليه جالس أو نائم في وضع مريح وهو مغمض العينين ، وجميع عضلات

وأعضاء جسمه فى حالة ارتخاء تام ، وذهنه خال من الأفكار والخواطر المثيرة ، ولكن ذلك لا يمنع من تأثر الإنسان بعبارات الإيحاء التى قد توجه إليه ولو عفواً من صديق يصادفه فى عرض الطريق . وقابلية التأثر بالإيحاء تختلف باختلاف الأشخاص ، كما قد تختلف لدى الشخص الواحد باختلاف الحالات النفسية التى تمر به واختلاف الظروف .

والإيحاء اللاشعورى يكون بتوجيه الخطاب إلى الشخص وهو نائم نوماً طبيعياً أو منوّم ، فيتأثر عقله الباطن مباشرة دون وساطة الشعور بالفكرة أو العقيدة التى يراد بثها فى نفسه ، وحمله على اعتناقها .

فالأوهام والمعتقدات الفاسدة التى يكنها المريض فى نفسه ما هى إلا نتيجة الإيحاء الذاتى الصادر من نفس المريض ، وعلاجها يقوم على دفعها بإيحاءات ومعتقدات صالحة ، سواء أكانت صادرة من ذات المريض لنفسه ، أو صادرة من الغير ، فالوهم يدفع بالوهم ، كما يقول المثل السائر .

التنويم Hypnosis

التنويم أو ما يسمى عرفاً « بالتنويم المغناطيسى » هو ظاهرة طبيعية وفقاً لأحدث النظريات العلمية وليس ظاهرة مرضية ، فكل إنسان قابل لأن ينوِّم وأن ينوَّم . فمن المسلم به أن النوم ظاهرة طبيعية ، والتنويم لا يخرج عن كونه نوماً صناعياً لبعض ملكات العقل الظاهر يمكن إحداثه صناعياً عن طريق الإيحاء أو التأثير بفكرة النوم فى نفس المنوَّم ، مع استبقاء الصلة بين المنوِّم والنائم بسبب تعلق فكر النائم بها أثناء النوم ، كما يحصل بين الأم وولدها ، أو الممرضة ومريضها أثناء النوم الطبيعى .

ومن المتعذر تنويم شخص ضد إرادته لأن فى وسع الإنسان أن يقاوم إيحاءات النوم إذا قصد ذلك بإيحاء ذاتى مضاد .

ويستخدم التنويم فى علاج الأمراض النفسية لغرضين :

الأول : بقصد التأثير المباشر فى العقل الباطن أو غرس الأفكار والمعتقدات الطيبة فيه ، وطرد الأفكار والمعتقدات الفاسدة التى يكنها المريض فى نفسه .

والثانى : بقصد معرفة سبب الأعراض النفسية التى يشكو منها المريض ، أو كشف الوقائع المنسية والذكريات المؤلمة المكبوتة فى عقله الباطن عن طريق استجوابه أثناء النوم ، ثم حمل المريض إلى تذكرها بعد اليقظة وردها إلى وعيه وشعوره ، وهى وسيلة من وسائل العلاج « بالتفريغ » عن طريق التنويم .

عملية التطهير أو التفريغ

The Abreaction or Cathartic Method

يشبّه علماء النفس الانفعالات والتأثرات النفسية المكبوتة فى اللاشعور أو المكظومة فيما قبل الشعور (The Preconscious) أو فيما تحت الشعور (The Subconscious) بالشحنات الكهربائية ، وإنها إذا لم تجد لها وسائل أو مسالك طبيعية للتصريف ، فإنها تبحث عن مسالك جانبية أو غير طبيعية لتصريف نشاطها ، فعملية التفريغ ترمى إلى تحريك الذكريات المؤلمة التى يكنها المريض فى نفسه ، وإثارتها من جديد ، وحمله على تذكرها إذا كانت منسية ، ثم الإفصاح عنها والتحدث بها بكل صراحة وتفصيل ، فتنطلق الانفعالات أو التأثرات المكتومة التى صحبت هذه الذكريات من عقالها ، وتتحول من نشاط أو انفعال نفسى مكظوم إلى نشاط كلامى وعبارات لفظية ، فقد تشتد أعراض التأثر والانفعال عند المريض ، وتبدو عليه مظاهر الألم النفسى حين تحريك

هذه الذكريات ، ولكن بعد تكرار هذه العملية عدة جلسات ، يرى أن الأعراض النفسية التي كان يشكو منها المريض تأخذ في الاختفاء تدريجياً حتى تزول ويبرأ منها صاحبها .

التحليل التوزيعي

Distributive Analysis

هو نوع طريف من العلاج النفسي ابتكره العلامة « أدولف ماير » (Adolf Meyer) وهو مزيج من التحليل والعلاج بالتفريغ والإيحاء والتربية النفسية ، فالعلاج بهذه الطريقة يقوم على دراسة تاريخ حياة المريض من الوجهتين الشعورية واللاشعورية ، أعني دراسة ماضيه وحاضره والظروف المحيطة به ، وكشف ما في نفسه من أفكار أو اتجاهات خاطئة في الحياة ، وحمله على الإعراب عما يكنه في نفسه من تأثرات أو انفعالات مكظومة ، وتطهير نفسه من شهواتها الجامحة أو نزواتها ، والتخلي عن أغراضها ومطالبها وآمالها ومطامعها التي يتعذر تحقيقها عملياً ، ثم إعداده للحياة الاجتماعية الواقعية التي يعيش فيها وللمستقبل الذي يتفق مع كفايته واستعداداته استعداداً صالحاً .

فهذه الطريقة أقرب وسائل العلاج النفسي إلى التربية ، لأنها تقوم على دراسة العيوب ومعالجتها بالتوجيه الصالح ، ومع أن هذه هي أغراض التحليل النفسي بالذات ولكن الفرق بينهما في الوسيلة ، ولهذا سميت هذه الطريقة الحديثة نوعاً من التحليل ، ولكنه تحليل موجه نحو الحياة الشعورية واللاشعورية معاً ، على حين أن التحليل النفسي يرمي إلى تحليل الحياة اللاشعورية ويجعلها هدفه الرئيسي من التحليل ، ولو أنه لا يتجاهل الاعتبارات والعوامل الشعورية بطبيعة الحال .

التحليل النفسي

Psycho — analysis

كلمة مبسطة عن التحليل النفسي وأهميته في علاج الأمراض النفسية

مقـــــدمة

إن نظرة تأمل في الظواهر الكونية المحيطة بنا تدلنا على وجود عنصرين تتألف منهما مظاهر هذا الكون العظيم اللامتناهي الأرجاء يبدوان لنا — ولو ظاهريًا — كأنهما متباينان في الجوهر مختلفان في الخصائص والمظهر ، وهما العنصر المادي ويشمل جميع العناصر المادية التي لها وزن ، والثاني عنصر القوى الطبيعية التي لا وزن لها ولكنها تؤثر في المادة وتدفعها إلى النشاط والحركة مثل الكهرباء والجاذبية المغناطيسية والضوء والحرارة وما إليها .

كذلك إذا ما تأملنا في طبيعة الكائنات الحية إجمالا نجدها تتألف من ذات العنصرين اللذين تبعث منهما الحياة وهما العنصر المادي ، ويتمثل في الأجهزة العضوية لهذا الكائن ، سواء أكان نباتًا أم حيوانًا أم إنسانًا ، والعنصر الروحي أو النفسي ويتمثل فيما وراء المظهر المادي من قوى حيوية أو نشاط نفسي يدفع الجهاز العضوي إلى النشاط والحركة والغذاء والنمو والتطور وسائر مظاهر الحياة البادية لنا في الظاهر ، مثل هذه القوى النفسية أو النشاط النفسي المختزن في الجهاز العضوي مثل القوى الكهربائية المختزنة في البطارية أو في الجهاز الذي يولدها « كالدينامو » ندرك آثارها ومظاهرها الخارجية ولا ندرك ماهيتها أو حقيقتها سوى انها عنصر غير مادي له كيانه ووجوده كسائر القوى الطبيعية التي تعمل في الكون وتؤثر في المادة .

ومما لا ريب فيه أن الجهاز النفسي ، أو بعبارة أخرى الجهاز الروحى ، للكائن الحى هو مصدر حركته الذاتية ونشاطه ونموه وتطوره وسائر مظاهر حياته ، فإذا ما انحل عن البدن وتخلى عنه أصبح البدن جثة هامدة لا حراك فيها ولا حياة ، وعاد إلى طبيعته المادية القاصرة عن كل نشاط أو حركة ذاتية .

ولعل الجهاز النفسي فى الكائنات الحية عموماً هو المقصود بالحياة ، وما البدن وسائر ما يتألف منه من أعضاء وأجهزة مادية إلا مجرد أداة مسخرة لتحقيق أغراض هذا الجهاز ومآربه من الحياة الدنيا ، وليس هناك ما ينفى عقليا أن يكون البدن وسائر أعضائه وأجهزته المادية من صنع الجهاز النفسى وابتكاره .

فمثل العقل الباطن لسائر الكائنات الحية مثل العقل الظاهر لدى الإنسان كقوة مفكرة خلاقة مبدعة مدبرة ، فمخترعات الإنسان وابتكاراته لمجموعة الآلات والمعدات وسائر الأجهزة التى يستخدمها فى تحقيق أغراضه من الحياة ما هى إلا من صنع الجانب الشعورى أو القسم الإرادى من جهازه النفسى ، وهو ما يسمى اصطلاحا بالعقل الظاهر .

وقد دلت التجربة على أن العقل الباطن والعقل الظاهر من طبيعة واحدة لا فرق بينهما فى الجوهر وإن اختلفا فى المظهر حيث يقوم أولهما بوظيفته ونشاطه مستقلاً عن إرادة الإنسان وبدون علمه (ولذلك لقبه علماء التحليل باللاشعور) غير أن التسمية التى لجأ إليها العلماء العرب وفلاسفة الإسلام : وهى « العقل الباطن والعقل الظاهر » أقرب إلى فهم طبيعة الجهاز النفسى على حقيقته من حيث كونه بشقيه قوة مفكرة ، والعقل الظاهر فى الواقع ما هو إلا بروز جزئى من العقل الباطن اقتضته ضرورة الحياة الخارجية ، وخاصة الحياة الاجتماعية لدى الإنسان .

الجهاز النفسي لدى الإنسان

تناولنا في نادي المقدمة شأن الجهاز النفسي لدى الكائنات الحية عموماً ، غير أن الإنسان لحياته النفسية شأن آخر يختلف عن سائر الكائنات الحية الأخرى من حيث مجموعة العناصر النفسية التي يحتويها ويضمها هذا الجهاز ، فإن الإنسان ككائن حي اجتماعي ناطق يختلف من حيث العناصر النفسية التي يتألف منها جهازه النفسي اختلافاً ملحوظاً عما عداه من سائر الكائنات الحية الأخرى .

فتكوينه النفسي يضم أولا مجموعة الغرائز التي يشترك فيها مع سائر الحيوان يضاف إليها ما يمتاز به الإنسان من غرائزه الخاصة بحياته الفردية والاجتماعية ، وما يتمتع به عقله الظاهر من مواهب عقلية وذهنية خاصة به مكنته من بسط سلطانه على مملكة الحيوان والسيطرة عليها .

كما تشمل حياته النفسية مجموعة الاستعدادات والميول والنزعات الموروثة عن السلالات البشرية التي تعاقبت على مر السنين في مراحل تطور الجنس البشري ، وهذه تؤلف القسم الموروث من الجهاز النفسي للإنسان .

كما يضم هذا الجهاز مجموعة الأفكار والذكريات والخواطر والصور الفكرية أو الذهنية لجميع الممارسات العقلية والنفسية والبدنية التي كابدها الإنسان في مجرى حياته ، وكذلك يضم المواهب الفكرية والملكات العقلية عن طريق التربية والتعليم والمران والتجارب التي مارسها الإنسان ، أو كابدها في الحياة ، من يوم ميلاده إلى يوم وفاته ، وهذه تؤلف الجانب المكتسب من الجهاز النفسي للإنسان .

فالقسم الموروث بأكمله وقسط غير يسير من الجانب المكتسب — وهو

يشمل جميع الهزيمات العقلية ، والحوادث ، والميول ، والنزعات ، والمشتهيات ، والصدمات التي تعرض لها الفرد ولكنها كبتت في أعماق نفسه ، أو أصبحت نسياً منسياً — تؤلف الجانب اللاشعوري من الحياة العقلية ، وهو ما يسمى اصطلاحاً لدى رجال التحليل النفسي باللاشعور ، أو العقل الباطن .

أما الذكريات ، والخواطر ، والأفكار ، وجميع المعلومات والوجدانات الماثلة في الشعور ، أو التي يمكننا تذكرها بالإرادة ، وإظهارها على صفحة الشعور اختياراً فإنها تؤلف الجانب الشعوري من حياتنا العقلية ، وهو ما يعبر عنه اصطلاحاً « بالشعور » أو العقل الظاهر .

والجانب الموروث من الجهاز النفسي لدى الإنسان يضم نوعين مختلفين ، بل متناقضين من التراث ، أحدهما موروث عن الإنسان الأول جد البشرية في العصر الهمجي ، وهو عصر ما قبل التاريخ ، وثانيهما موروث عن الإنسان المتحضر الذي عاش في عصور الحياة الاجتماعية التي تلت العصر الهمجي ، وبدأت بنظام الجماعات الأولى من عشائر وقبائل ، ثم أمم وشعوب .

فالنوع الأول من التراث يضم سائر النزعات والغرائز الفردية التي كانت يعيش عليها الإنسان الأول ، الذي كان يقطن الكهوف والأدغال ، ويدين بقوانين الغابة التي تستند إلى القوة لا هوادة فيها ولا رحمة ، ولا تعرف الأخلاق والآداب ولا الدين ، لأن كل هذه القيم وليدة الحياة الاجتماعية التي لم تكن قد خلقت بعد ، فكان الإنسان الأول يستبيح العدوان على المال والنفس ، ويسفك الدماء ، ويغتصب النساء ، كما يستبيح المحارم جنسياً ، لأن الشرائع السماوية التي تحرم ذلك لم تكن قد نزلت على الجنس البشري وقتئذ . وبالجملة كانت الإباحية المطلقة من أخص طبائع ذلك العصر .

أما النوع الثانى من التراث فإنه يتألف من النزعات الاجتماعية التى ورثها الإنسان عن السلالات البشرية المتحضرة بما اشتملت عليه من أخلاق وآداب وتقاليد وقوانين وضعية وشرائع سماوية ، ويكون هذا القسم من التراث الجانب الأسمى أو الروحى من الطبيعة البشرية .

ومن ثم يتضح أن جهازنا النفسى يضم هذين الشقين المتناقضين من التراث وقد أطلقت مدرسة التحليل النفسى على الشق الأول من النزعات كلمة « Id » ، وهى كلمة لاتينية معناها ضمير المفرد الغائب لغير العاقل ، ويمكننا تعريبها بكلمة « هى » للدلالة على النفس ذات الشهوة .

والشق الثانى من التراث أطلق عليه اسم « Super-Ego » ومعناها « أنا الأعلى » وهو ما ينطبق إجمالا على ما نسميه اصطلاحا « بالضمير » ويشتمل هذا الجانب من الطبيعة البشرية بجانب القسم الموروث على القسط المكتسب فى حياة الفرد عن طريق التربية التى يتلقاها عن الوالدين باعتبارهما المثل الأعلى فى نظر الطفل أو عمن يمثل الوالدين فى مراحل الحياة كالمربين والمعلمين والرؤساء الدينيين أو المدنيين . فالضمير ، أو « أنا الأعلى » يمثل حوادث التطور الاجتماعى الخاص بالجنس البشرى بصفة عامة ، كما يمثل التطور النفسى الخاص بحياة الفرد الاجتماعية بصفة خاصة .

وهناك شق ثالث من الجهاز النفسى للإنسان تسوده الروح الواقعية ، أو العملية فى الحياة الشعورية أطلق عليه علماء التحليل كلمة « Ego » أعنى « أنا » أو الذات الشعورية ، وهذا القسم قوامه الصور الحسية المنعكسة عن الحياة الخارجية والمنبعثة من عالم الواقع والحقيقة ، ويمثل ما نسميه اصطلاحا « بالعقل » أو المنطق وهو المظهر المجسد من حياتنا العقلية .

وهو يدين بمبدأ الحقيقة « The Reality Principle » بعكس الـ « هى » فإنها تدين بمبدأ اللذة « The Pleasure Principle » .

ومن خصائص « الأنا » أنها تكبح جماح النفس ذات الشهوة أى الـ « هى » وعنها تصدر عملية الكبت التى تستمد قوتها من « أنا الأعلى » (الضمير) وعن طريقها يتم تصعيد النزعات والشهوات الغريزية ، ورفعها من مستوى الشهوة البدائية أو البدنية ، إلى سماء الشهوة العقلية أو المعنوية ، وهى تجاهد فى سبيل الآداب العامة ، والنزول على أحكام البيئة الاجتماعية التى يعيش الفرد فى كنفها وتعمل على إخضاع نزعات الـ « هى » لتقاليد هذه البيئة وآدابها ، وشرائعها الأرضية والسماوية .

ومما هو جدير بالذكر أن تقسيم الجهاز النفسى إلى المناطق الثلاثة الآنفة الذكر بما تتميز به كل منطقة من خصائص ومميزات لم يغب عن فطنة علماء النفس العرب فقد تحدثوا عنها ، ولكنهم لقبوا المنطقة الأولى وهى الـ « هى – Id » بالنفس السفلية ، والمنطقة الثانية وهى الـ « أنا الأعلى – Super-Ego » بالنفس العلوية ، والمنطقة الثالثة وهى الـ « أنا – Ego » بالنفس الأرضية ، وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر « النفس الأمارة » إشارة إلى الـ « هى » ، والنفس اللوامة إشارة إلى « أنا الأعلى » حيث ينبعث منها الشعور بالذنب ، وتأنيب الضمير .

ويمكننا مع التجاوز أن نلقب هذه المناطق النفسية أو النفوس الفرعية الثلاثة بما نسميه فى الحياة العامة : بالشهوة ، والعقل ، والضمير ، ونحن ما قصدنا من الكلام بكل إيجاز عن هذا التقسيم الثلاثى للجهاز النفسى إلا لكى نمهد للقارىء الإلمام فى عبارة مبسطة بالعوامل المهيئة للأمراض النفسية وتقاربه التحليل النفسى فى علاجها .

ما هو المقصود بالمرض النفسي ؟
وما هي العوامل المهيئة له ؟

لقد عرفنا مما تقدم شيئاً عن الجهاز النفسي ومحتوياته ، وبقي علينا أن نعرف ما هو المقصود بالمرض النفسي ، وما هي العوامل المهيئة له والآثار المترتبة عليه ، وما هي وسائل علاجه ؟

إن المرض النفسي يمكن تعريفه إجمالاً بأنه اختلال في بعض وظائف الجهاز النفسي تدركه الذات أو « الأنا » منشأه نزعات منبعثة من منطقة النفس ذات الشهوة ، أو الـ « هي » ، أو تأثرات نفسية مكبوتة كبتاً مرضياً ينطوي على صراع مرير بين الجانب البدائي وبين الجانب الاجتماعي من الطبيعة البشرية ، ينشب في أعماق النفس ، أي في العقل الباطن .

أو بعبارة أخرى هو صراع بين الإنسان الهمجي والإنسان المتحضر اللذين نسكنهما في جوف اللاشعور .

ولما كان الجنس البشري هو الذي انفرد دون سائر الكائنات الحية الأخرى بما ينطوي عليه جهازه النفسي من هذين الجانبين المتباينين من النزعات ، وهي النزعات الفردية البدائية والنزعات الاجتماعية ، فإنه انفرد كذلك من دونها باستعداد جهازه النفسي للإصابة بالظواهر المرضية كنتيجة مترتبة على قيام مثل هذا الصراع في نفسه .

وفي مقدمة هذه الظواهر الأمراض الهستيرية بشتى أنواعها ، مثل نوبات الهستيريا التشنجية ، والهستيريا التحويلية وما يتبعها من سائر الاضطرابات العضوية النفسية « Psychosomatic disorders » والمخاوف الهستيرية « Phobias » ،

كذلك الأفكار المتسلطة والظواهر العصبية القهرية ، والقلق النفسي ؛ وما إليها من سائر الظواهر المرضية المترتبة على الكبت الناشىء عن النضال الناشب بين الـ « أنا الأعلى » والـ « هي » وإن اختباء الـ « أنا » وراء إجراءات الكبت ، ما هو إلا هروب من المعركة وتجنب مواجهتها بسبب ما تكون عليه الـ « أنا » من ضعف أو وهن بسبب صغر السن ، أو قصور في النمو النفسي أو عدم النضوج الوجداني بحيث لا تقوى على مواجهة الحقيقة واحتمال مرارتها ، فتقع الـ « أنا » أو الذات الشعورية ، فريسة المرض النفسي ، لتحتمي خلف سياج أعراضه المقنعة .

فقد تمر الـ « أنا » وهي في دور نشوئها في عهد الطفولة ، وقبل أن تنضج نضوجا كاملا ويشتد أزرها بظروف ومواقف تسبب لها صدمات نفسية لا تقوى على تحملها أو أنها لا تقوى على الكفاح ضد رغبات الـ « هي » وصدها عن نزواتها ، فتعجز عن إخضاعها لمقتضيات البيئة الخارجية ، أو تعجز عن إخضاع مقتضيات البيئة الخارجية لنزعات الـ « هي » وتخفق في التوفيق بين وجهتي النظر المتباينتين ، فمصير الـ « أنا » في مثل هذه الظروف هو أحد أمرين :

الأول — التورط في الخطيئة نزولا على رغبات الـ « هي » وتحقيقها صراحة دون النظر إلى العواقب ، مما قد يؤدي بالذات أو الـ « أنا » إلى التورط في الإجرام أو ارتكاب أعمال مخلة بالنظام الاجتماعي أو التقاليد والآداب العامة ، وهو ما يجر على « الذات » العقاب الجسماني أو العقاب الأدبي في صورة الاحتقار والازدراء من جانب المجتمع أو من جانب الضمير أي أنا الأعلى .

الثاني — أن تلجأ الـ « أنا » إلى استنكار الرغبة الصادرة عن الـ « هي » وتوصد خلفها سداً منيعاً من المقاومة ، يمنعها من الظهور أو الخروج في ميدان الحياة العقلية الشعورية — أعني أنها تقاطع هذه الرغبة ، وتخاصمها ، وتنفي

هذه العملية فى عرف رجال التحليل بعملية الـكبت « Repression » .

فعن طريق ظاهرة الـكبت يتم للأنا تجنب مواجهة الخطر بنبذ القطعة التى تنطوى عليه وتـكتمه ، غير أن الأنا بهذا الإجراء اللاشعورى تفقد سلطانها على تلك القطعة المنفصلة عن مجال العقل الظاهر أو الحياة الشعورية للإنسان ، فتصبح « الأنا » عاجزة عن تجنب أذاها ، أو تفادى ما عساه أن تجره عليها فى المستقبل من المتاعب ، حتى ولو بعد أن يشتد ساعد الـ « أنا » وتنضج ، لأن القسم المـكبوت كبتاً مرضياً لاشعورياً يظل مقطوع الصلة بالعقل الظاهر بعيداً عن متناول إرادة الإنسان ، ويبقى رابضاً فى ظلام اللاشعور ، أو جوف العقل الباطن ، بشحنة وجدانية لا تنطفىء جذوتها لأنها لم تتحقق ولم يرو ظمؤها ، فتظل دائبة النشاط والحركة متحفزة للخروج والتماس طريق لها إلى عالم الواقع .

ولـكن مراعاة لأن باب الخروج الطبيعى موصد أمامها بإحكام حيث فرضت عليها رقابة شديدة ، أو حراسة قوية ، من جانب « أنا الأعلى » ، سماها فرويد « بالرقيب » ، فإنها تحتال على الخروج مقنعة أو متنـكرة فى زى مستعار زائف ، لـكى تستطيع أن تغافل الرقيب وتفلت من قبضة يده ، فتظهر على الحياة الخارجية أو على مسرح الشعور فى ثوب المرض النفسى ، الذى يعبر عن تلك الرغبة تعبيراً رمزياً (كما هى الحال فى الأحلام) ، وقد أطلق « فرويد » على هذه الظاهرة اسم الرمز أو العرض « The Symptom » .

ويذهب العلامة « فرويد » إلى اعتبار أن المرض النفسى نتيجة الـكبت الناشىء عن النضال بين الـ « أنا » والـ « هى » . ويقول : إن هذا النضال فى الواقع بين رغبات الـ « هى » وبين مقتضيات البيئة الخارجية وتقاليدها ، وأنه لما كانت « الأنا » على جانب من الأمانة والإخلاص لعالم الحقيقة والواقع ؛

فإنها لا تمالئ الـ « هى » ولا تجاريها ، بل تقف فى صف الواقع ومقتضيات الحياة الخارجية وأحكامها .

ومما لا يغرب عن البال أن النضال بين الـ « هى » و « الأنا » أو بعبارة أخرى بين الشهوة والعقل ، ليس هو السبب المباشر للظواهر النفسية المرضية ، فهذا النضال يكاد يكون موجوداً بصفة مستمرة فى حياتنا الشعورية العادية ، وقل أن تخلو منه نفس الإنسان ، ولكن السبب المباشر إنما يرجع إلى التجاء « الأنا » إلى عملية الكبت المرضى للشهوة النفسية بطريقة لاشعورية كوسيلة غير طبيعية لتفادى مواجهة النضال المرير بين الـ « هى » والـ « الأنا الأعلى » (الضمير) .

ويقع هذا الكبت المرضى عادة فى مرحلة الطفولة ، حيث تكون « الأنا » على درجة من الوهن والضعف وعدم النضوج ، بحيث لا تقوى معها على مواجهة الحقيقة ، فتفر من وجه المعركة دون مواجهتها وحلها حلا طبيعياً موفقاً ، وربما كان للاستعداد الفطرى أثر ملحوظ فى إعداد الفرد للكبت المرضى ، فقد يتعرض بعض الأطفال لنفس الظروف دون أن تظهر عليهم أعراض المرض فى مستقبل حياتهم .

فعلاج الظواهر النفسية المرضية يقوم على تحليل نفسية المريض ، ودراسة عقله الباطن للكشف عما يكنه فى أعماق نفسه من مشكلات وجدانية مكبوتة ، وإخراجها من ظلمات اللاشعور إلى ضياء الشعور ، ومساعدة « الأنا » على أن تسترد سلطانها ونفوذها على تلك المناطق المحرمة التى نبذتها « الأنا » وطردتها من حظيرتها ، ودفعتها إلى جوف اللاشعور دون حل أو علاج ، وحمل المريض على مواجهة محتويات عقله الباطن بشجاعة أدبية وصراحة تامة لا رياء فيها

ولا مواربة ، وتصفية ما بين نزعاته الباطنية وبين عالم الحقيقة والواقع من خصام ، وأوجه خلاف أو تناقض ، والتوفيق بين مبدأ اللذة الذي تنشده الـ « هي » وتدين به ، وبين مبدأ الحقيقة والواقع الذي تدين به « الأنا » ، وهذا يتطلب من المحلل النفسي أن يبذل جهده لكشف المركبات النفسية المرضية أو العقد النفسية المكبوتة في أعماق نفس المريض منذ عهد الطفولة .

ولهذا كان لزاماً على المحلل أن يعمل على إحياء ذكريات المريض الخاصة بذلك العهد البعيد ، عن طريق أسلوب التداعي الحر لخواطر المريض خلال جلسات التحليل .

ومما له أهمية خاصة في عمليات التحليل ، إحياء ذكريات المريض المتعلقة بما كابده المريض من حوادث ، أو تجارب مكبوتة ، صاحبتها شحنة قوية من الوجدانات ، أو الانفعالات ، التي كبتت بفعل الصدمة النفسية القوية التي تعرض لها المريض .

فقد تكون هذه الوجدانات وجدانات رعب ، أو خجل ، أو ألم نفسي أو جثماني ، لم يقو المريض على تحملها فأفقدته الوعي ، وانفصلت ذكريات الحادث عن مجال حياته الشعورية ، وارتدت الذكريات مع ما صاحبها من وجدانات إلى باطن الشعور .

* * *

ويعلق العلامة « فرويد » أهمية كبرى على العامل الجنسي في الإعداد للمرض النفسي .

يقول « فرويد » : إن الحوادث التي يكون لإحياء ذكرياتها أهمية ملحوظة في العلاج هي ما يأتي :

أولا : الحوادث التي تترك في نفس الصغير بالنظر إلى شدة وقعها من نفسه أثراً فعالاً خالداً في مجرى حياته الجنسية المستيقظة في عهد الطفولة ، مثال ذلك وقوع نظر الطفل على العملية الجنسية يباشرها البالغ سواء رآها جهرة أو خلسة ، أو وقوع حوادث جنسية للطفل مباشرة مع شخص أو مع طفل آخر — وهي حوادث دلت تجارب التحليل ومشاهداته أثناء علاج المرضى على أنها ليست نادرة الوقوع .

ثانياً : الإصغاء من جانب الطفل إلى أحاديث البالغين بشأن المسائل الجنسية ، وتكوين فكرة خيالية لدى الطفل عنها مراعاة إلى عدم قدرته على إدراك هذه المسائل على حقيقتها مع تعطشه إلى تنسم أخبارها لإحاطتها عادة بجو من الغموض والتضليل والكتمان .

ثالثاً : ميول الطفل ونزعاته وما يصدر عنه من أقوال أو أفعال تجاه شخصيات معينة : إما عن حب ، وإما عن كراهية .

وربما كان الوالدان في مقدمة الشخصيات التي عناها « فرويد » مراعاة لما يساور الطفل من نزعات متباينة في مستهل حياته الطفلية نحو الوالدين بسبب الموقف الأوديبي « The Oedipal Situation » الذي من مقتضاه أن يعشق الطفل أمه عشقاً جنسياً ويكره أباه ويغار منه على أمه إن كان ذكراً والعكس بالعكس إن كانت أنثى

ومما له أهمية خاصة في نظر « فرويد » خلال التحليل النفسي هو إحياء ذكريات المريض التي تتعلق بممارساته الجنسية التي كابدها بشخصه في مرحلة الطفولة ، وما تعرض له من وقائع تدخل البالغ بشأنها لوضع حد لسلوك الطفل تجاهها .

ومع ذلك فإن « فرويد » رب التحليل وصاحب النظرية الجنسية فى تعليل الأمراض النفسية لا ينفى ما لبعض العوامل غير الجنسية من الأثر فى تولد الظواهر النفسية المرضية ، كما هى الحال فى حالة الانهيار العصبى أو الظواهر الهستيرية الناشئة عن صدمات الميدان (War Neurosis) أو الأمراض النفسية الدفاعية (Defence Neurosis) التى تنطوى على دفاع لاشعورى ضد خطر يهدد المريض ، أو الأمراض النفسية النفعية التى تهدف إلى تحقيق مصلحة أو جلب منفعة يتطلع إليها المريض (Advantage Neurosis) .

ولكنها جميعها سواء أكانت ناشئة عن عوامل جنسية أم عوامل غير جنسية تقوم على نظرية الكبت والنضال النفسى اللاشعورى نتيجة تدافع عوامل نفسية متباينة النزعة أو وجدانات شديدة الوقع على أل « أنا » فلا تقوى على تحملها مما يؤدى بها إلى عملية الكبت المرضى ، وإن علاج هذه الحالات يقوم إجمالاً على كشف هذه العوامل وردها إلى مجال الحياة الشعورية للمريض وإخضاعها لسلطان « الذات » عن طريق التحليل النفسى .

* * *

ما هو المقصود بالتحليل النفسى ؟

إن التحليل النفسى فن حديث النشأة ولد فى مستهل القرن الحالى ، ومبتكره هو العلامة « زجمند فرويد » وهو طبيب نمساوى ذائع الصيت ولد فى ٦ مايو سنة ١٨٥٦ فى مدينة فريبرج بمقاطعة مورافيا ، وهى مدينة صغيرة تقع الآن فى تشيكوسلوفاكيا ، وعند ما أتم دراسته الطبية نبذ الطب ، واتجهت ميوله واستعداداته الفطرية ابتداء إلى دراسة الطبيعة البشرية عن طريق الأمراض العصبية وعلاجها بالوسائل المادية التى كانت شائعة فى الدوائر الطبية فى ذلك الحين ، ولكنه ما لبث أن نبذ هذه الوسائل واتجه إلى علاج الأمراض النفسية

بالإيحاء أولاً ثم بالتنويم ثم بالتحليل عن طريق التداعي الحر الذى ابتكره بنفسه ولذلك لقب بأنه والد التحليل .

والتحليل النفسى إجراء فذ فى أسلوبه ونوعه ، ويقوم ابتداء على أساس التسليم بنظرية العقل الباطن وهى نظرية تفترض تقسيم الحياة العقلية الإنسان إلى قسمين عظيمين ، وهما العقل الظاهر أو الشعور (The Conscious) ، والعقل الباطن أو اللاشعور (The Uncoscious) ومؤدى هذه النظرية أن تفكيرنا الظاهر وتصرفاتنا الشعورية محكومة إلى حد كبير بعوامل لاشعورية تجرى فى جوف العقل الباطن مستقلة عن إرادتنا وتفكيرنا الشعورى مثلها فى ذلك مثل الأعضاء والأجهزة الباطنية للجسم المتمتعة بحركة ذاتية وتقوم بنشاطها وتؤدى وظيفتها مستقلة عن إرادة الإنسان وإدراكه .

ويمكن التدليل على وجود العقل الباطن أو ظواهر التفكير غير الإرادى بالأحلام والتنويم واليقظة النومية وظواهر الأمراض النفسية والتحليل النفسى الذى يكشف عن العمليات النفسية الباطنية .

والمجال لا يتسع بطبيعة الحال للكلام عن التحليل النفسى بشيء من الإسهاب والتفصيل إنما يمكن تعريفه إجمالاً بأنه فن دراسة العقل الباطن ، وهذه الدراسة تقوم على أسلوب فنى خاص ابتكره العلامة « فرويد » كما سبق القول ، وأطلق عليه اسم « أسلوب التداعى الحر The Free Association Method » ، يهدف إلى سبر غور أعماق اللاشعورية وكشف ما يحتويه من غرائز بدائية وميول فطرية ونزعات وتأثرات أو رغبات وجدانيـة مكبوتة يحملها الفرد فى طيات عقله الباطن ولا يعلم عنها شيئاً ، ولكنها ذات أثر فعال فى حياته الشعورية من حيث سلوكه وتصرفاته وأعماله ، وسائر علاقاته الاجتماعية والفردية » .

وعملية التحليل تهدف إجراءاتها إلى تذكير المريض بحوادث الماضى المنسية ، وخاصة ما كان منها فى عهد الطفولة المبكرة وأهمها ما كان فى سبع السنوات الأولى من طفولته ، أما طريقة التذكير بالماضى فتقوم على أن يطلب من المريض أن يذكر كل ما يرد على باله فى جلسة التحليل من الخواطر والذكريات أيا كانت هذه الذكريات دون ما حرج أو خجل أو مراعاة لأى اعتبار على أن يبدأ المريض بذكر أقرب الخواطر إلى ذهنه ثم يستقصيها ابتداء من حاضرها إلى ماضيها خاطراً فى إثر خاطر ، وهكذا حتى يصل بخواطره إلى ذكريات الماضى السحيق وتبلغ من أعماق نفسه القرار .

كما تستخدم أحلام المريض فى دراسة عقله الباطن وكشف أسراره الدفينة ، وإخراج مكنوناته إذ لوحظ أن أحلام المرضى النفسيين وخاصة فى مرحلة العلاج تدور عادة حول ما يعانونه من مشكلات نفسية مكنونة وغرائز ونزعات محرمة مكبوتة تعبر عنها الأحلام تعبيراً رمزيًّا يستعصى على المريض حله أو إدراك معناه مما يتطلب من المحلل والمريض التعاون على حل هذه الرموز للوصول إلى المعانى الحقيقية الكامنة وراءها ، وذلك عن طريق أسلوب التداعى الحر فى كل جزء من أجزاء الرؤيا .

فأحلام المرضى النفسيين فى خلال فترة العلاج تمثل جانباً هامًّا من جوانب دراسة نفسية المريض وسبر غور عقله الباطن ، وقد لقبها العلامة « فرويد » بأنها الطريق السلطانى إلى العقل الباطن (The Royal Road to the Unconscious) .

كما أن فلتات القلم واللسان شأناً يذكر فى جلسات التحليل لأنها تكشف عن مكنون عقله الباطن دون أن يفطن الإنسان إلى ذلك .

ويقول « فرويد »: إن التحليل النفسى يقوم على دراسات ومعلومات لا يُعرف

عنها شيء خارج نطاق دائرة التحليل ، ولا يعرف قدرها إلا فريق المشتغلين بها ، وإن تعاليم التحليل النفسي قد يتعذر على الإنسان هضمها أو الاقتناع بها حتى لدى طلاب التحليل النفسي المبتدئين إلا إذا كابد المرء عملية التحليل على شخصه بأن وضع نفسه بين يدى محلل قدير .

ويعتبر التحليل النفسي أخطر وسيلة من وسائل العلاج النفسي الحديث ، وأعظمها شأناً فى شفاء الأمراض النفسية العصبية المسماة (Psycho - neurosis) كالهستيرية التحويلية التى تتحول فيها الانفعالات النفسية المكبوتة إلى أعراض بدنية أو نوبات تشنج هستيرى والمخاوف الهستيرية (Phobias) والظواهر النفسية القهرية (Compulsion Neurosis) ، وهستيريا العقائد الوهمية (Paranoid hysteria) ، وما إليها من سائر الظواهر النفسية المرضية التى يرجع سبب العلة فيها إلى عملية الكبت المرضى .

ويقول العلامة « فرويد » إن التحليل النفسي بالنسبة لغيره من أساليب العلاج النفسي الأخرى (كالعلاج بالتنويم ، أو العلاج بالإيحاء ، أو بعمليات التفريغ أو التطهير ، أو بالتحليل التوزيعى وما إليها) هو بمثابة الذهب الخالص بالنسبة لتلك الوسائل التى تعتبر كالذهب القشرة بالنسبة للتحليل .

فإن التحليل النفسي أشبه شيء بعملية جراحة كبرى كعمليات فتح البطن (ولكنه باطن النفس) كما أن وسائل العلاج الأخرى أشبه شيء بالجراحة الصغرى أو الجراحة السطحية التى تجرى فى القشرة النفسية .

ومما هو جدير بالذكر أن المشكلات النفسية أو العقد النفسية التى تحل أثناء العلاج لا رجعة فيها بتاتاً لأنها استؤصلت من جذورها ، فالخطوة التى يخطوها المريض عن طريق التحليل إلى الأمام نحو الشفاء لا عودة فيها إلى الوراء مستقبلا مهما كانت الظروف بخلاف العلاج بالوسائل الأخرى السطحية فقد يكون المريض

قابلا فى المستقبل لنكسة المرض إذا ما توافرت الظروف السيئة التى تنبه ظهور الأعراض مرة ثانية ، ولو بصورة أخرى ، لأن جذور العلة النفسية الدفينة فى باطن النفس لم تستأصل بعد .

غير أن التحليل إجراء بطىء مضن يستنفد من الوقت والتكلفة الشىء الكثير مما لا يطيقه إلا القليلون ، فقد يطول مداه فى بعض الحالات إلى بضع سنين قد تصل إلى سبعة أو تزيد .

ومن بين تقاليد جمعيات التحليل النفسى الدولية التى انتشرت حالياً فى جميع أرجاء العالم المتحضر ونظامها الأساسى أنها تشرط فيمن يسمح لهم من أعضائها بممارسة عمليات تحليل نفسيات المرضى أن يحللوا هم أولاً فترة من الزمن تتراوح بين عامين وأربعة أعوام ، ويسمى هذا بالتحليل التدريبى ، أو التعليمى (instructive analysis) .

لأن المحلل النفسى لا يستطيع أن يحلل من مشاكل مرضاه النفسية إلا بقدر ما حلل من مشاكله هو شخصياً ، وتجرى عادة عملية التحليل التدريبى على يدى محلل نفسى من المحللين المدربين المحنكين .

بيد أن هذه القاعدة لها استثناء بالنسبة لعدد قليل من المحللين النفسيين من زعماء التحليل النفسى وقادة مدرسته ، وفى مقدمة هؤلاء العلامة «زجمند فرويد» فإن هؤلاء القادة استطاعوا أن يحللوا أنفسهم تحليلا ذاتياً عن طريق أحلامهم ، ولو أن هذا الإجراء شاق عسير لا يطيقه إلا القليلون .

* * *

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المجال الإشارة إلى أن التحليل النفسى ليس مقصوراً على المرضى النفسيين فحسب ، بل قد يحتاج إليه الكثيرون من الأصحاء

أو الأسوياء بحكم مهنتهم التى يحتاجون فيها إلى فهم الطبيعة البشرية على وجهها الصحيح ، وما تمكنه النفس البشرية من أسرار ومخبآت سواء بالنسبة لأنفسهم أو بالنسبة لنفوس من يتعاملون معهم وفى مقدمة هؤلاء رجال القضاء والقانون عموماً والأطباء والقادة والزعماء ورجال السياسة والمربين والمعلمين، بل والوالدين فإن التحليل النفسى يهدف إلى تخليص المرء من مؤثرات الطفولة ومشكلات التربية التى كثيراً ما يتعرض لها أبناؤنا فى مرحلة التنشئة من جانب الوالدين أو غيرهما من المربين عن جهل بأسس الصحة النفسية والتربية الوجدانية ، مما يترتب عليه شحن لاشعور الحدث بشحنات من القلق النفسى والمخاوف التى تسبب تضخماً فى ضميره فى مرحلة الطفولة نتيجة تربية غاشمة متزمتة لا هوادة فيها ولا رحمة تجاه عبث الطفولة وأخطائها وزلاتها ، فيستأثر بالحدث الشعور بالذنب ، وتأنيب الضمير تجاه أتفه الهفوات فى مستقبل حياته الاجتماعية والعائلية ، ويضحى فريسة المخاوف والقلق النفسى والأوهام مما يحد من نشاطه الذهنى ويؤثر فى قدرته على الإنتاج الفكرى والجسمانى .

وكلما زادت تكاليف الحياة وثقلت أعباؤها اشتدت وطأة الأعراض النفسية وتفاقمت بين أفراد الأمة ، ولا أظنه يعد خروجاً عن المجال أن أنقل هنا ما ورد فى مطلع المذكرة الإيضاحية للقانون رقم ١٩٨ لسنة ١٩٥٦ الخاص بتنظيم مهنة العلاج النفسى فى البلاد تجتزىء منه ما يلى بنصه :

« إن انتشار الأمراض النفسية انتشاراً ذريعاً مطرداً فى بضع السنوات الأخيرة ، وبخاصة بين أفراد الطبقة المثقفة من أبناء الأمة ممن يحملون مسئوليات اجتماعية جساماً وأعباء عائلية ثقيلة لما يسترعى النظر .

وكلما زادت أساليب الحياة الاجتماعية كلفة وتعقيداً ازدادت معها وطأة هذه

الأمراض شدة وتفاقمت حتى أصبحت الأمراض النفسية والفكرية عبئا ثقيلا على كاهل الفرد ، إذ أنها تحد من نشاطه الذهنى وتقلل من إنتاجه الفكرى أو تشله تماما فى بعض الأحيان . وقد يؤدى الاضطراب النفسى فى بعض حالات المرض القاسية إلى أوخم العواقب وأسوئها كالجنون والانتحار .

وقد أصبحت الأمم الراقية تنظر إلى الأمراض النفسية نظرة جدية باعتبارها عاملاً من أخطر العوامل المدمرة لقوى الأمة وروحها المعنوية ، فأثرها ليس مقصوراً على الفرد فحسب ، بل يتعداه فى أغلب الأحيان إلى الأسرة التى ينتمى إليها أو يعولها ، فيحطم هناءها وسعادتها وقد يؤول بها إلى التفكك والانحلال وبخاصة إذا ما روعى أن القسط الأوفر من الحالات النفسية يرجع إلى مشكلات الأسرة وما يعانيه الفرد فى أعماق نفسه من مشكلات عاطفية مكبوتة تتصل اتصالاً وثيقا بحياته العائلية الماضية أو الحاضرة ، فتتأثر بطبيعة الحال الروابط الزوجية والعائلية إلى حد بعيد .

فتفشى الأمراض النفسية وما تنطوى عليه من مضار اجتماعية أمر لفت نظر المفكرين ورجال العلم والمصلحين الاجتماعيين من أبناء الشعوب المتحضرة ، وحفزهم ذلك إلى دراسة خير الوسائل العلمية لمعالجة هذه الأمراض ومكافحتها ، فأسست معاهد العلاج النفسى وفقا لأحدث النظريات والمذاهب النفسية ، كما أنشئت عيادات المعالجين النفسيين فى كثير من أنحاء تلك البلاد ، فكانت لهـا آثار لا يستهان بها ، ونتائج محمودة فى مكافحة الأمراض النفسية والتخفيف من وطأتها إلى درجة ملحوظة .

بيد أن علاج الأمراض النفسية بالوسائل العلمية المستحدثة وخاصة أساليب التحليل النفسى ظلت إلى وقت قريب فى مصر من القلة والندرة بحيث لا تفى بحاجة المرضى على الرغم من كثرتهم ومن انتشار الأمراض النفسية على اختلاف

أنواعها بين أفراد الشعب المصرى انتشاراً يتعذر إدراك مبلغ خطورته ومداه على غير المتصلين بهؤلاء المرضى والمطلعين على أحوالهم وخباياهم ، وما يعانونه من المتاعب والآلام فى السرائر ، فكان لنقص وسائل العلاج النفسى بالأساليب العلمية وندرتها فى مصر نتائج ملحوظة فى استفحال ضرر الأمراض النفسية ، واطراد كثرتها وانتشارها . كما كان مدعاة فى أغلب الأحيان إلى التجاء المصابين بهذه الأمراض وذويهم إلى وسائل لا يقرها العلم أو إلى ضروب الدجل والشعوذة على ما فيها من مضار » .

هذا ما ورد فى مقدمة تلك المذكرة الإيضاحية لقانون العلاج النفسى المعمول به حالياً فى الجمهورية العربية المتحدة رأينا أن نجتزئه هنا بنصه لأهميته ، وحسبنا ما ورد فيه على لسان حكومة البلاد بصدد الأمراض النفسية وخطورة شأنها فى حياتنا الاجتماعية .

***

كلمة ختامية عن التحليل النفسى
وأثره فى حياة الإنسان من حيث الصحة والمرض

إنه ليس من السهل على المرء الذى لم يذق مرارة المرض النفسى ولم يكابد آلامه القاسية ثم أسعده الحظ بالشفاء عن طريق التحليل أن يدرك عظم شأن التحليل كوسيلة للعلاج وما له من قوة سحرية فى استئصال شأفة المرض النفسى من جذورها وإعادة بناء الشخصية على أساس جديد سليم خال عن العلل والآفات المدمرة لقوى الفرد الذهنية وروحه المعنوية ، وبالتالى قوى المجتمع على حد تعبير المذكرة التفسيرية لقانون العلاج النفسى بحق على ما سلف بيانه .

وقد أتاحت لى فرصة مزاولتى العلاج النفسى عن طريق التحليل أعواماً

طويلة أن ألمس عن كثب التحول الكبير فى الحالة النفسية لمن آمنوا بجدية التحليل النفسى واستجابوا لإجراءاته من المرضى النفسيين تحولاً أخرج المريض من سجن المرض ، وفك عنه وطأة أغلاله الثقيلة التى قيدت نشاطه وشلت كل قطرة من إنتاجه الذهنى والبدنى ، فرده العلاج إلى الحياة الاجتماعية الحرة الطليقة بكل ما فيها من مزايا الكد والكفاح والقدرة على الانتاج المثمر عوضاً عن الكفاح ضد الداء الدفين الذى كان يستنفد من المريض كل طاقاته الروحية والبدنية .

وإنى لكى لا أذهب بالقارىء بعيداً فى معرض التدليل على مبلغ ما فى هذا القول من صدق وأصالة حسبى أن أدلل عليه بما لمسته بنفسى من أثر التحليل الذى أجريته ، لا على المرضى فحسب ولكن أجريته ابتداء على نفسى بنفسى عن طريق أحلامى على فترات دامت بضعة أعوام فى خلال فترة دراساتى لمبادىء التحليل ونظرياته وأساليبه ، والتحليل الذاتى إجراء شاق عسير لا يطيقه إلا عدد يسير من الناس لأنه يحتاج إلى استعداد فطرى خاص يمكّن الفرد من الغوص فى أعماق نفسه ، وسبر أغوارها ومجاهلها بشجاعة وجلد وتحمل ، فكانت أحلامى وتفسيرها هى أهم وسيلة اعتمدت عليها فى القيام بهذا الإجراء الفذ فى بابه الذى يقوم على دراسة الأحلام وتحليلها وحل رموزها وطلاسمها عن طريق أسلوب التداعى الحر[1] .

ومما شجعنى على الاستمرار فى عمليات التحليل الذاتى والمضى فيها بلا شفقة أو رحمة على نفسى نجاحى وأنا فى مستهل مراحل هذا التحليل فى حل رموز حلمين

---

(١) وهى نفس الطريقة التى لجأ إليها العلامة « فرويد » فى تحليل نفسيته تحليلا ذاتيا حسبما أخبرنى به الدكتور « جون ريكمان » الذى كان رئيساً لجمعية التحليل النفسى الدولية بإنجلترا وذلك عندما زار مصر فى أوائل عام ١٩٥٠ أثناء حفلة تكريم أقمتها له فى دار معهد الموسيقى العربية مذ كنت رئيساً لذلك المعهد وذلك بمناسبة تحدثى إليه فيما كنت أجريته على نفسى من تحليل ذاتى عن طريق الأحلام .

قصيرين مزعجين وردا على التعاقب ، بينهما فترة زمنية قصيرة لم تزد على بضعة أيام ، فكشفت لى إجراءات التحليل عن المعنى الباطنى لكليهما ، وتنبهت فى ذاكرتى وقائع مجموعة من الحوادث والذكريات الأليمة التى مرت بى فى عهد الطفولة والصبا ولكنها كبتت فى أعماق اللاشعور لما كان يصاحبها من شحنات كبيرة من الألم النفسى والجسمانى الذى تجرعته فى ذلك الحين بشجاعة نادرة دون أن أظهره للناس بدافع الكبرياء وعزة النفس على الرغم من صغر سنى .

ومما هو جدير بالذكر ما لاحظته من شدة الاضطراب النفسى المصحوب بسرعة فى ضربات القلب وعملية التنفس مع تصبب العرق فى أثناء كشفى لتلك الحوادث تباعا ، اضطرابا دام معى منذ الصباح المبكر حتى الظهيرة ، ثم أعقب ذلك هدوء نفسى عجيب لم أذق طعمه من زمن بعيد ، هدوءاً لفت أنظار بعض أصدقائى الذين قابلتهم بعد ظهر ذلك اليوم ، فتبادر إلى ذهنى أن أختبر نبضى يومئذ فوجدته قد عاد إلى مستواه الطبيعى بأن أصبح لا يزيد على ٧٦ دقة فى الدقيقة مع أنه قبل ذلك كان لا يقل عن ٩٠ دقة ، وكثيراً ما كان يصل إلى ١٢٠ دقة فى الدقيقة الواحدة (وهو ما يقرب من ضعف الضربات الطبيعية) نتيجة أعراض قلق نفسى دام معى فترة لا تقل عن ثلاث سنوات بسبب الشحنات الوجدانية المكبوتة التى تحركت أعراضها من نفسى بسبب انكبابى على دراسة الأمراض النفسية ووسائل علاجها بحماس ولذة ، فأثار اطلاعى على العقد النفسية الخاصة بالمرضى فى المراجع العلمية مثيلاتها من نفسى لاشعوريا ، وفى غفلة منى انتابتنى الأعراض تدريجيا حتى تفاقمت واستفحل أمرها .

إن هذه التجربة قوت إيمانى بالتحليل النفسى وجديته ، فمارست إجراءات التحليل الذاتى على مراحل فى خلال فترة زمنية دامت نحو ثمانية عشر عاماً خرجت بعدها إنساناً آخر ، فإن ما لمسته فى نفسى من تبدل ملحوظ فى حالتى

النفسية بعد التحليل عما كانت عليه قبل التحليل استرعى نظرى وجعلنى أزداد إيماناً بجدية التحليل وخطورة شأنه فى إعادة بناء الشخصية على أسس وأوضاع نفسية جديدة سليمة واضحة المعالم من الناحية الروحية ، حيث تحل بالنفس الطمأنينة محل الخوف المبهم ، وراحة الضمير والسعادة الباطنية محل الشقاء وتأنيب الضمير ، والجرأة والإقدام محل التخلف والإحجام ، والثبات وقوة اليقين محل الشك والتردد والحيرة ، والنزوع إلى البناء والتعمير محل الهدم والتدمير ، والصبر وقوة احتمال صدمات الحياة محل اليأس والجزع ، وخوض معركة الحياة بشجاعة وإيمان محل الجبن والهروب من الميدان ، وسعة الصدر والتسامح تجاه أخطاء الناس وزلاتهم محل الغضب والنزوع إلى الانتقام .

وبالجملة فإن التحليل النفسى إذا ما صادف نجاحاً وتوفيقاً فى أداء رسالته لدى مَنْ مَنّ الله عليهم بنعمة الاستجابة لهذا الضرب من ضروب العلاج النفسى ، يكفل للمرء السعادة الروحية والشعور بالرضا والاستمتاع بما فى الحياة من نعم كثيرة وجمال ، وهو بأوجز عبارة ينقل النفوس السقيمة من جحيم المرض إلى جنة الحياة النفسية الصحيحة السليمة ونعيمها .

إلى هنا انتهى الجزء الأول ، ويليه الجزء الثانى الخاص بالتطبيق

رقم الإيداع ٢١١٨ / ١٩٦٩

مطبعة السعادة بمصر

اسم الكتاب	علم النفس الجنائى
اسم المؤلف	محمد فتحى
رقم اليومية	١٦٦٨
رقم التصنيف	١٥٠

Bibliotheca Alexandrina
1523086